وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الزّيتونة
المعهد العالي لأصول الدّين بتونس

الرّؤية الإصلاحيّة بين
محمّد بن عبد الوهّاب و محمّد الطّاهر ابن عاشور:
دراسة مقارنة

رسالة نيل الماجستير
في العلوم الإسلاميّة

إعداد الطّالب: خَمِيس الماجري
إشراف: د. علي الصّولي

السّنة الجامعيّة لسنة 1433 / 1434 هـ. 2012/2013 م

بسم الله الرّحمن الرّحيم

اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّه يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ، تَعَلُّمُ هَذِهِ الثَّلاثِ مَسَائِل، والْعَمَلُ بِهِنَّ:
الأُولَى: أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا وَرَزَقَنَا وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلا، بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً، فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً ﴾ [المزمل: 15 . 16].
الثَّانِيَةُ: أَنَّ الله لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَداً فِي عِبَادَتِهِ، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً ﴾. [الجن: 18].
الثَّالِثَةُ: أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ، وَوَحَّدَ اللهَ لا يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: 22].

الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب

(الأصول الثّلاثة الواجب على كلّ مسلم ومسلمة تعلّمها)

﴿ وَكَانَ إِصْلَاحُ الِاعْتِقَادِ أَهَمَّ مَا ابْتَدَأَ بِهِ الْإِسْلَامُ ، وَأَكْثَرَ مَا تَعَرَّضَ لَهُ ; وَذَلِكَ لِأَنَّ إِصْلَاحَ الْفِكْرَةِ هُوَ مَبْدَأُ كُلِّ إِصْلَاحٍ; وَلِأَنَّهُ لَا يُرْجَى صَلَاحٌ لِقَوْمٍ تَلَطَّخَتْ عُقُولُهُمْ بِالْعَقَائِدِ الضَّالَّةِ، وَخَسِئَتْ نُفُوسُهُمْ بِآثَارِ تِلْكَ الْعَقَائِدِ الْمُثِيرَةِ، خَوْفًا مِنْ لَا شَيْءٍ، وَطَمَعًا فِي غَيْرِ شَيْءٍ. وَإِذَا صَلُحَ الِاعْتِقَادُ أَمْكَنَ صَلَاحُ الْبَاقِي; لِأَنَّ الْمَرْءَ إِنْسَانٌ بِرُوحِهِ لَا بِجِسْمِهِ ﴾.

الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور

تفسير الآية 19 من سورة آل عمران: (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ)
التّحرير والتّنوير. (3 /194). ط: الدّار التّونسيّة للنّشر. س:1404 هـ . 1984 م

شكر وتقدير

قال الله تعالى (في سورة النّمل الآية 19) ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِين ﴾ . وقال الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم (فيما رواه الإمام التّرمذي حديث رقم 1954): ﴿ مَن لا يشكرُ النَّاسَ لا يشكرُ اللهَ ﴾ . وقال أيضا . فيما رواه أبو داود وأحمد و النّسائي وابن حبّان والحاكم . ﴿ مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُوهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تُرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ ﴾.

الشّكر لله تعالى أوّلا وآخرا ...

ثمّ بفيض من الاحترام والتّقدير أتقدّم بخالص الشّكر ووافر الامتنان لكلّ من أعانني وآزرني ووقف إلى جانبي لإنجاز هذا العمل المتواضع وعلى ما بذلوه من جهود ومساعدة وحسن عطاء، وأخصّ بالذّكر منهم أساتذتي الأفاضل الدّكتور عليّ الصّولي والدّكتور طه بوسريح والدّكتور علي محسن شابير حفظهم الله تعالى ونفع بهم، وقد أشرفوا على هذا البحث و غمروني بتوجيهاتهم الثّمينة، وبنصائحهم الأمينة وإرشاداتهم المهمّة.

كما أشكر أسرتي التي عانت من انشغالي عن متطلّباتها الأساسيّة في سبيل إتمام هذه الرّسالة. وشكري الموصول أيضا إلى كلّ من يبذل جهدا ويقدّم نصحا يوجّه هذا البحث ويُسدّده نحو الصّواب.

وإليهم جميعا أقول ما قاله الحكيم:

ولو أنّني أوتيت كلّ بلاغة ***** وأفنيت بحر النّطق في النّظم والنّثر
لما كنت بعد القول إلاّ مقصّرا ***** ومعترفا بالعجز عن واجب الشّكر

إهداء

إلى والدتي ووالدي الحبيبين العزيزين . رحمهما الله تعالى . .

و إلى زوجتي صاحبتي ورفيقة الدّرب التي ضحّت كثيرا، والتي غمرتني بتشجيعها الكبير، وبصبرها الوفير، ووفائها العظيم النّادر ... وإلى جميع أولادي رباب وقدس وحماس وإحسان ومحمّد الذين تحمّلوا ثقيلا، وإلى كلّ أفراد أسرتي الأحياء منهم والأموات، وإلى الإمامين محمّد ابن عبد الوهّاب ومحمّد الطّاهر ابن عاشور . رحمهما الله تعالى . وإلى كلّ مشايخي المُتّصل سندهم إلى رسول الله صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم، وإلى الموحّدين المخلصين العاملين للدّين في كلّ مكان وزمان، أقدّم لهم هذا الجهد المتواضع طامعا أن ينفع به الأمّة في الدّنيا، وأن ينفعني به ربّي يوم أقف بين يديه الكريمتين.

مقدّمة الطّبعة الأولى

هـذه إشـارات اقتضـتها الطّبعـة الأولى للرّسـالة حرصـتُ أن تكـون بـارزة في مقـدّمتها، لا مـن بـاب التّنويـه ولا مـن بـاب الـدّفاع التّقليـدي، ولكـن قـدّرتُ أنّهـا ضـروريّة و مُهمّـة. وهـذه الإشارات منها ما هو شكليّ ومنها ما هو مضمونيّ.

أمّـا الشّـكليّة فهـي أنّ عنـوان الرّسـالة ربمـا يسـتفزّ الكثـير مـن المحنَّطـين المتسـرّعين الـذين أدمنـوا علـى تخريـب الإسـلام ولم يُوطّنـوا أنفُسـهم بعـد علـى تقبّـل الاخـتلاف: فمـن الوهلـة الأولى، ومـا أن يقـرؤوا عنـوان البحـث (الرّؤيـة الإصـلاحيّة بـين محمّـد بـن عبـد الوهّـاب ومحمّـد الطّـاهر ابـن عاشـور: دراسـة مقارنـة) حـتّى يهتـزّ كيـانهم و يبـدون لـك نوعـا مـن الغرابـة و الـرّفض، والحـال أنّهـم قـد كسّـروا لنـا رؤوسـنا بشـعارات الانفتـاح والتّعـدّد والتّسـامح. لقـد اسـتفزّ هـذا العنـوان الكثـير مـنهم، وتوافقـت ردودهـم علـى الغرابـة والدّهشـة والإنكـار، فقـال بعضـهم: كيـف وهـل ومـن يسـتطيع أن يجمـع بـين محمّـد بـن عبـد الوهّـاب ومحمّـد الطّـاهر ابـن عاشـور ؟كيـف يجمـع بـين " الوهّـابي الضّـالّ " المتشـدّد والمتطـرّف، وبـين الإمـام ابـن عاشـور المتسـامح والمعتـدل؟ وقـال آخـرون: لمـاذا يُثـار هـذا الملـفّ المعقّـد والسّـاخن ؟ لمـاذا يُثـير المشـاكل ؟ ولمـاذا ولمـاذا ولمـاذا ؟ وكيـف وكيـف وكيـف؟ وكـلّ ذلـك أتفهّمـه بحكـم عوامـل الجهـل والقمـع والتّوظيـف الـذي سُـلّط علـى العِلـم في تـونس طيلـة أكثـر مـن نصـف قـرن. ولكـنّ الـذي لم أتفهّمـه أنّ بعضـهم أظهـر إعجابـه بطرافـة الموضـوع وضـرورته في هـذه المرحلـة الدّقيقـة الـتي تمـرّ بهـا بلادنـا، وإذا خـلا بآخرين أثار علينا الغُبار وطعنوا في نيّاتنا.

كمـا جـاءت الرّسـالة في 228 صـفحة، واحتـوت علـى 571 هامشـا، و83 مصـدرا، و 42 مرجعا. وهذا جُهد مُعتَبَر في رسالة ماجستير تطلب 60 صفحة فحسب.

أمّا الملاحظات أو الإشارات المضمونيّة فهي:

ـ الإشـارة الأولى: حـاول خصـوم المشـروع السُـنّي " السّـلفي " تشـويهه بأسـاليب ظالمـة مُنحطّـة وقـذرة، لعـلّ أبرزهـا أن يُقـدّموا هـذا التّيّـار ورمـوزه أنّهـم ليسـوا دعـاة إصـلاح بـل دعـاة هـدم وتخلّف وانحطاط و" إرهاب ".

ـ الإشارة الثّانية: التّذكير بأنّ كلّ الحركات الإصلاحيّة الإسلاميّة المعاصرة انطلقت من منطلقات واحدة ومشتركة في إعطاء الأولويّة للإصلاح العقدي كمدخل منهجي لكافة فروع الإصلاح الأخرى كالتّعليمي والتّربوي والآجتماعي والسّياسي وكشرط أساسي وضروري لكلّ إصلاح حضاريّ. فإذا تقرّر ذلك، فلا غرابة ولا شذوذ في العنوان الذي رسمتُه، لأُثبت بالبحث والتّقصّي العلميّين أنّ المشترك بين الشّيخين . رحمهما الله تعالى . هو كثير جدّا، وسَتَرى ذلك في البحث.

ـ الإشارة الثّالثة: سعيتُ من خلال هذه الرّسالة إلى تصحيح خطإ تاريخيّ مهمّ، وهو أنّ المتأمّل في القراءات التّقليديّة التي قُدّمت للحركات الإصلاحيّة اجتمعت جلّها ـ تقريبا ـ على بدء التّأريخ لها بالقرن التّاسع عشر على يد جمال الدّين الأفغاني ثمّ تلتها الحركة الإصلاحيّة في تونس في عهد خير الدّين باشا. وأحسب أنّ هذا التّأريخ قد (خانته) الموضوعيّة، لأنّ أوّل حركة إسلاميّة إصلاحيّة معاصرة ـ في تقديري . جاءت في أواخر القرن الثّامن عشر، وانطلقت من الجزيرة على يد الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب . رحمه الله تعالى . ، وأنّه أوّل من قدّم مشروعا إصلاحيّا واضحا يرتكز على إصلاح العقيدة وإقامة الشّريعة، وأنّ جميع حركات الإصلاح الإسلاميّة جاءت بعدها وتأثّرت بها وانطلقت بمشروعه. ولقد شهد بذلك الكثير من أهل الإنصاف، منهم خير الدّين الزِّرِكْلي الدّمشقي، حيث قال في مؤلف الأعلام:" وكانت دعوته ـ يقصد دعوة الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب ـ وقد جهر بها سنة 1143 هـ (1730 م) الشّعلة الأولى لليقظة الحديثة في العالم الإسلامي كلّه: تأثّر بها رجال الإصلاح في الهند ومصر والعراق والشّام وغيرها، فظهر الآلوسي الكبير في بغداد، وجمال الدّين الأفغاني بأفغانستان، ومحمّد عبده بمصر، وجمال الدّين القاسمي بالشّام، وخير الدّين التّونسي بتونس، وصديق حسن خان في بهوبال، وأمير علي في كلكتة، ولمعت أسماء آخرين ".

ـ **الإشارة الرّابعة**: التّحدّيات التي اعترضت الإسلام ومشايخ العلم الشّرعي ومؤسّسة " الزّيتونة "، كما اعترضت المجتمع التّونسي أيضا منذ الإحتلال الفرنسي لتونس سنة 1881م، ثمّ سنة 1934م إثر القطيعة التي حدثت بين الزّعيم الزّيتوني " عبد العزيز الثعالبي " مؤسّس أوّل حزب سياسي تونسي، وبين الحبيب بورقيبة العلماني. وهي تحدّيات

ظاهرة وخفيّة عاشوها من الدّاخل ومن الخارج على حدّ السّواء، حيث تحالف المستعمر مع أذنابهم من العلمانيّين، فتحوّل الصّراع حول المسألة التّونسيّة من صراع فرنسي تونسي إلى تونسي تونسي، وبالتّالي بين خيارين ثقافيّين حضاريّين هما: البديل الإسلامي والبديل العلماني.

وكان لفرنسا ـ التي أقطعت البلاد إلى أذنابها . الدّور الأكبر في دعم الفريق العلماني للتّصدّي والإنتصار على الفريق العربي الإسلامي الذي نعتته بـ: " التيّار المحافظ والرّجعي " أو " الظّلامي "! وفي المقابل نعتت التيّار العلماني الفركفوني (المعادي للدّين) والمنادي بفصل الدّين عن الدّولة بأنّه " تقدّمي وحداثي وتنويري".

ولا يزال هذا الصّراع . منذ ذلك الوقت . يتشكّل في مظاهر كثيرة ومتنوّعة، من أبرزها: سيطرة " نخبة " أوصياء غير أمناء على الفكر والإنسان والوطن، فخرّبوا الفكر ودمّروا القيمة العلميّة وحرّفوا المعنى والحقيقة والقيم. فكانوا يُخفون الكثير من فكر علماء الزّيتونة أو يُحرّفونه عن معانيه الشّرعيّة بحملها على معانيهم الفاسدة ليواطئ علمانيّتهم القبيحة، تماما كما كان يفعل اليهود زمن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حيث كانوا إذا تحاكموا إليه يُخفون ما أنزل الله عليهم في التّوراة كحكم رجم الزّاني، كما أخفوا أيضا صفات النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والبشارات به، قال الله تعالى: " يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ".

ولذا فقد بيّنتُ في خلال البحث أنّ عصابة الحكم والفكر التي قبضت على تونس وألحقتها بفرنسا قد لبّست على النّاس دينهم الحقّ بالباطل فكذبت وحرّفت وبدّلت وكتمت وأخفت فكر الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور ومنهجه الإصلاحي وجيّرته على أهوائها ومصالحها.

ـ الإشارة الخامسة: إنّه اجتهاد ـ قابل للخطإ والتّصويب ـ يحاول أن يُجيب عن سؤال مركزي طُرِح قرنا إثر قرن وجيلا بعد جيل، منذ عهد الإمام مالك ـ رحمه الله تعالى ـ حين قال:" لن يصلح آخر هذه الأمّة إلاّ بما صلح به أوّلها ". كما طُرِح أيضًا قُبيل سقوط الخلافة العثمانيّة ومن بعدها إلى اليوم. بل طُرِح منذ عهد شُعيب ـ عليه السّلام ـ حيث قال:" إِنْ أُرِيدُ إِلاّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِيَ إِلاّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ". وهذا السّؤال هو: لماذا الإصلاح؟ وما هي أبرز شروطه حتّى لا تكون عمليّة الإصلاح

عشوائيّة هشّة وطائشة منحرفة ومُلَوَّثة غامضة، كما رأيناها في الأطروحات المعاصرة المتترّسة بثوب الحداثة مرّة أو بالإسلام (المحرَّف) مرّة أخرى، أو بالوسطيّة الاسترضائيّة الزّائفة، لأنّه جيء بها لتنفيذ أمر خُطّط من خارج الوطن بمرجعيّة تحقد على الإسلام وتُحاربه من جهة وتنهب ثرواتنا من جهة ثانية.

أفليس من المفارقات البارزة ومن الأمور العجيبة التي حدثت وتحدث في تونس أن لا يُدرج الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور في قائمة المصلحين ومن أبرزهم، ويُحشر الطّاهر الحدّاد والحبيب بورقيبة في قائمة المصلحين وقد جاءا بفكر خارجيّ وأفسدا الدّين الذي هو عصمة أمر الأمّة وعمود عزّتها ورأس كرامتها، ولا أدلّ على ذلك هذه " الثّورة " التي قامت في تونس كإجابة واضحة للرّدّ على تلك الخيارات الفاسدة.

ـ **الإشارة السّادسة:** دعاني أحد الأساتذة الذين ناقشوا هذه الرّسالة في الجامعة الزّيتونة أن أكون " مُحايدا "، غير أنّه لا أتصوّر أنّ أحدا من البشر لا ينحاز إلى الذي يعتقده، كما أنّني لا أتصوّر أنّه يوجد شيء اسمه "حياد " وهذا شعار أجوف كثيرا ما يُراد به تمييع الحقّ وإرباك الباحثين عنه وتخذيل المطالبين به. ولذا سأكون منحازا في هذا البحث لما أعتقد أنّه الحقّ والصّواب.

ـ **الإشارة السّابعة:** أحسب أنّي لم أُقْدِم على بحث لمجرّد ترف فكريّ، أو مسألة نظريّة غير فاعلة تُضاف إلى مئات الألوف من البحوث الذّهنيّة الكسولة، بل حرصتُ أن يكون بحثا مُثيرا مُنتجا يجيب عن انحرافات فكريّة وأخطاء منهجيّة، كما يؤسّس هذا البحثُ أيضا للعمل، ذلك أنّ من الأصول المقرّرة عند السّلف والخلف، أنّ العلم للعمل والنّفع به.

ـ **الإشارة الثّامنة:** دأب الذين لا يريدون أن يحتكموا إلى الله ورسوله أن يُخفوا ما يُدينهم ويُسقط دعاويهم المعادية للشّريعة، ولذلك فقد أخفى المدلّسون . ذيول وقطيع فرنسا . في تونس رزنامة ضخمة من أفكار الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور الإصلاحيّة التي لا تتوافق أبدا مع ما كانوا يُنادون به، تماماً كما كان يفعل اليهود مع النّبيّ حين تحاكموا إليه، فأخفوا حكم رجم الزّاني، قال الحقّ تبارك وتعالى:" يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ "، وهذه الرّسالة حاولت أن تُخرج ما دفنته تلك النّخبة

الخائنة والعميلة من الأفكار الإصلاحيّة الجوهريّة للشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور التي لا تختلف عن الأفكار الإصلاحيّة الجوهريّة للشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب رحمهما الله تعالى.

ـ **الإشارة التّاسعة**: حاولتُ في هذه الرّسالة نقض ما أُسمّيه " فتنة العلم "، وأقصُدُ بذلك تحرير العلم والعمل من حدود الأطر الحزبيّة و مصالح الهياكل التّنظيميّة التي تحجّمه، أو تجبره لحساب طائفة محدودة في الأمّة، أو تدخله في مواجهة سياسيّة أو مغالبة سلطة أو محاكمة مخالف أو توظيفه لمجموعة ما قد تكون في الحقيقة معادية للعلم الأصيل المتحرّر من الولاءات الباطلة.

دأبت الطّبقة السّياسيّة في تونس ـ سواء كانت علمانيّة أو إسلاميّة في الحكم أم في المعارضة ـ على إيقاع شعبنا في الفتنة الشّاملة. وأخطر ما في هذه الفتنة (فتنة العلم). أمّا العلمانيّون فقد كُلّفوا من طرف المحتلّ برفض الإسلام منهجا للحكم، ووضعوا لذلك خططا ضخمة رهيبة، تقوم على تخليط الحقّ بالباطل. أمّا الإسلاميّون، فقد توسّلوا بتنزيل مُحرَّف لفقه المقاصد الذي ناضل من أجله الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور، كلّ ذلك بُغية الجناية على الشّريعة الإلهيّة و إبعاد العقيدة ومُتطلّباتها من الحياة السّياسيّة، وعملوا جميعا على حرمان المنادين بإقامة الشّريعة حقّهم الشّرعي للدّعوة إليها، بل اضطهدوهم وقمعوهم بلا رحمة ولا شفقة وبدون هوادة. وهذا من الأمور التي توافقت عليها طبقة الحكم تلك، ودليلنا على هذا التّحليل توافقها في دستورهم الجديد على رفض إقامة الشّريعة ومن تجريم التّكفير وأيضا رفض التّطبيع مع الكيان الصّهيوني، هذا فضلا عن إدانتها لكلّ من يدعو إلى تطبيق الشّريعة، ومن مُحاولة ربطها كرها بحركة التّوحيد التي قادها الإمام المظلوم الشّيخ محمّد ابن عبد الوهّاب. فالمقصود أنّي بيّنتُ بالحجّة والبيان، والدّليل من كتب الشّيخين، أنّهما شيء واحد، فكلاهما دعا إلى إصلاح عقائد النّاس وحتميّة الولاء والبراء كأولويّة في العمل الإصلاحي ثمّ دعوتهما أيضا إلى الإسلام كحلّ لمشاكل الأمّة عبر تحكيم الشّريعة والعلم والتّنافس في الصّالحات وقول الحقّ وعدم المداهنة فيه ونقض أصول البدعة ونقد أصحابها، وضرورة عُلويّة الشّريعة عبر تبعيّة الحُكّام إلى أولياء الأمر وهم العلماء الأحرار المستقلّون الذين ليس لهم ولاء إلاّ للشّريعة، وهم (الطّائفة المباركة) على تعبير ابن عاشور.

لقد اجتمع الشّيخان في كلّ شيء تقريبا إلاّ في مسألتين: الأولى اعتماد ابن عاشور على نصوص حديثيّة ضعيفة أو موضوعة في الاستدلال، كان ولا يزال خطرها عظيما على الأمّة. أمّا المسألة الثّانية ففي باب صفات الله تعالى التي لم يتبع فيها ابن عاشور إمامه مالك بن أنس الذي بيّنتُ ـ نقلا عن ابن تيميّة ـ أنّ أصول مالك هي نفسها أصول السّلف، وهي أصحّ أصول في الدّين.

ـ الإشارة التّاسعة: اقتحمت بهذا البحث خوض عقبة كانت ـ ولا تزال عند الكثيرين ـ من المحرّمات والممنوعات، وحرصتُ أن أُقدّمه بين يدي القرّاء طمعا في النّفع به ومزيد الإثراء والحوار والمساهمة في الإصلاح عبر الاستجابة إلى معالجة المستجدّات الطّارئة وما اقتضته المرحلة الدّقيقة والحرجة التي تمرّ بها بلادنا خاصّة.

إنّها الرّغبة القويّة و" الجريئة " في الخوض في مثل هذا الموضوع الدّقيق، وفي مثل هذا الظّروف الصّعبة وفي هذا الوضع الحسّاس، المتّسم باللّخبطة الفكريّة، أو قل بـ " فتنة العلم " التي تَطرح نفسها بديلا إصلاحيّا.

إنّه موضوع هامّ وحسّاس يقطع مع الجمود على الولاءات للأصنام، كما يؤسّس للإحتكام إلى العلم، سعيا منّي لرسم طريق للتّقارب والتّفاهم والتّكامل بين المختلِفين " الإسلاميّين " العاملين في السّاحة التّونسيّة، لأنّ من أبرز ما تُعانيه السّاحة الإسلاميّة هو الصّراع الحادّ والسّلبيّ بينهما. إنّها مُحاولة لصياغة رؤية شرعيّة موضوعيّة جامعة، تقطع مع التّنازع الحادّ بين (الإسلاميّين) الذي بلغ إلى مستويات يرفضها الدّين حيث وصلت إلى الإقصاء والاستئصال، وهذا بلا شكّ سيؤدّي بهم إلى الفشل وذهاب الرّيح.

إنّها مُقارَنَة طريفة تمدّ الجسور وتُحجّم ما سُمّيَ زورا (الاختلاف الكبير والواسع والحادّ بين السّلفيّة التي يُمثّلها ابن عبد الوهّاب والمقاصديّة التي يُمثّلها ابن عاشور. فهي بذلك محاولة تأسيس لبداية طرح جديد في قراءة جادّة ومعمّقة ومسؤولة تسهم في نزع الاشتباك ومدّ الجسور بين الحركات الإصلاحيّة المعاصرة سواء كانت في تونس أم خارجها. والله من وراء القصد.

والرّسالة التي عنونتها بـ: " الرّؤية الإصلاحيّة بين محمّد بن عبد الوهّاب ومحمّد الطّاهر ابن عاشور: دراسة مقارنة ". هي مُحاولة لإسقاط أقنعة المزوّرين الذين يتّهمون دعاة الشّريعة

بالتّشدّد والتّطرّف والخروج عن كذبة " الهويّة التّونسيّة " التي يُخاصمون بها الشّريعة، وبيّنتُ بالأدلّة أنّ ابن عاشور في الحقيقة هو سلفيّ بآمتياز لأنّه من الدّعاة الأوائل إلى التّمسّك بالعقيدة وتطبيق الشّريعة والتّحاكم إليها. كما حاولتُ أيضًا أن أُبْطِل دعاويهم الباطلة التي تقول: إنّ ابن عاشور ـ و حسَب مقاييسهم الفاسدة ـ هو رمز الإسلام الوسطي والمعتدل والمتسامح وقد اعتمدوا في التّرويج لذلك التّضليل " انتقاء " بعض نصوص الشّيخ أو بعض عناوين فصلوها عن بعضها و حسب تصوّراتهم العلمانيّة الخبيثة الفاسدة التي تعلّموها من الغرب الصّليبي ، تحقيقا لأهدافه ضمن حربه الشّاملة بطريقة ناعمة .

فالمقصود أنّ بحثي هذا ـ وإن حمل عنواناً يصفه البعض بالصّادم ، ويصفه آخرون بالمتحدّي ويصفه آخرون بالشّجاع . إلاّ أنّ في جوهره دعوة إلى تجاوز التّدخّل السّياسي في المعارف والكفّ عن التّدخّل في العلم الشّرعي خاصّة، وهو أيضًا دعوة إلى حوار بين أهل العلم للإرتقاء إلى المادّة العلميّة البحتة والآحتكام إليها دون غيرها عبر إعادة قراءة " تراث " أهل العلم بإنصاف وعدل، وإصلاحا للفساد الذي ضرب كلّ جوانب الحياة الثّقافيّة والسّياسيّة و الاجتماعيّة والإنسانيّة.

لقد كان البحث مُستبطنا خطّة الفتّانين الذين حرّفوا علينا ديننا و آستوطنوا علينا الآحتلال، فكان استجابة وتفاعلا لواقع تونسيّ جديد / قديم، وهو أيضا استجابة لأكبر تحدّي طُرح في البلاد بعد ما يُسمّى ثورة، وهو محاولة لتبصير الإسلاميّين بالفتن التي صنعها أعداء الإسلام، وتحذيرا لهم أن لا يقعوا في فخاخهم، في مُحاولة منّي لتجميع الصّفّ الإسلامي برؤية شرعيّة لا بأهواء حزبيّة، فهي بالأساس مُساهمة في نقض و إطفاء نار " فتنة العلم " التي لعب عليها السّاسة والإعلام الذين نَجحوا في الإطاحة بما يُسمّى الإسلام السّياسي عبر النّفخ في " أكذوبة " الاختلاف بين التّديّن التّونسي والتّديّن المشرقي التي استجاب لها حُدثاء الأسنان من رُويبضة الدّين، ممّا كان له الأثر السّيّئ على أمل الحلّ الإسلامي ككلّ.

هذا وإنّي لا أخشى أن يجنح البعض إلى فهم تآمري عبر قراءة عنوان الرّسالة فحسب دون نظر فيها كلّها، فما أسهل أن ينساق من يخشى على مصالحه في البلد وقد هوى به منطق " العداء " وقاده إلى الفهم التّآمري في ظل أجواء مأزومة وشديدة الحساسيّة كانوا هم

السّبب الأبرز فيها. كما أنّه لا يخيفني أن يحتجّ من أدمن على أن يشوّش على كلّ مبادرة علميّة جادّة ومسؤولة فيتهوّك بتصنيفها ظلما وهو خاضع لأهدافه الخاصّة، مهما كانت الشّعارات البالية التي سيستخدمها، فما أكثر من يستميت في الدّفاع عن مصالحه تحت حجّة الدّفاع عن " الهويّة الوطنيّة " أو " الشّخصيّة التّونسيّة " أو " الإسلام الزّيتوني المعتدل والمنفتح والمتسامح " وغير ذلك من الأكاذيب التي تأسّست مع ما يُسمّى الدّولة الحديثة.

إنّي أشكر الله تعالى أن وفّقني ـ حسب علمي ـ أن أكون أوّل من وضع بحثا مقارنا بين الإمامين يُطرح في جامعة الزّيتونة ولأوّل مرّة، حاولت أن أُثبت بالبحث العلمي المجرّد سلامة وأخوّة وصحّة وصلابة العلاقة بين منهج الشّيخين في الإصلاح، كان قد عَمِلَ أعداء الملّة على إحداث فتنة تناقض وتوسيع شقّة الاختلاف بين رمز السّلفيّة والحركة الإصلاحيّة المعاصرة الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب، و رمز الزّيتونة ومُصلح تونس في العصر الحديث الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور رحمهما الله تعالى.

هذه خلاصة الخلفيّة التي تتنزّل فيها الرّسالة، بسطتها بين أيدي الأحبّة الذين رغبوا في ذلك.

وأسأله تعالى أن يسهم هذا البحث في الإجهاز على " أركان " و " أصول " " فتنة العلم " التي أسّسها الاستعمار وجنّد لها " نخبة " الفكر و الحكم منذ ما يسمّى بالإستقلال.

أرسم هذا عن ثقة و وضوح و يقين.

والله الموفّق لما يحبّه ويرضاه.

المقدّمة

ظهرت عمليّة الإصلاح منذ ارتباط البشر بالدّين، إذ خلق الله عباده موحّدين صالحين، ودليله ما جاء في " صحيح مسلم " عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم:"... وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا...". فما أن ينحرف الخلق وتفسد أوضاعهم في كلّ فترة من فترات التّاريخ الإنسانيّ حتّى يرسل الله إليهم رسولا يصلحهم بردّهم إلى التّوحيد، قال الله تعالى: " وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ "، وفي " صحيح مسلم " أيضا: "كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ..."، ثمّ إنّ هذا الإصلاح سيستمرّ ويبقى ويتمدّد في هذه الأمّة المباركة، وفي الحديث الصّحيح المشهور الذي رواه أبو داود وصحّحه السّخاوي والألباني: " إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا ".

وإذا كانت الغاية من خلق الإنسان أن يكون خليفة الله تعالى في الأرض خلافة قائمة على العبادة والعمارة والإصلاح، فإنّ الله تعالى ألزم أهل العلم ـ بموجب العهد الذي عقدوه مع ربّهم ثمّ بحكم أنّهم ورثة الأنبياء ـ أن يقودوا حركة الإصلاح و يقتحموا هذا التّحدّي، فكانوا أئمّة من أمسك بهذه المهمّة فنزلوا ميدانها وخاضوا غمارها. وكان من بينهم الشّيخان الإمامان محمّد بن عبد الوهّاب، ومحمّد الطّاهر ابن عاشور ـ رحمهما الله تعالى ـ وقد جاءا في وضع تخلّى فيه أكثر المسلمين عن دور الخلافة عن الله والشّهادة على النّاس، وأُخلدوا إلى الكلالة المهينة لأسباب عديدة، من أبرزها ما أصيبوا به من داء الإرجاء، فحدث الخلل الأعظم بتقاعس المسلمين عن العمل بمقتضى التّوجيهات الرّبّانيّة، اكتفاء بما تقرّر لديهم أنّ الإيمان المطلوب قد تمّ وكمل باستقراره في القلوب فلم يعد يضرّ مع الإيمان شيء، ولو أتى بقراب الأرض شرّا. وفي ظلّ هذا المناخ الإرجائي المكبّل، تحمّل غمار تحدّي الإصلاح الشّيخان المذكوران، في محاولة منهما لردّ الأمّة إلى المفهوم الصّحيح للعقيدة الصّافية، لاعتبار أنّه لا يمكن أن نسير إلى الأمام دون رجوع إلى حقيقة العقيدة وفهمها فهما سديدا وتحقيقها تحقيقا رشيدا. فاتّفق الشّيخان على أنّ التّوحيد الخالص هو الأساس المتين لكلّ

إصلاح منشود، لما تهبه العقيدة للموحّدين من بصيرة إصلاح صحيحة ومن شحنات إيمانيّة صادقة تخرجهم من الكلالة إلى الفاعليّة، ومن التّخلّف إلى النّهضة والتّمدّن. كما اتّفقا على أنّ الإسلام هو أداة الإصلاح وليس موضوعه، وأنّ كلّ عمل إصلاحيّ يتجاهل الإسلام فهو عمل مبتور بل هو وهم وزيغ وضلال، لأنّه لم يؤسّس على قواعد جوهريّة وعميقة وتينة وصلبة ، بل أسّسها على أوهام و شعارات و" قواعد " رخوة وهشّة. لذا اعتمد ابن عبد الوهّاب على تصحيح عقائد النّاس وردّهم إلى الدّين الصّافي الذي كان عليه الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه، بينما وضع ابن عاشور خطّة تفصيليّة لعمليّة الإصلاح اعتقادا منه أنّ إصلاح حال الأمّة لا يكون إلاّ عبر إصلاح جذريّ ينال مجالات ثلاثة:

أوّلها: التّجديد في فهم أصول الدّين على أساس مقاصديّ.

ثانيهما: إصلاح مناهج التّعليم.

ثالثها: إصلاح الوضع الاجتماعي والسّياسي.

لقد أدرك الشّيخان حجم الكارثة العظيمة التي حلّت بالأمّة متمثّلة في تأخّر حضاريّ تجلّت مظاهره في: انحراف ديني، وتخلّف تعليمي، وتقهقر اقتصادي، وضعف عسكري، وغياب مؤسّسات قويّة و فاعلة.

في هذا الوضع القاتم قدّم كلّ شيخ رؤية إصلاحيّة لواقعه بالواجب الذي ترجّح له، ضمن الإطار الذي تحرّك فيه وأتيح له، وهو ما يكشف اختلاف منهجهما في الإصلاح. فاعتمد ابن عبد الوهّاب في مشروعه ما يعتقده الوصفة الشّرعيّة الجاهزة الواجبة لتحقيق الإصلاح دفعه واحدة، فطمح إلى تحقيق ذلك عبر التّركيز بالأساس على الإصلاح العقائدي، فوضع أبرز كتبه " التّوحيد ". أمّا ابن عاشور فقد سلك سبيل إصلاح تدريجي يقوم على مراجعة المناهج التّقليديّة في فهم أصول الدّين، فكتب " مقاصد الشّريعة "، كما توجّه إلى إصلاح النّظام التّعليمي والتّربوي عبر كتابه " أليس الصّبح بقريب؟ " ثمّ توجّه إلى إصلاح الوضع الاجتماعي والسّياسي عبر كتابه " أصول النّظام الاجتماعي " وهي في مجموعها نظريّة متكاملة في الإصلاح: (أصول الدّين والتّربية والاجتماع). فكان واعيا باللّحظة التّاريخيّة

الرّاهنة التي شهدت تغييرات حضاريّة عميقة وتحدّيات وجب التّصدّي لها عبر فهم واقعي ومقاصدي للوحي على ضوء معطيات الرّاهن الحضاري الذي هيمن عليه الكافر المحتلّ.

تحاول هذه الرّسالة الإجابة عن مسائل متعدّدة، منها:

. أوّلا: البحث عن المشترك والمختلف بين الإمامين.

ـ ثانيا: عرض سمات المنهج الإصلاحي لديهما عبر البحث في أصول مصادر تكوين الشّيخين المعرفيّة والمنهجيّة.

ـ ثالثا: البحث عن المشاغل الفكريّة الرّئيسة المشتركة بين الشّيخين وقدحت ووجّهت اهتماماتهما في التّأليف و الكتابة والإصلاح.

ـ رابعا: إبراز الإسهامات الفكريّة المتميّزة للشّيخين ومساهمتهما في إثراء الفكر الإسلامي المعاصر، وما هي الإجابات التي يمكن لفكرهما أن يقدّماه للقضايا التي تشغل العقل المسلم في الوقت الحاضر؟ وما هي الدّروس التي يمكن أن يستفيد منها الجهد الإصلاحي المهموم بالإصلاح الرّاهن؟

أسباب اختيار الموضوع

إنّ اعتبارات عديدة دفعتني لاختيار هذا الموضوع، لعلّ من أهمّها:

1 – أنّ حركة الإصلاح التي قام بها الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور تعرّضت . ولا تزال . إلى الغبن وقلّة الاهتمام والاعتناء من نخب الثّقافة والسّياسة في تونس، إذ تتعمّد طائفة منهم إلى إخفاء الجهود الضّخمة التي قام بها ابن عاشور في مسيرة الإصلاح، وتردّد طائفة أُخرى أنّ علماء " الزّيتونة " هم من أبرز أسباب تعطيل بناء المجتمع الحديث ومعوّقات تأسيس الدّولة العصريّة. وتبوّأ آخرون إلى تشويه وتحريف أطروحات الشّيخ محمّد الطّاهر، فمن تتبّع مجموعة محمّد الطّالبي أو محمّد الشّرفي في كلّيّة الآداب أبصر كيف اختطفت تلك الفئة إنتاج ابن عاشور العلميّة والإصلاحيّة وأخضعتها . في تقاطع مع الإستبداد . لمصالحها فحرّفتها وشوّهتها ووجّهتها صوب أهداف فرنسا الثّقافيّة و(الحضاريّة).

أَحْسب أنّه قد حان الوقت أن نردّ بضاعتنا إلينا، وأن نراجع ما حبّره أولئك المحرّفون وأن نقوّمه تقويما علميّا مساهمة منّا في تفعيل فكر ابن عاشور الإصلاحي الوقّاد، وملكته النّقديّة

ونحوّل كلّ ذلك إلى مؤسّسات مستقلّة فاعلة تقطع مع المفاصلة المفتعلة بين مغربنا ومشرقنا الإسلاميّين.

إنّ الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور ــ رحمه الله تعالى ــ لم يلق حظّه في تونس ولم يلق الاهتمام إمّا إهمالا أو تشويها. فهل كان ذنب الشّيخ الذي سبّب له الإهمال أنّه كان تونسيّا و" إسلاميّا " تزامن وجوده مع الهيجان البورقيبي الذي حوّل (تونس الزّيونة) من قِبلة إسلاميّة إلى مقاطعة فرنسيّة.

أمّا الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب وحركته فقد تعرّضا إلى نقد عنيف لاذع ظالم في بلدنا من طرف الكثيرين، كما ذهب بعض منهم إلى اعتبار العمل الإصلاحي الذي قام به الشّيخ ابن عبد الوهّاب عملا تخريبيّا، ولا يمكن أن يُدرج ضمن حركات الإصلاح أصلا.

وأرجو أن يسهم هذا البحث في ردّ الآعتبار للشّيخين وإنصاف حركتهما. وهذا لا يعني أن لا نُخضع جهود الشّيخين للمساءلة العلميّة والتّاريخيّة.

2 – يقيني أنّ إصلاح المجتمع لا يكون إلاّ عبر إصلاح ديني أوّلا، في رؤيةٍ تشمل إصلاح الإنسان المسيّر لكلّ مؤسّسات المجتمع، إذ لا صلاح لمؤسّسات المجتمع إلاّ بصلاح الإنسان الذي يشرف عليها ويديرها ويسيّرها، وأيضا إصلاح المجتمع بإعادته إلى الاجتماع على العقيدة وفضائل الأخلاق والتّنافس في الصّالحات. ولذلك حاولت من خلال هذا البحث أن أساهم في ضبط مدلول " الإصلاح " وتحريره من الاختطاف والتّشويه والاحتكار، حيث صارت مفردة الإصلاح من أكثر المصطلحات استعمالا من طرف الإعلاميّ والسّياسيّ في العصر الحديث، لأنّه مصطلح واعد جذّاب، غير أنّ عامّة النّاس صار المصطلح عندهم يثير الرّيبة والتّوجّس والشّكوك والقلق.

3 – بعد فشل ما يسمّى بمشروع الدّولة الحديثة، فإنّي على يقين أنّ المستقبل سيشرق بنور الوعد الإلهيّ، وأنّ الدّورة القادمة ستكون لأهل العلم والمعرفة . بعد إقصاء مرير مكلّف .، وأنّ حركة الإصلاح الحقيقيّة والجادّة والحرّة والمسؤولة، ستكون . بإذن الله تعالى . تحت رعاية " إمامة " علم وعمل، وهو ما درج عليه السّلف الصّالح وصارت عليه الحركات الإسلاميّة المعاصرة.

إلاّ أنّه ينبغي أن أُسجّل أمرا مهمّا وهو أنّ المكابدة و المعاناة هما الذين سيطرتا على كياني فكانتا الحافز والدّافع وراء هذه المحاولة.

وفي الأخير، أؤكّد أنّ هذا البحث ما هو إلاّ محاولة لتتبّع جهود الإصلاح والاجتهاد والتّجديد في حياة الأمّة المسلمة، للإفادة من هذه الجهود في السّعي نحو إصلاح واقع معاصر لهذه الأمّة الجريحة والخروج بها من حالة التّخلّف المشهود نحو النّهوض الحضاريّ المنشود.

الصّعوبات

لا أنكر أنّ صعوبات كبرى اعترضتني في رسم هذا البحث، منها:

1 لقد عملت قوى معادية للإسلام على آستحالة أن يلتقي الشّيخان ابن عبد الوهّاب وآبن عاشور في شيء، وعلى أنّ كلّا منهما يمثّل مدرسة مستقلّة بذاتها وأنّهما مختلفان اختلاف تضادّ شديد " يستحيل " الجمع بينهما، كما عملت تلك القوى أيضا أن تشوّه كلّ من يسعى إلى الجمع بين الشّيخين، ووصّفوه أنّه مغامر، أحمق، سلفي، وهّابي، تكفيري، مُفتِّن يريد أن يضرب الوحدة الثّقافيّة والدّينيّة والمذهبيّة في تونس، يبثّ الفرقة بين مكوّنات المجتمع التّونسي، مشرقي يخترق بالزّيتونة، يُريد أن يُسيلف الزّيتونة ويُزيتن الوهّابيّة، وهلمّ جرّا من حملات التّشويه والتّضليل والاستئصال. في مثل هذا المناخ القاتم بالجهل والظّلم اقتحمت التّحدّي وتوكّلت على ربّي لأكتشف المخبّأ في المشترك بينهما رحمهما الله تعالى، مقتنعا أنّ أهل العلم والرّحمة لا يختلفون. وبدأ التّحدّي بطرح هذه الأسئلة الصعبة للإجابة عليها: كيف أجد توافقا بين سلفيّ متّبع، وأشعريّ مجتهد؟ كيف أجد ملاءمة بين مُحْيٍ لتعظيم النّصّ، وآخر مجدّد يزاوج بين تعظيم النّصّ والاستجابة للمنتجات الفكريّة المعاصرة؟ كيف أجمع بين من اعتمد منهجه على النّقل، وبين من يدعو . مع ذلك . إلى الاعتماد على العقل؟ هل يمكن الجمع بين مدرسة النّصّ مع التّسليم له، والفهم ومدرسة النّصّ مع التّأويل؟ كيف أوفّق بين من يتوسّل بالسّلطة في عمليّة الإصلاح، وبين من

يتوسّل في ذلك بالمجتمع تبنّيا وتمثّلا ودفاعا؟ كيف أقرّب بين منهج ثوريّ صَادَمَ قومه وزلزل " ثوابته " العقديّة الفاسدة، وبين منهج متدرّج ناعم يحذر المجتمع؟ كيف أُوفّق بين إمام ورمز التّيّار السّلفي في العصر الحديث وإمام رمز ورائد من رموز رُوّاد التّيّار الاجتهادي المقاصدي؟ هل يمكن أن نجد نقاط تشابه أو أرضيّة مشتركة بين الشّيخين من النّاحية الأصوليّة إن لم نعثر عليها في النّاحية الفرعيّة؟ هل يمكن لرجل مثل ابن عاشور المغربي أن ينتج إنتاجا علميّا وفكريّا شبيها بما كان لمحمّد بن عبد الوهّاب المشرقي؟ كيف أتفاعل مع مشروعين متقابلين من حيث منهج الإصلاح وآليّاته، أحدهما دعويّ معرفيّ سلميّ متدرّج، وثانيهما: تغيير عقديّ (ثوري)، والفرق كبير بين الاتّجاهين من حيث المنطلقات الفكريّة وربّما لا نبالغ إن قلنا في اختلاف الشّيخين في فهم الإسلام.

2 أنّي لم أعثر على دراسة أو بحث سابق قارن بين التّيّارين الإصلاحيّين، ولكنّ الأهداف التي بيّنتها آنفا دفعتني إلى لخوض في غمار هذه المغامرة لعلّني أُلامس المشترك وأقوم بتأويل المختلف وجمعها في مشروع مؤتلف، سعيا منّي إلى مدّ جسور التّقارب بين منهج الشّيخين ونقض شرّ الأعداء العاملين على التّفرقة والكراهيّة والبغضاء والعداوة.

المنهجيّة المتّبعة

ولتحقيق هذه المقارنة بين طريقة الشّيخين في الإصلاح، كان من الضّروريّ أن نتبع المنهج الوصفي والتّحليلي والاستقرائي و الاستنتاجي، إضافة إلى المنهج المقارن حتّى نتمكّن من كشف الغطاء عن المسالك التي اتّبعها كلّ من الشّيخين في عمليّة الإصلاح.

مخطّط البحث

وبعد جمع المصادر والمراجع وتلمّس سمات الطّرحين الإصلاحيّين ارتأيت أن أقسّم بحثي إلى أربعة فصول ومقدّمة وخاتمة، تناولت في الفصل الأوّل الفصل الأوّل: الجانب التّعريفي والمفاهيمي، في اربعة مباحث: المبحث الأوّل: في معنى الإصلاح لغة واصطلاحا، وتناول

المبحث الثّاني: الإصلاح في القرآن الكريم، أمّا المبحث الثّالث: فهو الإصلاح في السّنّة النّبويّة الشّريفة، و المبحث الرّابع: شروط نجاح عمليّة الإصلاح.

أمّا الفصل الثّاني فقد عَنْوَنْتُهُ " لماذا الإصلاح ؟ ". وجعلته في مبحثين اثنين: أوّلهما: من أين يبدأ الإصلاح؟ حاولت أن أبيّن دوافع الإصلاح وما هي منطلقاته وشروط نجاحه وثانيهما: الإصلاح بين العقدي والسّياسي ليُجيب الشّيخ ابن عاشور عن مُعضلة كبرى تعترض العمل الإسلامي، وهي من أين يبدأ الإصلاح: هل من العقيدة أم من السّياسة؟

أمّا الفصل الثّالث: وهو أهمّ هذه الفصول، فقد جاء تحت عنوان: العمل الإصلاحي عند الإمامين ابن عبد الوهّاب وابن عاشور... وله ثلاثة مباحث: أوّلها: الإصلاح عند محمّد بن عبد الوّهاب: تعرّضتُ فيه إلى عناصر كبرى وهي: أبرز آراء محمّد بن عبد الوهّاب الإصلاحيّة، مجالات عمله الإصلاحي، ثمّ بين إصلاح الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب والفكر الغربي.

أمّا المبحث الثّاني: فقد تناول عناصر: الإصلاح عند الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور. وفيه عنصر عرض مختصر لأبرز آرائه الإصلاحيّة. ثمّ قوادح الفكر المقاصدي في ذهنيّة ابن عاشور. هذا وقد سلّطت الأضواء على المناهج الفكريّة والمؤثّرات البيئيّة والثّقافيّة التي طبعت فكرهما الإصلاحي، ومجالاته المتعدّدة.

أمّا المبحث الثّالث ـ وهو أهمّها . فقد تناول: جوانب الاتّفاق و الاختلاف بين الشّيخين. قمت بمقارنة بين طريقتي الإصلاح عند الشّيخين على المستويين العلمي و العملي.

أمّا الفصل الرّابع: فقد تناولتُ فيه . استنتاجا لإصلاح الشّيخين . معالم لرؤية إصلاحيّة لعلّها تستجيب لمتطلّبات الواقع التّونسيّ الرّاهن، وأتممت البحث بخاتمة حاولت أن أقدّم فيها خلاصة لأبرز الأصول الإصلاحيّة للشّيخين والاستنتاجات وأهمّ آفاقها.

الفصل الأوّل

الجانب التّعريفي

المبحث الأوّل: مدلول الإصلاح لغة واصطلاحا

المبحث الثّاني: الإصلاح في القرآن الكريم

المبحث الثّالث: الإصلاح في السّنّة النّبويّة الشّريفة

المبحث الرّابع: شروط نجاح عمليّة الإصلاح

المبحث الأوّل

مدلول الإصلاح لغة واصطلاحا

الإصـــلاح لغـــة: مصـدر صـالح يصـالح صـلحاً، ويشـتق منـه – أيضـاً –: أصـلح يصـلح إصـلاحاً، والصـلاح– بفـتح الصّـاد– ضـدّ الفسـاد، وبكسـرها المصـالحة، والاسـم الصّـلح يـذكّر ويؤنّـث، يقـال: اصـطلحا، وصـالحا، واصَّـالحا – مشـدّد الصّـاد– وتَصـالحا بمعـنى واحـد، وهـو قطع النّزاع[1].

الإصـــلاح اصـــطلاحا: يطلـق علـى كـلّ تغيـير إلى الأفضـل وتصـويب مـا اعـوجّ. يقـول الرّاغـب الأصـفهاني [2]:" الصّـلاح: ضـدّ الفسـاد، وهمـا مختصّـان في أكثـر الاسـتعمال بالأفعـال، وقوبـل في القـرآن تـارة بالفسـاد، وتـارة بالسّـيّئة. قـال تعـالى: " خَلَطُـوا عَمَـلًا صَـالِحًا وَآخَـر سَـيِّئًا " [3]، ... والصّـلح يخـتصّ بإزالـة النّفـار بـين النّـاس، يقـال منـه: اصـطلحوا وتصـالحوا، قـال: " أَن يَصّـالَحَا بَيْنَهُمَـا صُـلْحًا وَالصُّـلْحُ خَيْـرٌ "[4]، ... وإصـلاح الله تعـالى الإنسـان يكـون تـارة بخلقـه إيّـاه صـالحا، وتـارة بإزالـة مـا فيـه مـن فسـاد بعـد وجـوده، وتـارة يكـون بـالحكم لـه بالصّلاح..." [5].

---

[1] انظر مادّة " صلح " في " الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة " والمعروف اختصارا بـ " الصّحاح ". للإمام اللّغوي إسماعيل بن حماد الجَوْهَري (ت. 393 هـ). تحقيق أحمد عبد الغفور عطار. نشر: دار العلم للملايين. ط:4. س: 1410 هـ - 1990 م. (382/1). ولسان العرب لابن منظور (2 / 516) مادّة " صلح "، والشّرح الممتع على زاد المستقنع (9 / 64) للشّيخ محمّد الصّالح العثيمين، وهو شرح لـ " زاد المستقنع " للإمام شرف الدّين أبو النّجا الحَجَّاويُ الحنبلي. المُتوفَّي عام 968 هـ.

[2] أبو القاسم الحسين بن محمّد المعروف بالرّاغب الاصفهانى(..... 502 هـ -..... 1108م.). أديب من الحكماء العلماء. من أهل أصبهان. سكن بغداد. واشتُهر حتّى كان يُقرن بالغزالي. من كُتُبه " محاضرات الأدباء " في مجلّدين. و " الذّريعة إلى مكارم الشّريعة "، و " الأخلاق " ، ويُسمّى " أخلاق الرّاغب "، و" جامع التّفاسير " كبير، أخذ عنه البيضاوي في تفسيره و " المُفردات في غريب القرآن " وغيرها... انظر إلى الاعلام قاموس تراجم لأشهر الرّجال والنّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدّين الزّركلي ط: 9 . 1400 هـ - 1980 م. دار العلم للملايين بيروت. (2 / 255).

[3] التّوبة 103.

[4] النّساء .127

[5] الرّاغب الأصفهانى " مفردات في غريب القرآن ". ط: 1. دار قهرمان للطّباعة والتّوزيع. استانبول - تركيا. س: 1407 هـ - 1986 م. ص (419 - 420).

والإصلاح يُطلق على كلّ تغيير إلى الأفضل وتصويب ما اعوجّ في ممارسة أمور الدّين والدّنيا، والعودة بهما إلى الأصل الذي لم يلحقه فساد الزّوائد والمحدثات. ويشترط في الإصلاح الدّيني أن يكون إصلاحا موافقا لمنهج الأنبياء، وبالتّحديد منهج إمامهم . صلّى الله عليه وسلّم . الذي قام بأعظم إصلاح عرفته البشريّة في تاريخها الطّويل، وجنى ثِماره المسلمون رِدحاً من الزّمن تقدّماً وقوّة وحضارة،

ولعلّ هذا ما يُشير إليه حديث:" إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا " [6].

و الإصلاح أو الصّلح كما بيّن ابن القيّم [7] نوعان:

الأوّل: الصّلح الجائز بين المسلمين هو الذي يعتمد فيه رضى الله سبحانه ورضى الخصمين، فهذا أعدل الصّلح وأحقّه، وهو يعتمد العلم والعدل، فيكون المصلح عالماً بالوقائع، عارفاً بالواجب، قاصداً للعدل، فدرجة هذا المصلح أفضل من درجة الصّائم القائم. يشير إلى قول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم:" أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟ قَالُوا: بَلَى! قَالَ: صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ " [8].

إنّ النّزاع والخصام والتّغاضب لا يرضاه الشّرع الحنيف، لأنّه يوجب من الفرقة والشّرّ والفساد ما لا يمكن حصره، فقد حثّ الشّارع العزيز على الصّلح والمصالحة والإصلاح وجعل الخوض في مسائلها من الأمور التّعبّدية المطلوبة حيث وعد عليها بالأجر العظيم.

---

[6] سنن أبي داود. كتاب الملاحم. باب ما يذكر في قرن المائة. حديث رقم: 4291. صحّحه الألباني في سلسلة الأحاديث الصّحيحة. ط: 1. (150/2). المكتب الإسلامي. بيروت. سنة 1399 هـ - 1979 م..

[7] (691 هـ – 751 هـ / 1292م – 1349م)

[8] الألباني. صحيح التّرغيب والتّرهيب للحافظ المنذري. رقم:28140. ط: 1. مكتبة المعارف. بيروت. س: 1421هـ - 2000 م.

[9] النّساء 113.

[10] (543 هـ. 1148م/ سنة 606 هـ . 1211 م)

قال تعالى:" لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً " [9]. قال الإمام الرّازي [10] في تأويل الآية: " لا خير فيما يتناجى فيه النّاس ويخوضون فيه من الحديث إلاّ ما كان من أعمال الخير، ثمّ إنّه تعالى ذكر من أعمال الخير ثلاثة أنواع: الأمر بالصّدقة، والأمر بالمعروف، والإصلاح بين النّاس، وإنّما ذكر الله هذه الأقسام الثّلاثة وذلك لأنّ عمل الخير إمّا أن يكون بإيصال المنفعة أو بدفع المضرّة، أمّا إيصال الخير فإمّا أن يكون من الخيرات الجسمانيّة وهو إعطاء المال، وإليه الإشارة بقوله:" إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ " وإمّا أن يكون من الخيرات الرّوحانيّة وهو عبارة عن تكميل القوّة النّظريّة بالعلوم أو تكميل القوّة العمليّة بالأفعال الحسنة، ومجموعها عبارة عن الأمر بالمعروف، وإليه الإشارة بقوله:" أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ " فثبت أنّ مجامع الخيرات مذكورة في هذه الآية [11].

والثّاني: الصّلح الذي يحلّ الحرام ويحرّم الحلال، كالصّلح الذي يتضمّن تحريم بضع حلال، أو إحلال بضع حرام، أو إرقاق حرّ، أو نقل نسب أو ولاء عن محلّ إلى محلّ، أو أكل ربا، أو إسقاط واجب، أو تعطيل حدّ، أو ظلم ثالث وما أشبه ذلك، فكلّ هذا صلح جائر مردود " [12].

---

[11]) التّفسير الكبير أو مفاتيح الغيب. فخر الدّين الرّازي. ص 43. ط: 1. دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع. بيروت. س: 1401هـ - 1981م .
[12]) ابن قيّم الجوزيّة. إعلام الموقّعين عن ربّ العالمين. (1 / 153). ط: دار الكتب العلميّة. بيروت. س: 1411هـ - 1991م.

المبحث الثّاني

الإصلاح في القرآن الكريم

ورد لفظ الإصلاح في القرآن ثلاثا وسبعين ومائة مرّة، جاءت بفعلها الثّلاثي "صلح " و مشتقّاتها: يصلح ويصلحا وأصلحوا وتصلحوا، ويصلحون، والصّلح والإصلاح، والصّالح والصّالحين والصّالحات، والمصلح والمصلحون. كما جاء معناها في مفردات أخرى: الأمر بالمعروف والنّصح والأمانة والشّهادة وإقامة العدل. وسنتعرّض بالبحث إلى بعض منها لنبيّن أنّ القرآن الكريم دعا إلى الإصلاح في كلّ جوانب النّشاط الفردي والجماعي، وكلّ نواحي الحياة وكذلك كلّ العلوم والمعارف، ليتقرّر أنّ عمليّة الإصلاح ينبغي أن تكون جوهريّة وعميقة وشاملة وليست سطحيّة أو شكليّة أو جزئيّة.

وهذه بعض المجالات التي تناولها القرآن الكريم بالإصلاح:

1 إصلاح النّفس كشرط لإصلاح المجتمع:

قال تعالى:" إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ " [13] وقال أيضا:" ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ " [14] وفي " الصّحيح" :" أَلا وإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ وإِذَا فَسَدَت فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهيَ القَلْبُ " [15].

2 الإصلاح وعلاقته بالولاء والبراء:

يقول الله تبارك وتعالى:" إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ " [16].

---

[13] الرّعد 12.
[14] الأنفال 54.
[15] ابن حجر العسقلاني. فتح الباري بشرح صحيح البخاري. (172/1). كتاب رقم 2. باب 39: فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم (52). دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع. بيروت. ط: 1. س: 1415 هـ - 1995 م. و صحيح مسلم بشرح النّووي. (22/11). رقم (1599). كتاب المساقاة. رقم (22). ط: 1. دار الكتب العلميّة.بيروت. 1415 هـ - 1995م.
[16] الحجرات 10.

3 إصلاح ذات البين:

قال الله تعالى:" يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ " [17].

4 لا نترك الإصلاح بسبب بالأَيْمَانِ:

قال الله تعالى:" وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ النَّاسِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" [18].

5 الإصلاح والإيمان والتّوبة: اشترط القرآن على التّائبين والرّاجعين إلى ربّهم تصحيح وضعهم الجديد بإصلاح الأعمال في صور متعدّدة منها:

أوّلا: الإصلاح بعد الإيمان: فقال تعالى:"وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ" [19].

ثانيا: الإصلاح بعد عمل السّوء بجهالة: ذلك لأنّ من شروط قبول التّوبة الإقلاع عن الذّنب والعزم على عدم الرّجوع إليه، والمداومة على العمل الصّالح، قال تعالى:" وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ " [20].

6 إصلاح ما أفسده العلماء والوجهاء ومن كان في مقامهم في المجتمع:

إنّ زلل العلماء من أخطر ما يسبّب الكوارث على المجتمعات الإسلاميّة خاصّة، ولذا دعا الإسلام العلماء التّائبين إلى إصلاح ما أفسدوا من فتاوى ضالّة ومواقف زالّة، وأن يبيّنوا للنّاس ما كتموا من حقّ، وأن يُظهروا خلاف ما كانوا عليه، لأنّه لا يكفي في هذه المسائل المهمّة قول العالم قد تبت، دون أن يُبيّن ويُصلح. قال تعالى:" إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ "[21].

---

[17] الأنفال 1.
[18] البقرة 222.
[19] الأنعام 49.
[20] الأنعام 55.
[21] البقرة 158- 159.

ويستوي مع أهل العلم أهل السّلطة والقضاء والمال والإعلام، وكلّ وجيه في قومه له سلطة معنويّة وتأثير في الرّأي العام.

7 الإصلاح في الاحتكام للشّريعة:

من أبرز وظائف الحاكم المسلم الإصلاح بين المتخاصمين وأن يقطع الخصومةات بينهم في كلّ شؤونهم كفي ملك مشترك بين مزارعين اختلفا أو تشاجرا في سقي شجر أو زرع أو نحو ذلك، قال تعالى:" فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا " [22]. وبيان سبب نزول الآية يُجلّي أنّ الآية تفيد الإصلاح يقينا، فقد نزلت في من لم يرض بعمليّة الصّلح التي قام بها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في شجار وقع بين مُسلِمَين في سقي بينهما، أخرج الأئمة السّتّة عن عبد الله بن الزّبير قال:" خاصم الزّبير رجلا من الأنصار في شراج الحرّة [23] فقال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم:" اِسْقِ يَا زُبَيْرِ ثمُّ احْبِسِ المِاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الجِدَارِ ثُمَّ أَرْسِلِ المِاءِ إلى جَارِكَ " [24]. واستوعب للزّبير حقّه وكان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة. قال الإمام القرطبي (ت671هـ) : " وفي هذا الحديث إرشاد الحاكم إلى الإصلاح بين الخصوم " [25].

8 الإصلاح في الأحوال الشّخصيّة:

كما جاءت الدّعوة إلى الإصلاح في كلّ ما يصلح شؤون الأحوال الشّخصيّة للأمّة وتجلّى ذلك في:

أوّلا: في مسألة الأموال وحفظ تعرُّضِها للإهمال والضّياع، قال تعالى:" فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ" [26].

---

[22] النّساء 64.

[23] الشِّراج: جمع شُرْجة: مسيل الماء من الحرّة إلى السّهل. آنظر " النّهاية في غريب الحديث والأثر". (1130/2). تحقيق : طاهر أحمد الزّاوى - محمود محمّد الطناحي. ط: المكتبة العلمية - بيروت ، 1399هـ - 1979م.

[24] صحيح البخاري. حديث رقم: 4585 و 2362 و 2359. ط: 1. المكتبة السّلفيّة. القاهرة. س: 1400هـ - 1980 م. وصحيح مسلم. ط: 1. حديث رقم: 2357. ط: دار إحياء الكتب العربيّة. دمشق. س: 1374هـ . 1954 م.

[25] محمّد بن أحمد القرطبي. الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمّنه من السّنّة وآي الفرقان. (5/ 231). ط: دار إحياء التّراث العربي 1405هـ - 1985 م. بيروت.

[26] البقرة 181.

ثانيا: في حال الخلاف بين الزّوجين: قال تعالى:" وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحًا يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا " [27].

ثالثا: في حال نفور الرّجل عن الزّوجة:" وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ " [28]. قال الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور رحمه الله تعالى:" وقد دلّت الآية على شدّة التّرغيب في هذا الصّلح بمؤكّدات ثلاثة: وهي المصدر المؤكّد في قوله: ﴿ صُلْحًا ﴾، والإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾، والإخبار عنه بالمصدر

أو بالصّفة المشبّهة فإنّها تدلّ على فعل سجيّة ". [29].

رابعا: في ردّ الزّوجة بعد طلاقها:" وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحًا " [30].

9 الإصلاح في المسائل الاجتماعيّة والماليّة:

فمن ذلك مثلا الإصلاح في أموال اليتامى: فقد أمر الله عزّ وجلّ بتنمية أموالهم وبعدم تخليطها مع أموال المسلمين إلاّ إذا أكلوا جميعا وخلّطوا طعامهم وشرابهم بطعام وشراب المسلمين، بحكم الأخوّة في الدّين، قال سبحانه وتعالى:"وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ " [31].

10 الإصلاح في المسائل القضائيّة الجنائيّة: وتجلّى ذلك في:

أوّلا: أمر السّارق بعد توبته أن يصلح في كلّ أعماله وأن يردّ المسروق إلى أصحابهم، حتّى يقبل الله تعالى توبته:" وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ

---

[27] النّساء 35.
[28] النّساء 127.
[29] محمّد الطّاهر ابن عاشور. التّحرير والتّنوير. (5/ 217). ط: الدّار التّونسيّة للنّشر. س: 1405 هـ - 1984 م.
[30] البقرة 226.
[31] البقرة 218.

عَزِيزٌ حَكِيمٌ فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ " [32].

ثانيا: العفو في الدّية وترك عقابه ابتغاء وجه الله، قال تعالى:" وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ" [33].

11 الإصلاح في المسألة السّياسيّة: وفي المسألة السّياسيّة أمر الشّرع العزيز بـ:

أوّلا: الصّلح عند المنازعة والمخاصمة، فأمر الله تعالى بالإصلاح بين المؤمنين وجعل ذلك من علامات التّقوى فقال:" فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ " [34]. وذلك بمناسبة مبايعة المسلمين للخليفة الخامس الحسن بن عليّ بن أبي طالب وتولّى الحكم ستّة أشهر وأيّاماً، إلاّ أنّه صالح معاوية فأعطاه الإمارة وبايعه، وأوقف بذلك الفتنة العظيمة، وكان ذلك التّنازل شرفا له ورفعة، إذ يعدّ الإمام الحسن بن عليّ . تاريخيّا . هو أوّل من داول سلميّا على السّلطة تصديقا وتحقيقا لنبوّة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم حين قال:" إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ "[35].

ثانيا: الإصلاح حال المنازعة: فقد أصلح النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بين بني عمرو بن عوف، كما أصلح بين أهل قباء. كما صالح النبيّ المشركين يوم الحديبية على ثلاثة أشياء. ومعلوم أنّ الله تعالى قد عدّ ذلك الصّلح فتحا رغم أنّ الصّحابة لم يروا فيه مصلحة.

ثالثا: الإصلاح حال القتال والبغي: قال سبحانه وتعالى:" وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ " [36]. وهذا من رحمة الله بعباده أن شرع لهم ما يطفئ شرّ الاقتتال بينهم ويزيل أثره في أنفسهم.

---

[32] المائدة 40 – 41.
[33] الشّورى 40.
[34] الأنفال 1. الجزء الثّاني من الآية.
[35] ابن حجر العسقلاني. فتح الباري بشرح صحيح البخاري. (647/5). كتاب رقم 53. باب 9: قول النّبيّ ﷺ للحسن، حديث رقم 2704. نشر: دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع. بيروت. ط:1. س: 1415 هـ - 1995 م.
[33] الحجرات 9.

رابعا: رفض الاستجابة للفساد من أيّ جهة كانت، وخاصّة من رجال الحكم والسّياسة سواء كانوا في الحكم أم في غيره للتّأثير السّلبي العظيم لسلطة قرار الحاكم على الأمن العام: ولذلك وصف القرآن الكريم داءهم ودواءهم، فمن كان داؤه الإفساد في الأرض، بعمل المعاصي، والدعوة إليها، إفسادا لا إصلاح فيه، فهذا لا يجوز أبدا طاعته ومتابعته للضّرر المحض والشّرّ المحقّق الذي يلحق بالأمّة، فقال تعالى:" وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ. الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ " [37]. قال ابن كثير (700 هـ 774 هـ / 1301م . 1373م) في تفسيره للآية:" يعني رؤساءهم وكبراءهم الدّعاة لهم إلى الشّرك والكفر ومخالفة الحقّ " [38]. فلا ينقاد المسلم لأمر العصاة الذين دأبوا على الإفساد في الأرض إفسادا لا صلاح فيه.

خامسا: نحن مطالبون باجتناب طريق المفسدين دون نظر إلى شعاراتهم المخادعة كشعار الإصلاح و التّغيير والحداثة وغيرها، قال الله تعالى:" وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ " [39].

12 الإصلاح والأمن: جعل الشّارع الكريم الأمن من أبرز ثمرات الإصلاح، فقال سبحانه وتعالى:" فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ " [40]. كما ضمن تعالى أمن الشّعوب بعدم إهلاكهم إن كان فيهم مصلحون فقال:" وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ " [41].

13 الإصلاح في المسألة الحربيّة: إذا كان من أعظم مقاصد الصّلح تحقيق السّلم والأمن، وإذا حرّضت الشّريعة الغرّاء عليه وقت السّلم، فهو لها أرجى في مواطن النّزاع و الحرب، قال تعالى:" وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ " [42]. وقد جعل ابن داود في سننه الصّلح جزءا من الحرب، فعَنْ عُرْوَةُ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ الْمِسْوَرِ

---

[37] الشّعراء 151- 152.
[38] انظر تفسير ابن كثير للآية: 37.
[39] الأعراف 84 في أكثر من آية.
[40] الأنعام 49.
[41] هود 11.
[42] الأنفال 62.
[43] أَيْ لَا سَرِقَةَ.
[44] أَيْ لَا خِيَانَةَ.
[45] سنن أبي داود. الحديث رقم (2766). كتاب الجهاد. باب في صلح العدوّ. ط:1. دار الكتب العلميّة. بيروت. س: 1389هـ - 2000 م.

بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ أَنَّهُمْ اصْطَلَحُوا عَلَى وَضْعِ الْحَرْبِ عَشْرَ سِنِينَ يَأْمَنُ فِيهِنَّ النَّاسُ وَعَلَى أَنَّ بَيْنَنَا عَيْبَةً مَكْفُوفَةً وَأَنَّهُ لَا إِسْلَالَ [43] وَلَا إِغْلَالَ [44] ". [45] . كما جعل الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه بابا في كتاب الشّروط سمّاه: " الشّروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشّروط "، ثمّ ذكر حديث الحديبية الطّويل. [46]

والمقام لا يسمح بالإتيان على جميع الآيات التي تأمر المسلمين بالاحتكام إلى الصّلح، وتدعوهم إليه، ممّا يدلّ على فضيلته وضرورته لحاجة النّاس إليه.

---

[46] ابن حجر العسقلاني. فتح الباري بشرح صحيح البخاري. (5/ 675- 679). كتاب الشّروط رقم 54. باب 15: الشّروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشّروط . حديث رقم (2731). نشر: دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع. بيروت. ط:1. س: 1415 هـ - 1995 م.

المبحث الثّالث

الإصلاح في السّنّة النّبويّة الشّريفة

أمّا مجالات الإصلاح في السّنّة النّبويّة فقد شملت أيضا .كما في القرآن الكريم .كلّ نشاط الإنسان ووظائفه وحاجيّاته. ومن ذلك:

1 – الإصلاح بين الأفراد والجماعات: عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أَهْلَ قُبَاءٍ اقْتَتَلُوا حَتَّى تَرَامَوْا بِالْحِجَارَةِ فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ فَقَالَ:" اذْهَبُوا بِنَا نُصْلِحُ بَيْنَهُمْ " [47].

2 – الإصلاح بين الزّوجين: جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْتَ فَاطِمَةَ فَلَمْ يَجِدْ عَلِيًّا فِي الْبَيْتِ فَقَالَ: أَيْنَ ابْنُ عَمِّكِ؟ قَالَتْ: كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ شَيْءٌ فَغَاضَبَنِي فَخَرَجَ فَلَمْ يَقِلْ عِنْدِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِإِنْسَانٍ: انْظُرْ أَيْنَ هُوَ فَجَاءَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ فِي الْمَسْجِدِ رَاقِدٌ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ قَدْ سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ شِقِّهِ وَأَصَابَهُ تُرَابٌ فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْسَحُهُ عَنْهُ وَيَقُولُ: قُمْ أَبَا تُرَابٍ، قُمْ أَبَا تُرَابٍ " [48].

3 – الإصلاح بين المتداينين: عن كَعْبِ بن مالك أَنَّه تَقَاضَى ابْنَ أَبِي حَدْرَدٍ دَيْنًا كَانَ لَهُ عَلَيْهِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَسْجِدِ فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا حَتَّى سَمِعَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ فِي بَيْتِه فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمَا حَتَّى كَشَفَ سِجْفَ حُجْرَتِهِ فَنَادَى كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ فَقَالَ: يَا كَعْبُ، فَقَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ

---

[47] ابن حجر العسقلاني. فتح الباري بشرح صحيح البخاري. (647/5). كتاب الصّلح رقم 53. باب 3: قول الإمام لأصحابه " اذهبوا بنا نصلح ".حديث رقم 2693. دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع. بيروت. ط: 1. س: 1415 هـ - 1995 م.

[48] صحيح البخاري. ط: 1. المكتبة السّلفيّة. القاهرة. س: 1400هـ - 1980 م. حديث رقم: 441. و صحيح مسلم. حديث رقم (2409).ط: 1. دار إحياء الكتب العربيّة. دمشق. س: 1374هـ . 1954 م.

اللَّهَ، فَأَشَارَ بِيَدِهِ أَنْ ضَعْ الشَّطْرَ فَقَالَ كَعْبٌ: قَدْ فَعَلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قُمْ فَاقْضِه" [49].

4 – الإصلاح بين الأقارب والأرحام: حُدِّثْتُ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ قَالَ فِي بَيْعٍ أَوْ عَطَاءٍ أَعْطَتْهُ عَائِشَةُ: وَاللَّهِ لَتَنْتَهِيَنَّ عَائِشَةُ أَوْ لأَحْجُرَنَّ عَلَيْهَا فَقَالَتْ أَهُوَ قَالَ هَذَا؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَتْ: هُوَ لِلَّهِ عَلَيَّ نَذْرٌ أَنْ لا أُكَلِّمَ ابْنَ الزُّبَيْرِ أَبَدًا، فَاسْتَشْفَعَ ابْنُ الزُّبَيْرِ إِلَيْهَا حِينَ طَالَتْ الْهِجْرَةُ فَقَالَتْ: لاَ وَاللَّهِ لا أُشَفِّعُ فِيهِ أَبَدًا وَلا أَتَحَنَّثُ إِلَى نَذْرِي فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ كَلَّمَ الْمِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الأَسْوَدِ بْنِ عَبْدِ يَغُوثَ وَهُمَا مِنْ بَنِي زُهْرَةَ وَقَالَ لَهُمَا أَنْشُدُكُمَا بِاللَّهِ لَمَّا أَدْخَلْتُمَانِي عَلَى عَائِشَةَ فَإِنَّهَا لا يَحِلُّ لَهَا أَنْ تَنْذِرَ قَطِيعَتِي، فَأَقْبَلَ بِهِ الْمِسْوَرُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ مُشْتَمِلَيْنِ بِأَرْدِيَتِهِمَا حَتَّى اسْتَأْذَنَا عَلَى عَائِشَةَ فَقَالَ: السَّلامُ عَلَيْكِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ أَنَدْخُلُ؟ قَالَتْ عَائِشَةُ: ادْخُلُوا، قَالُوا كُلُّنَا. قَالَتْ: نَعَمْ ادْخُلُوا كُلُّكُمْ. وَلا تَعْلَمُ أَنَّ مَعَهُمَا ابْنَ الزُّبَيْرِ فَلَمَّا دَخَلُوا دَخَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ الْحِجَابَ فَاعْتَنَقَ عَائِشَةَ وَطَفِقَ يُنَاشِدُهَا وَيَبْكِي وَطَفِقَ الْمِسْوَرُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ يُنَاشِدَانِهَا إِلاَّ مَا كَلَّمَتْهُ وَقَبِلَتْ مِنْهُ وَيَقُولانِ إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَمَّا قَدْ عَلِمْتِ مِنْ الْهِجْرَةِ فَإِنَّهُ لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثِ لَيَالٍ فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَى عَائِشَةَ مِنْ التَّذْكِرَةِ وَالتَّحْرِيجِ طَفِقَتْ تُذَكِّرُهُمَا نَذْرَهَا وَتَبْكِي وَتَقُولُ: إِنِّي نَذَرْتُ وَالنَّذْرُ شَدِيدٌ فَلَمْ يَزَالا بِهَا حَتَّى كَلَّمَتْ ابْنَ الزُّبَيْرِ وَأَعْتَقَتْ فِي نَذْرِهَا ذَلِكَ أَرْبَعِينَ رَقَبَةً وَكَانَتْ تَذْكُرُ نَذْرَهَا بَعْدَ ذَلِكَ فَتَبْكِي حَتَّى تَبُلَّ دُمُوعُهَا خِمَارَهَا " [50].

5 – الإصلاح بين القبائل والطّوائف: عن أَنَس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قِيلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ أَتَيْتَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَكِبَ حِمَارًا فَانْطَلَقَ الْمُسْلِمُونَ يَمْشُونَ مَعَهُ وَهِيَ أَرْضٌ سَبِخَةٌ فَلَمَّا أَتَاهُ النَّبِيُّ قَالَ: إِلَيْكَ عَنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ آذَانِي نَتْنُ حِمَارِكَ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَارِ مِنْهُم: وَاللَّهِ لَحِمَارُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَطْيَبُ رِيحًا مِنْك فَغَضِبَ لِعَبْدِ اللَّهِ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ فَشَتَمَهُ، فَغَضِبَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا

---

[49] صحيح البخاري. رقم الحديث : (2710). ط: 1. المكتبة السّلفيّة. القاهرة. س: 1400هـ - 1980 م. و صحيح مسلم. حديث رقم (2920). كِتَاب الْمُسَاقَاةِ. ط: 1. دار إحياء الكتب العربيّة. س: 1374 هـ - 1954م . القاهرة.

[50] ابن حجر العسقلاني. فتح الباري بشرح صحيح البخاري. (12/ 115). حديث رقم (6073). كتاب الأدب رقم 78. باب رقم 62. لا يحلّ لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال. نشر: دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع. بيروت. ط: 1. . س: 1415 هـ - 1995 م. و صحيح ابن حبّان. حديث رقم: 5662. ط: 2. مؤسّسة الرّسالة. بيروت. س: 1414هـ - 1994 م.

أَصْحَابُهُ فَكَانَ بَيْنَهُمَا ضَرْبٌ بِالْجَرِيدِ وَالأَيْدِي وَالنِّعَالِ فَبَلَغَنَا أَنَّهَا أُنْزِلَتْ " وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا " [51].

6 – الإصلاح في الأموال والدّماء: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اشْتَرَى رَجُلٌ مِنْ رَجُلٍ عَقَارًا لَهُ فَوَجَدَ الرَّجُلُ الَّذِي اشْتَرَى الْعَقَارَ فِي عَقَارِهِ جَرَّةً فِيهَا ذَهَبٌ فَقَالَ لَهُ الَّذِي اشْتَرَى الْعَقَارَ خُذْ ذَهَبَكَ مِنِّي إِنَّمَا اشْتَرَيْتُ مِنْكَ الأَرْضَ وَلَمْ أَبْتَعْ مِنْكَ الذَّهَبَ، فَقَالَ الَّذِي شرى الأرْض: إِنَّمَا بِعْتُكَ الأَرْضَ وَمَا فِيهَا، قال: فَتَحَاكَمَا إِلَى رَجُلٍ فَقَالَ الَّذِي تَحَاكَمَا إِلَيْهِ: أَلَكُمَا وَلَدٌ؟ قَالَ أَحَدُهُمَا لِي غُلامٌ وَقَالَ الآخَرُ: لِي جَارِيَةٌ قَالَ أَنْكِحُوا الْغُلامَ الْجَارِيَةَ وَأَنْفِقُوا عَلَى أَنْفُسِكمَا مِنْهُ وَتَصَدَّقَا " [52].

7 – الإصلاح في النّزاع والخصومات: عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سَمِع رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَوْتَ خُصُومٍ بِالْبَابِ عَالِيَةً أَصْوَاتُهُمَ، وَإِذَا أَحَدُهُمَا يَسْتَوْضِعُ الآخَرَ وَيَسْتَرْفِقُهُ فِي شَيْءٍ وَهُوَ يَقُولُ: وَاللَّهِ لا أَفْعَلُ فَخَرَجَ عَلَيْهِمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَقَالَ أَيْنَ الْمُتَأَلِّي [53] عَلَى اللَّهِ لا يَفْعَلُ الْمَعْرُوفَ؟ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَلَهُ أَيُّ ذَلِكَ أَحَبَّ " [54].

إنّ ورود معنى " الإصلاح " في النّصوص النّبويّة كثيرة وبصيغ متنوّعة، شمل كلّ النّشاط الإنساني، لذلك تناول أهل الحديث في صحاحهم ومسانيدهم مسألة الإصلاح وآهتمّوا

---

[51] صحيح البخاري. رقم الحديث: 2691. ط: 1. المكتبة السّلفيّة. القاهرة. س: 1400هـ - 1980 م. و صحيح مسلم. . رقم الحديث: 1799. ط: 1. س: 1374هـ - 1954 م. دار إحياء الكتب العربيّة. دمشق.

[52] صحيح البخاري. رقم الحديث: 3472. ط: 1. المكتبة السّلفيّة. القاهرة. س: 1400هـ - 1980 م. و صحيح ابن حبّان. حديث رقم: 1721. ط: 2. مؤسّسة الرّسالة. بيروت. س: 1414هـ - 1994 م.

[53] الْمُتَأَلِّي: الْحَالِفُ، وَالْأَلِيَّةُ: الْيَمِينُ.

[54] صحيح البخاري. رقم الحديث: 2705. ط: 1. المكتبة السّلفيّة. القاهرة. س: 1400هـ - 1980 م. و صحيح ابن حبّان. حديث رقم: 1557. ط: 2. مؤسّسة الرّسالة. بيروت. س: 1414هـ - 1994 م.

[55] ابن حجر العسقلاني. فتح الباري بشرح صحيح البخاري. (5 /638). رقم (2692). كتاب رقم 53. باب 2. باب : ليس الكاذب الذي يُصلح بين النّاس. نشر: دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع. بيروت. ط: 1. س: 1415 هـ - 1995 م.

بـه، و سنقتصـر علـى كتـاب واحـد في صـحيح الإمـام البخـاري سمّـاه: " كتـاب الصّـلح "[55] ، بوّب فيه أبوابا عديدة منها:

1 " بـاب مـا جـاء في الإصـلاح بـين النّـاس: "حيـث أصـلح النّـبيّ صـلّى الله عليـه وآلـه وسـلّم بين بني عمرو بن عوف، كما أصلح بين أهل قباء [56].

2 " باب ليس الكاذب الذي يُصلح بين النّاس " [57].

3 " باب قول الإمام لأصحابه: إذهبوا بنا نُصلح " [58].

4 " باب قول الله تعالى:" أَنْ يَصّاَلحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ "[59] .

5 " بـاب إذا اصـطلحوا علـى صُـلحِ جَـوْر فالصّـلح مـردود " [60]. لقولـه صـلّى الله عليـه وسـلّم في الصّحيح:" مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهْوَ رَدٌّ " [61].

6 " بـاب كيـفَ يُكتـبُ:" هـذا مـا صـالحَ فُـلانُ بـن فـلانٍ وفُـلانَ بـن فُـلانٍ وإن لم ينسُـبه إلى قبيلته أو نَسَبه " [62].

---

[56] نفسه. حديث رقم: 2690.
[57] نفسه. حديث رقم: 2692.
[58] نفسه. حديث رقم:2693.
[59] النّساء 127.
[60] ابن حجر العسقلاني. فتح الباري بشرح صحيح البخاري. كتاب رقم 53. دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع. بيروت. ط: 1. س: 1415 هـ - 1995 م. (640/5).
[61] نفسه حديث رقم 2697. و الإمام مسلم في صحيحه برواية:" من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ ". حديث رقم: (1718). و صحيح مسلم بشرح النّووي. (15/12). دار الكتب العلميّة. بيروت. ط: 1. س:1415 هـ - 1995 م.
[62] نفسه. ابن حجر . (643/5).
[63] ابن حجر. (644/5).

7 " بـاب الصّـلح مـع المشـركين " [63]. ويعـدّ هـذا مـن بـاب الصّـلح السّياسـي مـع المحـاربين حيـث صـالح النّـبيّ صـلى الله عليـه وسـلم المشـركين يـوم الحديبيـة علـى ثلاثـة أشـياء علـى أن مـن أتـاه مـن المشـركين ردّه إلـيهم ومـن أتـاهم مـن المسـلمين لم يـردّوه وعلـى أن يـدخلها مـن قابـل ويقيم بها ثلاثة أيّام ولا يدخلها إلاّ بجلبان السّلاح السّيف والقوس ونحوه ".

8 " باب الصّلح في الدّية " [64]، بمعنى أن يعفو صاحب الحقّ في القصاص.

9 " باب قول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم للحَسَن بنِ عليٍّ رضي الله عنهما " [65].

10 " باب هل يُشير الإمامُ بالصُّلح ؟ " [66].

11 " بـاب فضـل الإصـلاح بـين النّـاس والعـدل بيـنهم" [67]. واسـتند رحمـه الله تعـالى إلى قولـه صـلّى الله عليـه وسـلّم:" كُـلُّ سُـلاَمَى [68] مِـنَ النَّـاسِ عَلَيْـهِ صَـدَقَةٌ. كُـلُّ يَـوْمٍ تَطْلُـعُ فِيـهِ الشَّـمْسُ يَعْدِلُ بَيْنَ النَّاسِ صَدَقَةٌ "[69].

12 " باب إذا أشار الإمامُ بالصّلح فأبى، حَكَمَ عليه بالحكم البيِّن "[70].

13 " باب الصّلح بين الغرماء وأصحاب الميراث والمجازفة في ذلك" [71].

14 " باب الصُّلح بالدَّين والعَين "[72].

---

[64] نفسه ابن حجر. (646/5).
[65] نفسه (647/5).
[66] نفسه (648/5).
[67] نفسه (650/5).
[68] هو المفصل. قاله الحافظ ابن حجر العسقلاّني في الفتح. (650/5).
[69] حديث رقم 2707. (650/5).
[70] نفسه ابن حجر حديث رقم 2708. (650/5 - 651)
[71] نفسه ابن حجر. حديث رقم 2709. (651/5).
[72] نفسه ابن حجر. حديث رقم 2710. (652/5).

ولا شكّ أنّ مسألة الصّلح والمصالحة والإصلاح ممّا ندب إليه الشّرع العزيز وجعله من أعظم الأعمال الصّالحة الواجبة على كلّ مسلم، حتّى أنّ أعضاء العبد ومفاصله لتطالبه بذلك الأمر المهمّ فجر كلّ يوم كما مرّ في حديث أعلاه.

وقد تبيّن أنّ عدم الامتثال للإصلاح من مواطن الطّعون في عقيدة المؤمن. ولذلك أمر الله بمقاتلة من رفض الإصلاح كما بيّنّا أعلاه.

كما نشير في هذا الصّدد إلى العديد من النّصوص النّبويّة الواردة في الإصلاح، منها:

- الحديث الأوّل: " أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟ قَالُوا: بَلَى! قَالَ: صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ " [73].

- الحديث الثّاني: " مَا عَمِلَ ابنُ آدمَ شيئًا أَفْضَلَ مِنَ الصَّلاةِ وَصَلاَحِ ذَاتِ البَيْنِ وخُلُقٍ حَسَنٍ "[74].

- الحديث الثّالث: " أَفْضَلُ الصَّدَقةِ إِصْلاَحُ ذَاتِ البَيْنِ " [75].

- الحديث الرّابع: عن أنس رضي الله عنه أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال لأبي أيّوب: " أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى تِجَارَةٍ ؟ " قَالَ: بَلَى! قَالَ: " صِلْ بَيْنَ النَّاسِ إِذَا تَفَاسَدُوا، وَقَرِّبْ بَيْنَهُمْ إِذَا تَبَاعَدُوا " [76]. وجاء عند البيهقي عن أبي أيّوب أيضا، قال: قال لي رسول الله: " يَا أَبَا أَيُّوبَ أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى صَدَقَةٍ يُحِبُّهَا اللهُ وَرَسُولُهُ ؟ تُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ إِذَا تَبَاغَضُوا وَتَفَاسَدُوا ". [77]. ورواه عبد بن حميد والطّيالسي بلفظ:" يَا أَبَا أَيُّوبَ أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى صَدَقَةٍ يُرْضِي اللهُ

---

[73] الجامع الصّحيح. سنن التّرمذي. تحقيق: أحمد بن محمد شاكر. ط: 1. دار الكتب العلميّة. بيروت. 1356هـ - 1936 م. رقم الحديث: 2509. و الألباني. صحيح سنن التّرمذي. ط: 1. مكتب التّربية العربي لدول الخليج. الرّياض. السّعوديّة. س: 1408هـ - 1988 م. رقم 2509. و ابن حجر العسقلاني. الدّراية في تخريج أحاديث الهداية. ط: 1. مكتبة الفيصليّة. مكّة المُكرّمة. س: 1413 هـ - 1993 م. (2/ 270).

[74] الألباني. صحيح الجامع الصّغير وزيادته. ط: 3. المكتب الإسلامي. بيروت. س: 1408هـ - 1988 م. رقم: 5645

[75] الألباني. السّلسلة الصّحيحة. ط: 1. مكتبة المعارف. الرّياض.1415 هـ - 1995 م. رقم: 2639

[76] الألباني. صحيح التّرغيب والتّرهيب للحافظ المنذري. رقم: ط: 1. مكتبة المعارف. بيروت. س: 1421هـ - 2000 م. رقم2818.

[77] الهيثمي. مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد. (8/ 82). ط: 1. مؤسّسة المعارف. بيروت. لبنان. س: 1406 هـ - 1986 م. والألباني في صحيح التّرغيب والتّرهيب للحافظ المنذري. رقم 2820. ط: 1. مكتبة المعارف. بيروت. س: 1421هـ - 2000 م.

[78] البيهقي. شعب الإيمان. (7 / 3544). ط: 1 دار الفكر. بيروت. س: 1424هـ - 2003 م.

وَرَسُولُهُ مَوْضِعَهَا ؟ "، قال: بلى! قال:" تُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ إِذَا تَفَاسَدُوا وَتُقَرِّبَ بَيْنَهُمْ إِذَا تَبَاعَدُوا ". [78].

ـ الحديث الخامس:" كُلُّ سُلاَمَى مِنَ النَّاسِ عَلَيهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ: تَعْدِلُ بَيْنَ الاثْنَينِ صَدَقَةٌ، وَتُعينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ خَطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلاةِ صَدَقَةٌ، وَتُمِيطُ الأَذى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ " [79].

ـ الحديث السّادس:" لَيْسَ الكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنْمِي[80] خَيراً، أَوْ يقُولُ خَيْراً "[81].

ـ الحديث السّابع: " لاَ يَحِلُّ الكَذِبُ إِلَّا فِي ثَلاَثٍ كَذِبُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ لِيُرْضِيَهَا وَالكَذِبُ فِي الحَرْبِ وَالكَذِبُ لِيُصْلِحَ بينَ النَّاسِ" [82].

ـ الحديث الثّامن: عن قَبِيصَةَ بن مُخَارِقٍ الهِلالي، قال:" تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ أَسْأَلُهُ فِيهَا، فَقَالَ: " أَقِمْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا "، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: يَا قَبِيصَةُ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لاَ تَحِلُّ إِلاَّ لأَحَدِ ثَلاَثَةٍ: رَجُلٍ تَحَمَّلَ حَمَالَةً، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا، ثُمَّ يُمْسِكُ، وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ، حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ – أَوْ قَالَ: سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ – وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ، حَتَّى يَقُومَ ثَلاَثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ: لَقَدْ أَصَابَتْ فُلاَنًا فَاقَةٌ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ، حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ– أَوْ قَالَ: سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ– فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتًا يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا " [83].

---

[79] صحيح مسلم بشرح النّووي. (83/7). رقم (1009). كتاب الزّكاة رقم (12). ط: 1. دار الكتب العلميّة. بيروت. 1415 هـ - 1995م.

[80] قوله:" فَيَنْمِي " بفتح أوله وكسر الميم، أي: يبلغ، تقول: نميت الحديث أنميه إذا بلغته على وجه الإصلاح وطلب الخير، فإذا بلغته على وجه الإفساد والنميمة قلت: نميته بالتشديد، انظر فتح الباري (353/5).

[81] ابن حجر العسقلاني. فتح الباري بشرح صحيح البخاري. (638/5). كتاب رقم 53. باب 2. باب : ليس الكاذب الذي يُصلح بين النّاس. رقم (2692). نشر: دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع. بيروت. ط: 1. س: 1415 هـ - 1995 م.

[82] كشف المناهج والتّناقيح في تخريج أحاديث المصابيح. تحقيق: محمّد إسحاق محمّد إبراهيم. محمّد بن إبراهيم السّلمي المناوي. (323/4). ط: 1. الدّار العربيّة للموسوعات. بيروت. س: 1425 هـ - 2004 م و ابن حجر العسقلاني في " هداية الرّواة إلى تخريج أحاديث المصابيح و المشكاة ". (4/ 447). ط: 1. دار ابن القيّم. الدّمّام. س: 1422 هـ - 2001 م. الألباني في " صحيح سنن التّرمذي " . رقم 1939. ط: 1. مكتب التّربية العربي لدول الخليج. الرّياض. س: 1408هـ - 1988 م.

[83] صحيح مسلم. رقم الحديث: 1044. ط: 1. دار إحياء الكتب العربيّة. دمشق. س: 1374 هـ - 1954 م.

ـ الحديث التّاسع: " الصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا صُلْحًا أَحَلَّ حَرَامًا أَوْ حَرَّمَ حَلَالًا، الْمُسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ، إِلا صُلْحًا أَحَلَّ حَرَامًا أَوْ حَرَّمَ حَلالا " [84].

ـ الحديث العاشر: عن أبي بكرة: أن النَّبِيّ قال لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ " [85].

حرصتُ من خلال هذا المبحث في معاني الإصلاح ومجالاته في الكتاب العزيز وفي صحيح السّنّة، أن أشير إلى:

1 أنّ الإصلاح مفردة شرعيّة وردت في القرآن والسّنّة بشكل منتشر وبصيغ متعدّدة.

2 أنّ الضّابط والمعيار في معرفة الحقّ من الباطل والإصلاح من الفساد هو الشّارع العزيز، فهو وحده الذي يعلم الإصلاح والفساد، قال تعالى:" وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ " [86].

3 أنّ الإصلاح اتّسعت ميادينه ورحبت مجالاته، حتّى وسع النّاس في نيّاتهم وتوبتهم فضلا عن دمائِهم وأموالهم وأمنهم وأقوالهم وأفعالهم. فكأنّ الشّرع كلّه عمل إصلاحي ـ وهو كذلك .

4 أنّ الإصلاح هي المهّة المركزيّة والوظيفة الأساسيّة للأنبياء عليهم السّلام ومن تبعهم بإحسان. وهذا شعيب عليه السّلام ينطق بآسمهم قائلا:" إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ " [87].

5 أنّ الطّغاة يختطفون هذا مفردة الإصلاح الجذّابة لهم ويُنفونها عن المصلحين الحقيقيّين، بل ويتّهمونهم بالفساد. وقد تزعّم هذا السّبيل فرعون موسى، فقال:" وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ "[88].

---

[84] أحمد بن علي بن حجر العسقلاّني. بلوغ المرام من أدلّة الأحكام. حديث رقم 257. ط: 2. دار الفيحاء. س: 1417هـ - 1996 م. والألباني. صحيح التّرمذي. رقم 1352. ط: 1. مكتب التّربية العربي لدول الخليج. الرّياض. س: 1408هـ - 1988 م.

[85] ابن حجر العسقلاني. فتح الباري بشرح صحيح البخاري. (647/5). حديث رقم 2704. كتاب رقم 53. باب 9: قول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم للحسن رضي الله عنه، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع. بيروت. ط: 1. س: 1415 هـ - 1995 م.

[86] البقرة 220.

[87] هود 88.

[88] غافر 26.

6 أنّ المنافقين في كلّ زمان ومكان يدّعون أنّهم أهل صلاح وإصلاح، قال تعالى يكشف حقيقتهم:" وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ".[89].

7 أنّ الإسلام كلّه ميدان رحب للإصلاح الشّامل والعادل، تضيقُ الأبحاث عن سرده وتناوُله، ويَكفيه شرفاً وفضلاً أنّ كلّ ما أدّى إلى الطَّاعة وامتثال الأمر والتّمسّك بالكتاب فهو إصلاح والمتحلّي به هو من المصْلِحِين" وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ " [90].

8 أهمّيّة الإصلاح وضرورته للمسلمين خاصّة وللنّاس كافّة.

9 أنّ الإصلاح المطلوب شرعا هو إصلاح شامل يطال كلّ نشاط ووظائف الأمّة وحاجيّاتها.

---

[89] البقرة 11 - 12.
[90] الأعراف 170.

المبحث الرّابع

شروط نجاح عمليّة الإصلاح

ليس من نافلة القول أن نقرّر أنّ الإصلاح لا يتحقّق دون أن تتوفّر له شروط، لعلّ أهمّها:

أوّلا: صلاح المُصلِح واستقامته على الحقّ ظاهرا وباطنا:

إذ لا يمكن أن نتصوّر تحقّق إصلاح دون قوم صالحين، قال الله عزّ وجلّ:" إِنَّ اللهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ" [91]. وقال الحكماء قديما:" فاقد الشّيء لا يعطيه" وقالوا:" لا يستقيم الظّلّ والعود أعوج".

وعليه، ينبغي أن يكون القائم على أمر الإصلاح صالحا، ولا يكون كذلك إلاّ إذا توفّر فيه ما وجّه الله تعالى به رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم في أوّل تلقّيه الرّسالة، فقال له: " يَأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ . وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ . وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ " [92].

فانظر كيف وجّه الله رسوله في خاصّة نفسه إلى:

1 توحيد الرّبّ بعد إذ كلّفه نذارة غيره بقوله " وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ "، فوجّهه إلى ربّه وحده. فهو وحده الكبير، الذي يستحقّ التكبير. وهو توجيه للرّسول صلّى الله عليه وسلّم ليواجه نذارة البشريّة، ومتاعها وأهوالها وأثقالها، فيستصغر كلّ كيد، وكلّ قوة، وكلّ عقبة، وهو يستشعر أنّ ربّه الذي دعاه ليقوم بهذه النّذارة، هو الكبير.. ومشاقّ الدّعوة وأهوالها في حاجة دائمة إلى استحضار هذا التّصوّر وهذا الشّعور... [93]

---

[91] يونس 81.
[92] المدّثّر 1 - 7.
[93] سيّد قطب. في ظلال القرآن. تفسير سورة المدّثّر بتصرّف. (6/ 3754 - 3755). ط: 8. س: 1399 هـ - 1979م . دار الشّروق. بيروت.

2 التّطهّـر في قولـه تعـالى:" وَثِيَابَـكَ فَطَهِّـرْ"، وطهـارة الثّيـاب كنايـة في الاسـتعمال العـربي عـن طهارة القلب والخلق والعمل.. [94]

3 هجـران الشّـرك وموجبـات العـذاب:" وَٱلرُّجْـزَ فَـٱهْجُرْ "... والرّسـول صـلّى الله عليـه وسـلّم كـان هـاجراً للشّـرك ولموجبـات العـذاب حـتّى قبـل النّبـوّة. فقـد عافـت فطرتـه السّـليمة ذلـك الانحـراف، وهـذا الرّكـام مـن المعتقـدات الشّـائهة، وذلـك الـرّجس مـن الأخـلاق والعـادات، فلـم يعـرف عنـه أنّـه شـارك في شـيء مـن خـوض الجاهليّـة. ولكـنّ هـذا التّوجيـه يعـني المفاصـلة وإعـلان التّميّـز الـذي لا صـلح فيـه ولا هـوادة. فهمـا طريقـان مفترقـان لا يلتقيـان. كمـا يعـني التّحـرّز مـن دنـس هـذا الرّجـز . والرّجـز في الأصـل هـو العـذاب، ثمّ أصـبح يطلـق علـى موجبـات العذاب . تحرّز التّطهّر من مس هذا الدّنس! [95].

4 الإخـلاص: وهـو مـن أبـرز أسـس قبـول ونجـاح الأعمـال الصّـالحة، إذ كـلّ مـا لا يُـراد بـه وجـه الله تعـالى يضـمحلّ، قـال تعـالى:" وَالَّـذِينَ جَاهَـدُوا فِينَـا لَنَهْـدِيَنَّهُمْ سُـبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَـعَ الْمُحْسِـنِينَ " [96]. ومـن أعظـم معـالم الإخـلاص، إنكـار الـذّات وعـدم المـنّ بمـا يقدّمـه مـن الجهـد، أو اسـتكثاره واسـتعظامه:" وَلاَ تَمْـنُن تَسْـتَكْثِرُ "،.. وهـو سـيقدّم الكثـير، وسـيبذل الكثـير، وسـيلقى الكثـير مـن الجهـد والتّضـحية والعنـاء. ولكـنّ ربّـه يريـد منـه ألاّ يظـلّ يسـتعظم مـا يقدّمـه ويسـتكثره ويمـتنّ بـه.. وهـذه الـدّعوة لا تسـتقيم في نفـس تحـسّ بمـا تبـذل فيهـا. فالبـذل فيهـا مـن الضّـخامة بحيـث لا تحتملـه الـنّفس إلاّ حـين تنسـاه. بـل حـين لا تستشـعره مـن الأصـل لأنّهـا مسـتغرقة في الشّـعور بـالله، شـاعرة بـأنّ كـلّ مـا تقدّمـه هـو مـن فضـله ومـن عطايـاه. فهـو فضـل يمنحهـا إيّـاه، وعطـاء يختارهـا لـه، ويوفّقهـا لنيلـه. وهـو اختيـار واصـطفاء وتكـريم يسـتحقّ الشّكر لله. لا المنّ والاستكثار [97].

5 العمـل بعلـم: بـالعلم يكمـل الإنسـان، ولـذا يرفـع الله بـه أقوامـا ويضـع آخـرين، فبـه ينـير الله الطّريـق إليـه ويفـتح للنّـاس مغـاليق الفهـم عنـه، كمـا يعصـم مـن الزّيـغ والضّـلال والوقـوع في مهـاوي المغـامرات، ومـن عمـل في غـير علـم كـان مـا يفسـد أكثـر ممّـا يصـلح، وكـم مـن فـرد أو

---

[94] نفسه

[95]) نفسه.

[96]) العنكبوت 69.

[97]) سيّد قطب. نفس المصدر.

جماعة همّوا بالإصلاح ـ تدفعهم الغيرة والعاطفة والعجلة دون علم ـ فترتّب على تصرّفهم ذلك فساد وإفساد، قال ابن القيّم:" يُعرض للسّالك معاطب ومهالك لا ينجيه منها إلاّ بصيرة العلم"[98]، من أجل هذا، أمر الله تعالى المؤمنين أن يحتكموا إلى أهل العلم بحكم أنّهم أولى الأمّة بإدراكم مصالحها دون غيرهم، فقال عزّ وجلّ:" وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوِلِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ" [99]. ولذلك جعل الإمام البخاري في صحيحه: " باب العلم قبل القول والعمل

لقول الله تعالى فاعلم أنّه لا إله إلا الله فبدأ بالعلم"، قال ابن المُنَيِّر السِّكندري[100]: أراد به أنّ العلم شرط في صحّة القول والعمل، فلا يعتبران إلاّ به، فهو مقدّم عليهما، لأنّه مصحّح للنيّة المصحّحة للعمل " [101]. وهذا العلم هو الذي أشار الله إليه بـ "البصيرة" التي ينبغي أن يكون عليها كلّ مصلح آمن بالرّسول صلّى الله عليه وسلّم وصدّقه واتّبعه، قال تعالى:" قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي " [102]. حتّى أنّه لا تجد خرابا في قوم إلاّ بفشوّ الجهل، ولا عمارا إلاّ بظهور العلم، ولذلك ذكر الفقيه القاضي المالكي أبو الوليد الباجي [101] في كتابه سنن الصّالحين عن الحسن البصري [102] " لولا العلماء لكان النّاس كالبهائم ".

6 الصّبر:" وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ".. وهي الوصيّة التي تتكرّر عند كلّ تكليف بهذه الدّعوة أو تثبيت. والصّبر هو هذا الزّاد الأصيل في هذه المعركة الشّاقّة. معركة الدّعوة إلى الله. المعركة المزدوجة مع شهوات النّفوس وأهواء القلوب، ومع أعداء الدّعوة الذين تقودهم شياطين الشّهوات وتدفعهم شياطين الأهواء! وهي معركة طويلة عنيفة لا زاد لها إلاّ الصّبر الذي

---

[98]) ابن قيّم الجوزيّة. مدارج السّالكين بين منازل إيّاك نعبد وإيّاك نستعين (179/1). دار الكتاب العربي. دمشق ـ القاهرة. س: 1416 هـ ـ 1996م.

[99]) النّساء 82.

[100] عالم وأديب من أهل الإسكندريّة. (620 – 683 هـ / 1223 – 1284 م) وَلِيَ قضاءها وخطابتها مرّتين. له تصانيف، منها:" تفسير "، و " ديوان الخطب "، و" تفسير حديث الإسراء "، على ذريقة المتكلّمين، كتاب (المتواري على أبواب البخاري) وقد أشار إليه ابن حجر كثيرا وتعقّبه. انظر إلى الاعلام قاموس تراجم لأشهر الرّجال والنّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدّين الزّركلي ط: 9 . 1400 هـ - 1980 م. دار العلم للملايين. بيروت. (1/ 220).

[101] بدر الدّين العيني الحنفي. عمدة القاري شرح صحيح البخاري. دار إحياء التّراث العربي. بيروت. (1/ 418).

[102] يوسف .108

[101] (403 هـ - 1012م/474هـ -1081م) من علماء أمازيغ الأندلس، هو القاضي أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيّوب بن وارث التّجيبي، الأندلسي، القرطبي، الباجي، الذّهبي، المالكي إمام، أشعرى، وفقيه مالكي وصاحب التّصانيف.

[102] (21 هـ / 642 م - 110هـ / 728 م) إمام وعالم من علماء أهل السّنّة والجماعة يكنى بأبي سعيد. ولد بالمدينة النّبويّة، وتوفّي في البصرة بالعراق.

يقصد فيه وجه الله، ويتّجه به إليه احتساباً عنده وحده " [103]. ومعلوم أنّ النّصر والتّوفيق هو من الله تعالى وحده، ومن كان إلى تمثّل تلك الشّروط أقرب، كان النّجاح له الله تعالى له أقرب، قال ابن قيّم الجوزيّة:" كلّما كان العبد أتمّ عبوديّة كانت الإعانة له من الله أعظم "[104].

ثانيا: صوابيّة المنهج:

إنّ الزّاد العقيدي والقيمي والأخلاقي السّابق ذكره، لا يكفي بل لابدّ من ثقة المصلحين في صوابيّة منهجهم الذي يدعون إليه ويصلحون به، وبأنّه لا حلّ إلاّ في ذلك المنهج، وهو هنا " الإسلام "، إذ لا إصلاح إلاّ بالإسلام، وأنّ الإسلام هو مادّة الإصلاح ولا يكون موضوعه أبدا، قال تعالى:" الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً "[105]. فلا يمكن أن يتصوّر عاقل بعد هذه الشّهادة الإلهيّة أنّ في هذا الدّين نقصا يستدعي الكمال، أو قصورا يستدعي الإضافة، أو محلّية تستدعي التّطوير أو زمانيّة تتطلّب التّحوير أو جزئيّة تستحقّ النّقض، لأنّ الله عزّ وجلّ أكمل الدّين ظاهره وباطنه، أصوله وفروعه، عقائده ومناهجه، فلسنا بحاجة إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير محمّد، ولهذا جعله الله خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجنّ، فلا حلال إلا ما أحلّه، ولا حرام إلا ما حرّمه، ولا دين إلاّ ما شرعه كلّ لا يتجزّأ، كلّ متكامل سواء في ما يخصّ بالتّصوّر والاعتقاد، وما يختصّ بالشّعائر والشّرائع والعبادات وما يختصّ بالحلال والحرام وما يختصّ بالتّنظيمات الاجتماعيّة المحلّيّة والدّوليّة. قال تعالى:" مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ " [106]. وقال:" وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لّكُلّ شَيْءٍ " [107]. قال الإمام القرطبي:" أي ما تركنا شيئًا من أمر الدّين إلاَّ وقد دللنا عليه في القرآن، إمَّا دلالة مبيَّنة مشروحة، وإمَّا مجملة

---

[103] سيّد قطب. في ظلال القرآن. ط: 8. س: 1399 هـ - 1979م. دار الشّروق. بيروت. (6/ 3754 - 3755). تفسير سورة المدثّر بتصرّف شديد.
[104] ابن قيّم الجوزيّة. ط: 1. س: 1416 هـ - 1996 م. دار الكتاب العربي. بيروت. (97/1).
[105] المائدة 4.
[106] النّحل 89.
[107] الأنعام 38.

يتلقّى بيانَها من الرّسول عليه الصّلاة والسّلام، أو من الإجماع، أو من القياس الذي ثبت بنصّ الكتاب، قال الله تعالى:" وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ تِبْيَانًا لّكُلّ شَيْءٍ "، وقال:" وَأَنزَلْنَا

إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ " [108]. وقال:" وَمَا آتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ " [109]. فأجمل في هذه الآية وآية النّحل ما لم ينصّ عليه ممّا لم يذكره، فصدق خبر الله بأنّه ما فرّط في الكتاب من شيءٍ إلاّ ذكره، إمَّا تفصيلاً وإمَّا تأصيلاً، وقال:" الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ[110] [111] ".

هذا وقد نفى سبحانه وتعالى العِوج والانحراف واللّبس عن كتابه فقال سبحانه:" وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ " [112].

وفي هذا الإطار يقول الأستاذ عبّاس العقّاد (1889 م- 1964م): " إنّ تجارب التّاريخ تقرّر لنا أصالة الدّين في جميع حركات التّاريخ الكبرى، ولا تسمح لأحد أن يزعم أنّ العقيدة الدّينيّة شيء تستطيع الجماعة أن تلغيه ويستطيع الفرد أن يستغنى عنه في علاقته بتلك الجماعة، أو فيما بينه وبين سريرته المطوية عمّن حوله ولو كانوا أقرب النّاس إليه. ويقرّر لنا التّاريخ أنّه لم يكن قطّ لعامل من عوامل الحركات الإنسانيّة أثر أقوى وأعظم من عامل الدّين، وكلّ ما عداه من العوامل المؤثّرة في حركات الأمم فإنّما تتفاوت فيه القوّة بمقدار ما بينه وبين العقيدة الدّينيّة من المشابهة في التّمكّن من أصالة الشّعور وبواطن السّريرة "[113].

ثالثا: ترأّس العلماء لعمليّة الإصلاح: إنّ العلاج الفعّال لوضع الأمّة يستلزم تشخيصا دقيقا لكوارثها الأساسيّة، ولقد كشف الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور في وقت مبكّر

المرض الأكبر لهذه الأمّة فقال:" إنّ كوارث هذه الأمّة ومصائبها ما طلع قرنها إلاّ حين أخذت عامّتها تحيد عن هدي العلماء، وعن اللّجإ في مشاكل الأمور إليهم، فلمّا تجرّأت عامّة المسلمين على الارتماء بأنفسهم في مضايق التّدبير للأمور دون هدي من

---

[108] النّحل 44.
[109] الحشر 7.
[110] المائدة 4.
[111] تفسير القرطبي طبع: دار إحياء التّراث العربي. بيروت. 1405هـ - 1985 م. (6/ 420).
[112] الزّمر 27 – 28.
[113] حقائق الاسلام وأباطيل خصومه. موسوعة عبّاس محمود العقّاد الإسلاميّة. المُجلّد الخامس. ط:1. دار الكتاب العربي. بيروت. 1391 هـ - 1971 م. ص 28.

علماء الشّريعة وصاروا أتباع النّاعقين من دعاة الضّلالة وهواة التّسلّط الذين اتّخذوا من عامّة الأمّة جندًا فمزّقوا بسيوفهم إهاب الإسلام، وكانوا أنكى عليه من أعدائه وافترسوه باسم سلاطينه وأمرائه..." [114].

والشّيخ ـ وهو يكشف عن الدّاء ـ وجدناه في نفس الوقت يفكّك أخطر تعقيد وقعت فيه الأمّة حين عزلت علماء الأمّة عن قضاياها الجوهريّة، وحصروهم في مربّع الفتاوى. لقد أعطي الشّيخ محمّد الطّاهر رحمه الله تعالى الدّواء، في اتّجاهين:

أوّلهما: أن يقوم علماء الشّريعة بتبليغها وإقامتها: قال رحمه الله تعالى:" فلا جرم أن كان من أهمّ مقاصد الشّريعة بعد تبليغها إقامتها وحراستها وتنفيذها. ولذلك لزم إقامة علماء للشّريعة لقصد تبليغها وإقامتها، قال تعالى:" فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ " [115]، وفي الحديث أنّ رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم قال لبني ليث حين وردوا عليه " فَارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ فَأَقِيمُوا فِيهِمْ وَعَلِّمُوهُمْ ..." [116] [117].

وثانيهما: على السّلطة السّياسيّة أن تلتزم بالأحكام التي يقرّرها علماء الأمّة الموثّقين في شأنها العام، قطعا مع إشكاليّة: على من تقع مسؤوليّة الإصلاح: العلماء أم الأمراء، أو بعبارة أخرى: من هو وليّ الأمر الواجب طاعته، فيقول رحمه الله تعالى:" ... وإنّما أمرهم الله بطاعة أولي الأمر وهم أهل العلم عند ابن عبّاس ومجاهد وجابر بن زيد والضّحّاك، وهو اختيار مالك بن أنس. وإنّ حظّ الأمراء في الإسلام هو تنفيذ ما يراه العلماء وتحقيق مواقعه، ألا ترى إلى قول النّبيء عليه السّلام:" إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ " ، وقوله:" لاَ طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ ". وهل يميّز المعروف من المنكر والطّاعة من المعصية إلاّ العلماء، فهم المسؤولون عن الأمّة والذين بيدهم تيسير الأمور وقد قال النّبيء صلّى الله عليه وسلّم:"

---

[114] محمّد الطّاهر ابن عاشور.أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام. ط: 3. نشر مشترك دار سحنون للنّشر والتّوزيع. دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة. تونس. س: 1431 هـ - 2010 م. ص220.

[115] التّوبة 123.

[116] البخاري. شرح ابن حجر العسقلاني. " فتح الباري بشرح صحيح البخاري ". كتاب الأذان رقم 10. باب رقم 18. الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة. حديث رقم (631). دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع. بيروت. ط: 1. س: 1415 هـ - 1995 م.(2/ 321). و صحيح مسلم بشرح النّووي. كتاب رقم 5 المساجد ومواضع الصّلاة. رقم (674). ط: 1. دار الكتب العلميّة. بيروت. 1415 هـ - 1995م. (5/ 148) وغيرهما.

[117] محمّد الطّاهر ابن عاشور. أليس الصّبح بقريب؟ ط: 3. نشر مشترك: دار سحنون للنّشر والتّوزيع. دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة. س: 1431 هـ - 2010 م. ص 215.

كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ فَالْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ..." ولم يجعل العلماء رعاة للأمّة ولا مسؤولين عن الرّعيّة لأنّهم مرجع يرجع إليهم الرّاعون " [118].

ولقد لفت انتباهي أنّ الشّيخ ابن عاشور جعل الفقرة ـ التي أشرت إليها آنفا ـ آخر كتابه " أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام "، وكأنّه يلخّص بذلك مشروعه الإصلاحي المجتمعي ويبعثها رسالة واضحة مفادها أنّ الاجتماع لا يحصل إلاّ بالعلم، وأنّ الأمّة ــ إذا أرادت تجاوز كوارثها ـ لا بدّ أن تساس بأهل العلم، الذين أطلق عليهم صفة **"الطّائفة المباركة** "في آخر فقرة من كتابه "**أليس الصّبح بقريب؟**"[119]كما على السّاسة أن يلتزموا بما يقرّره علماء الأمّة الموثّقون.

ولأنّ الشّيخ يرى أنّ تغيير نظام الحياة في أيّ من أنحاء العالم يتطلّب تبدّل الأفكار والقيم العقليّة، فقد كان شديد الوعي بأنّ العلم هو طريق ذلك العمل الضّخم، وأنّ هذا يتطلّب بالضّرورة أن يتقدّم أهل العلم إلى هذه المهمّة شريطة أن يكونوا مستقلّين مُتحرّرين بعيدين من تدخّل رجال السّياسة في عملهم العلمي. تماما كما كان وضع مالك بن أنس مع أبي جعفر المنصور ثمّ الرّشيد من بعده حين همّا ان يختارا مذهب الامام مالك رحمه الله و كتابه الموطّا قانوناً قضائياً للدّولة العبّاسيّة فرفض مالك ونهاهما عن ذلك وقال: "إنّ أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم اختلفوا فى الفروع، وتفرّقوا فى البلدان ". [120] ولذا فإنّ الإمام يعتبر هذا الأمر شرط أساسيّ للنّهضة تماما كما فعل مفكّرو الغرب في صراعهم مع السّياسيّين، ولذلك نوّه الشّيخ بقولة رئيس مجمع ترقية العلوم البريطاني سنة 1904:" يجب نزع الحوائل السّياسيّة التي تقف في سبيل العلم. ذلك السّبب الحقيقي الذي يضعف رجال العلم ولا يجعل لهم صوتا تسمعه الأمّة أو تبالي به الحكومة "[121]. كما نوّه أيضا بما حدث من انتصار العلم على السّاسة بحادثة وقعت في فرنسا، وهو يتحسّر ألما وتمنّيا أن ينتصر هو وأهل العلم على السّاسة الذين تحكّموا في كلّ شيء، فقال رحمه الله تعالى:" وقد

---

[118] الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور. مقاصد الشّريعة الإسلاميّة. ط: 1. الشّركة التّونسيّة للتّوزيع. س: 1392هـ - 1978 م . تونس. ص 193.

[119] محمّد الطّاهر ابن عاشور. أليس الصّبح بقريب؟ نشر مشترك: دار سحنون للنّشر والتّوزيع. دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة. ط: 3. س: 1431 هـ - 2010 م. ص 215.

حفظ التّاريخ العصري أوّل مرّة انتصر فيها العلم على الحكومة في فرنسا وذلك أنّ الحكومة طلبت من مجلس الأمّة هدم صرح (إيفل) الشّهير القائم في باريس لأنّ الذّوق الجديد استقبح منظره ولأنّه يشغل مكانا فسيحا قد كان ثمنه يفيد إدارة بلديّة المدينة فائدة جمّة فما كاد المجلس يصادق على ذلك حتّى قام بعض أعضاء جمعيّة العلوم وطلب بلسان علم الفلك إبقاء الصّرح الذي يفيد ارتفاعه الأرصاد الفلكيّة وبعد حروب لسانيّة انتصر العلم على السّياسة سنة 1906. ليت لنا ألسنة في سالف الزّمان تنادي بنصر العلم ولكن ما مضى فات ".[122].

إنّ تشخيص الشّيخ لوضع الأمّة وكشفه لإخلالاتها وكوارثها يدلّ على وعيه العميق بالواقع الاجتماعي والسّياسي الذي يحياه، كما يدلّ على فهم دقيق لنصوص الشّرع واستقراء لأحوال البلد وأهلها، وعن خبرة للأمور وتجربة من العصور، وعن شدّة مرارة المكابدة التي يعانيها عالم يرى أمّته تعرض عن الحلّ وتضلّ باتّخاذها دعاة الضّلالة أيمّة وتتنكّر لأهل العلم الصّالحين المصلحين.

إنّ عمليّة الإصلاح لا بدّ أن تنطلق من الدّين، لأنّه الحتميّة الشّرعيّة والقدريّة الوحيدة الباقية بعد فشل جميع الإيديولوجيّات والطّروحات الفكريّة، وإنّ العلماء الرّاسخين في العلم هم المكلّفون بالسّهر على عمليّة الإصلاح بأمر الله الشّرعي وبأمره القدري، ولكن على قواعد شرعيّة معتبرة توازنيّة بين فقهين مطلوبين لكلّ عمل تغييريّ جادّ **يراعي فقه الواقع وفقه الشّرع**، ممّا يعين على الإصلاح بالواجب المقدور عليه لحفظ " الحياة القوميّة " ومميّزات شخصيّتنا الدّينيّة، مع وضع الخطط التي تضبط مراحل ولكلّ مرحلة أولويّتها الدّينيّة، مع وضع الخطط التي تضبط مراحل ولكلّ مرحلة أولويّتها في توافق تامّ بين رجل الحكم وأهل العلم، قال الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور رحمه الله تعالى:" هذا ما عرض لنا ممّا يتأكّد رعيه في إصلاح الحالة العلميّة التي يحفظ بها قوام حياتنا القوميّة وبقاء مميّزاتنا،

---

[120] الأصبهاني. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع. 1399 هـ - 1979 م. بيروت. ص 332. وصحّحه الألباني في صفة صلاة النّبيّ ﷺ من التّكبير إلى التّسليم كأنك تراها. ط: مكتبة المعارف للنّشر والتّوزيع. الرّياض. ص:62.

[121] مصدّق الجليدي. روّاد الإصلاح التّربويّ في تونس. دار سحر للنّشر. تونس. شوّال 1430هـ - أكتوبر2009. تونس. ص.119

[122] نفسه.

وتلك آراء أوْضحتها لنا التّجربة وما تخلَّصناه من الاستقراء لأحوال العلم وأهله، ولعلّ الله تعالى يمنح هاته **الطّائفة المباركة** روحا من عنده تجمع كلمتهم على رأب ثأي التّعليم، ولمّ شعثهم لمقاومة الخطر العظيم، وعساه أن يوقظ أعين أولي الأمر منهم إلى دعوة صالحة ويُلقي إليهم كلمة رابحة تحشر إليهم طوائف العلم فتلتف حواليهم وتصغي قلوبهم وأسماعهم إليهم ألا وهي كلمة التواصي بالحق التي أهملها ناس كثير فهم بإهمالها يعذّبون وما يعذّبون في كبير "[123].

وأحسب أنّ العلماء الذين يقصدهم الشّيخ هم العلماء الذين يتوصّلون بمعرفة الواقع والتّفقّه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله، كما ذكر ابن القيّم [124].

---

[123] الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور. أليس الصّبح بقريب؟ نشر مشترك: دار سحنون للنّشر والتّوزيع. دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة. ط 3 . 1431 هـ - 2010 م. ص 215.

[124] ابن قيّم الجوزيّة. مدارج السّالكين بين منازل إيّاك نعبد وإيّاك نستعين. دار الكتاب العربي.بيروت. س: 1416 هـ - 1996م. (1/ 88).

الفصل الثّاني: لماذا الإصلاح؟

المبحث الأوّل: من أين يبدأ الإصلاح؟

المبحث الثّاني: الاصلاح بين العقدي والسّياسي

لماذا الإصلاح؟

قضيّة إصلاح المجتمعات الإسلاميّة من أهمّ وأخطر القضايا في حياتنا، يهتمّ بها كلّ مهموم بتقدّم شعبه وأمّته، وهي المسألة التي شغلت الإنسان منذ فجر التّاريخ. لذلك تناولت دراسات الإصلاح في مجالاته المختلفة: الاجتماعي والسّياسي والدّيني والتّعليمي والاقتصادي والعسكري والإداري وكلّ القضايا التي تهمّ الإنسان، حتّى صار الحديث عن الإصلاح جزءًا من إستراتيجيّة السّياسات الدّوليّة، وصار من أهمّ الملفّات طرحا بكثافة في العالم، وهو من المصطلحات الأكثر تداولا وشيوعا، خاصّة بعد سقوط الحكم الجائر وانطلاق موجات " الحرّيّة " التي بدأت تجتاح بلاد العرب والمسلمين.

فما هي مبرّرات طرح مسألة الإصلاح بشدّة هذه الآونة؟ وأين موقع الإصلاح من اهتمامات السّلطة والمثقّفين والجمهور؟ وهل هو تحدٍّ مفروض من الخارج أم هو مطلب داخلي؟ أم باتت عمليّة الإصلاح ضرورة ملحّة وصار الخيار الوحيد المتاح بين البقاء والعدم؟ فلماذا الإصلاح إذن؟

وللإجابة على هذه الأسئلة المشروعة لا بدّ أن نوضّح:

1 أنّ الإصلاح خاصّيّة هذه الأمّة الثّابتة على الحقّ، الحارسة لأمانة الله في الأرض، الشّاهدة بعهده على النّاس. والإصلاح أيضا هو من طبيعة هذا الدّين، بل هو من أَوْكَدِ مهامّه، وإنّ تسمية هذا الدّين بـ" الإسلام " يوحي بكلّ وضوح أنّ طبيعة هذا الدّين بسط السّلام " الإلهيّ " العادل، وهذا الهدف يستدعي عمليّة إصلاح شاملة مستمرّة. ثمّ إنّ كون هذا الدّين هو الخاتم له دلالة واضحة تفيد أنّ الصّلاح مقتصر على هذا المنهج دون غيره. ذلك أنّ العقيدة الإسلاميّة ليست مجرّد مشاعر و تصوّرات بل هي مع ذلك " عقيدة دافعة مُحْيِية موقظة رافعة مستعلية، تدفع إلى الحركة لتحقيق مدلولها العمليّ فور استقرارها في القلب والعقل...، فما أن تستقرّ حقيقة الإيمان في قلب المسلم إلاّ و يتحرّك و يعمل من أجل هذا الدّين، و لا يقف عند حدّ صلاح ذاته، فالصّلاح يقتضي الإصلاح، و هذا ما فعله المسلمون الأوائل، فصنع الله بهم أدواراً عميقة الآثار في الوجود الإنسانيّ و في التّاريخ

البشريّ كلّه. قال تعالى: " و مِمَّنْ خَلَقْنآ أُمَّةٌ يَهْدونَ بِالحَقِّ و بِهِ يَعْدِلونَ " [125]. يقول سيّد قطب: " إنّ صفة هذه الأمّة ـ التي لا ينقطع وجودها من الأرض أيّاً كان عددها ـ أنّهم " يَهْدونَ بِالحَقِّ " ... فهم دعاة إلى الحقّ، لا يسكتون عن الدّعوة به، و إليه، و لا يتقوقعون على أنفسهم، ولا ينزوون بالحقّ الذي يعرفونه، و لكنّهم يهدون به غيرهم، فلهم قيادة فيمن حولهم من الضّالّين .. ولهم عمل إيجابيّ لا يقتصر على معرفة الحقّ، إنّما يتجاوزه إلى الهداية به، والدّعوة إليه والقيادة باسمه " [126]. وقال الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور:" ... النّهوض بأعباء الأمانة التي وكُلت إليهم وهي أمانة إصلاح التّفكير وإعلان الحقّ بين النّاس " [127].

إنّ أمّة تنهض فتدفع الفساد هي أمّة ناجية لا يأخذها الله بالعذاب والتّدمير، أمّا إن آثرت الواقع الفاسد فلم تستنكر فإنّ سنّة الله تحقّ عليها، إمّا بهلاك الاستئصال، و إمّا بهلاك الانحلال، فلا قُدِّسَتْ أمّة لا يأخذ فيها الضّعيف حقّه غَيْرَ مُتَعْتَعٍ. قال تعالى: "وَ مَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القُرىٰ بِظُلْمٍ و أَهْلُها مُصْلِحُونَ " [128].

2 –لأنّ الإصلاح من أوجب الواجبات المركزيّة ومن أبرز الفرائض المهمّة التي ينبغي أن تخوض الأمّة غماره، ويستحقّ النّزولِ إلى ميدانه، اهتماما وبحثا وحلولا، فهو الوسيلة الوحيدة لاجتماع المسلمين ووحدتهم وقوّتهم، كما هي أيضا السّبيل الأعظم للتّغيير والتّطوير، إذ ليس لنا إلاّ نصلح أوضاعنا حتّى نكون أو لا نكون، بل هي الخاصّيّة العظمى للأمّة بعد إيمانها بالله "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ " [129]. وفي الحديث:" إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ، أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابِهِ " [130]. كما اعتبر الشّارع الكريم أنّ ترك الإصلاح يؤذن بدمار من تخلّى عن القيام به: " مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا [131]

---

[125] الأعراف 181.
[126] سيّد قطب. في ظلال القرآن. ط: الخامسة عشرة. 1408 هـ - 1988 م. دار الشّروق. القاهرة. المجلّد الثّالث (9/ 1403).
[127] أصول النظام الاجتماعي في الإسلام. ط. 3. 1431 هـ - 2010 م. نشر مشترك دار سحنون للنّشر والتّوزيع. دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة. ط . 3 . س: 1431 هـ - 2010 م. تونس. ص 25.
[128] هود 117.
[129] آل عمران .110
[130] مسند أحمد. ط:2. المكتب الإسلامي. بيروت. س: 1400هـ - 1980 م. (1 / 21).
[131] قوله: (استهموا سفينة) أي اقترعوها، فأخذ كلّ واحد منهم سهماً، أي نصيباً من السّفينة بالقرعة.

عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ، مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعاً، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا " [132]. وفي قوله صلّى الله عليه وسلّم: "كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤول عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ ومَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، – قَالَ: وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ: وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ – وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ " [133].

3 الإصلاح هو أفضل الطّرق في مواجهة التّخلّف واستمرار صلاح الإنسان وحفظ نظام الأمّة، وهذا من أهمّ المقاصد التي وضعها الشّرع الحكيم، قال الشّيخ محمّد الطّاهر بن عاشور رحمه الله تعالى:" إذا نحن استقرينا موارد الشّريعة الدّالّة على مقاصدها من التّشريع استبان لنا من كلّيّات دلائلها ومن جزئيّاتها المستقرّة أنّ المقصد العامّ من التّشريع فيها هو حفظ نظام الأمّة واستدامة صلاحه بصلاح المهيمن عليه، وهو نوع الإنسان " [134] ... ثمّ يقول ـ رحمه الله ـ بعد استعراض ستّة عشرة آية من القرآن: " ومن عموم هذه الأدلّة حصل لنا اليقين بأنّ الشّريعة متطلّبة لجلب المصالح ودرأ المفاسد معتبرا ذلك قاعدة كلّيّة ومقصدا أعظما "... ثمّ يقول: " وقد استشعر الفقهاء في الدّين كلّهم هذا المعنى في خصوص صلاح الأفراد، ولم يتطرّقوا إلى بيانه وإثباته في صلاح المجموع العامّ، ولكنّهم لا ينكر أحد منهم أنّه إذا كان صلاح حال الأفراد وانتظام أمورهم مقصد الشّريعة، فإنّ صلاح المجموع وانتظام أمر الجامعة أسمى وأعظم... وهل يقصد إصلاح البعض إلاّ لإصلاح الكلّ ". [135].

---

[132] البخاري. شرح ابن حجر العسقلاني. " فتح الباري بشرح صحيح البخاري ". كتاب الشّهادات. رقم 52. باب رقم 30. القرعة في المشكلات. حديث رقم (2686). ط: 1. دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع. بيروت. س: 1415 هـ - 1995 م.(5/ 630).

[133] صحيح مسلم بشرح النّووي. كتاب 33 الإمارة. ط: 1. دار الكتب العلميّة. بيروت. 1415 هـ - 1995 م. (12 /179). رقم 1829.

[134] ابن عاشور محمّد الطّاهر. مقاصد الشّريعة. أو مقصد حفظ نظام الأمّة: مقاربة مقاصديّة بقلم د. عليان بوزيان. مجلّة المسلم المعاصر. العدد 140. الأحد. 20 محرّم 1433 هـ - 18 ديسمبر 2011. ص 190.

[135] نفسه.

4 الإصلاح الإسلامي ليس وسيلة، بل هو هدف، وهو أيضا سبيل قويّ لآستبانة سبيل التّيّارات المنحرفة المتستّرة بشعار الإصلاح، ولا يتمّ ذلك إلاّ بالغوص نقدا ونقضا لأصولها الفكريّة والعقديّة والمنهجيّة لأنّ تلك المناهج الباطلةَ تسقط بسقوطِ أصولها التي تقوم عليها.

5 إنّ الإصلاح أمر ضروري وحتميّ لأيّ أمّة تطمح في التّقدّم إلى الأمام والنّهضة بشأنها العام والخاصّ. وإنّ أمّة استخلفها الله تعالى الأرض، وتحمّلت أمانة الصّلاح والإصلاح والشّهادة على النّاس لجديرة أن ينصبّ همّها على الإصلاح إذ لا يمكن أن تكون إلاّ كذلك ولا تكون كذلك إلاّ بالإصلاح، إذ به تحقّق الأمّة خيريّتها، وتحصل عزّتها وترفع مرتبتها بين الأمم، قال تعالى:"كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ" [136]. وقال أيضا:" وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا "[137].

6 إنّ خسارة كبرى لا تحصل للأمّة فحسب، بل للبشريّة جمعاء إن لم يقم المسلمون برسالتهم الإصلاحيّة، ذلك أنّ الإنسان في هذا العالم المتمدّن ضيّع رسالة الأنبياء والأخلاق الفاضلة والمبادئ السّامية فانحصرت اهتماماته في المادّة واللّذّة والإيمان بهذه الحياة فحسب، وأصبحت الحياة ومطالبها همّه وشغله الشّاغل، وضيّع توازنه واعتداله في الجمع بين الدّين والآخرة، والوصل بين الرّوح والقلب والجسد، والجمع بينها بوسط واعتدال يحقّق بلا منازع مدنيّة سليمة صالحة نافعة، لأنّ كلّ مدنيّة ما هي في الحقيقة إلاّ انعكاس لعقيدة القوم وتربيتهم، فإذا كان فيهم نقص في عقيدتهم أو في تربيتهم عاد ذلك النّقص في مدنيّتهم، وتضخّم وظهر في مظاهر كثيرة، وفي أشكال متنوّعة واضطرابات خطيرة. لذلك تعدّدت النّصوص التي تضخّ الأمّة بشحنات الأمانة والمسؤوليّة وتحضّها على الشّهادة على النّاس جميعا، لتنقذ بشريّة تائهة في حضارة هشّة مضعضعة، وصدق أبو الحسن النّدوي في عنوان مؤلّفه المهمّ: " ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ ".

---

136) آل عمران 110.
137) البقرة 142.

7 واقع التّخلّف والتّراجع الحضاري الذي تعيشه الأمّة، يفرض على طليعتها طرح الإصلاح كخيار مصيري للقطع مع الإخفاقات التّاريخيّة المتتالية على بلاد المسلمين طيلة المراحل السّابقة ولما ترتّب على ذلك من مآسي وآلام وإخفاقات وإحباط. كما يلزم على أئمّة العلم أن يقودوا عمليّة الإصلاح الداخليّ ليواكب " الإسلام الإصلاحي" الزّمن الجديد والواقع المتغيّر والتّفقّه فيه وفهم تحوّلاته للتّوصّل إلى معرفة حكم الله ورسوله.

8 جعل الله الإصلاح سبباً لدفع العقوبات العامّة ورفعها، ذلك أنّ ترك هذه الشّعيرة العظيمة يعدّ

من أهمّ أسباب وقوع العقوبات الخاصّة والعامة ورفعها، قال الله تعالى:" فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ " [138]. وقال سبحانه:" وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ " [139]. وقال أيضا: " لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ " [140].

---

[138] هود 116.
[139] هود 117.
[140] المائدة 80 – 81

المبحث الأوّل

من أين يبدأ الإصلاح؟

اتّفق المصلحون المسلمون على أنّ التّغيير يتمحور حول الإصلاح الدّيني العقدي، وحجّتهم في ذلك أنّ نماذج الإصلاح من الأنبياء انطلقت حركتهم الإصلاحيّة عقائديّة فكريّة تربويّة، قال تعالى:" وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ " [141]. وقال أيضا: " وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ " [142]. وفي قصص الأنبياء المتعاقبة يذكر الله سبحانه أنّ كلّ نبيّ قد قال لقومه أوّل ما قال:" اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ "[143] . ذلك لأنّ الإصلاح الشّرعي السّليم لا بدّ أن يقوم على أساس عقدي صحيح، وبهذا وجّه الله تعالى رسله. قالت الصّدّيقة بنت الصّدّيق عائشة رضي الله عنها:" إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنْ الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ لَقَالُوا لَا نَدَعُ الْخَمْرَ أَبَدًا وَلَوْ نَزَلَ لَا تَزْنُوا لَقَالُوا لَا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ بَلْ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ " [144].

إنّ أوّل شيء دعا إليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الموحى إليه من ربّه، تصحيح عقائد النّاس، وتفريغ ما في أذهانهم من عقائد وأخلاق وعقليّة جاهليّة، وتعويضها بمعاني الإسلام. وقد مكث النّبيّ في مكّة المكرّمة بعد بعثته ثلاث عشرة سنة يدعو النّاس لتصحيح وترسيخ

---

[141] النّحل 36.
[142] الأنبياء 25.
[143] الأعراف 64.
[144] البخاري. شرح ابن حجر العسقلاني. " فتح الباري بشرح صحيح البخاري ". كتاب فضائل القرآن 66. باب تأليف القرآن. رقم 6. حديث رقم (4993). دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع. بيروت. ط: 1. س: 1415 هـ - 1995 م. (10/ 46).

ذلـك الأمـر في عقـولهم وقلـوبهم، مكـرّرا قولـه:"يَا أَيُّهـا النَّـاسُ قُولُـوا لاَ إِلَـهَ إِلَّا اللَّهُ تُفلِحُـوا" [145] ولم تنـزل عليـه الفـرائض ولا التّشـريعات إلاّ في المدينـة النّبويّـة، وهـو دليـل واضـح علـى أنّـه لا إصـلاح أبـدا إلاّ بصـحّة العقيـدة وسـلامتها، وهـذا السّـبيل نفسـه الـذي سـلكه كـلّ الأنبيـاء والرّسـل علـيهم السّـلام ومـن سـبقهمومن خلفهـم ـ في تسلسـل تـاريخيّ ـ عـالجوا موضـوعا واحـدا متّصـلا ممتـدّا، وهـو بنـاء العقيـدة، وبـذلك أمـر الله محمّـدا صـلّى الله عليـه وسـلّم ودعـاه أن يقتـدي بهـم، ذكـر تسـعة عشـر نبيّـاً رسـولاً وآخـرين مـن " آبَـائِهِمْ وَذُرِّيَّـاتِهِمْ وَإِخْـوَانِهِمْ "، فقـال سـبحانه وتعـالى:" الَّـذِينَ آمَنُـوا وَلَمْ يَلْبِسُـوا إِيمَـانَهُم بِظُلْـمٍ أُولَٰئِـكَ لَهُـمُ الْأَمْـنُ وَهُـم مُّهْتَـدُونَ . وَتِلْـكَ حُجَّتُنَـا آتَيْنَاهَـا إِبْـرَاهِيمَ عَلَـىٰ قَوْمِـهِ نَرْفَـعُ دَرَجَـاتٍ مَـنْ نَشَـاءُ إِنَّ رَبَّـكَ حَكِـيمٌ عَلِـيمٌ. وَوَهَبْنَـا لَـهُ إِسْـحَاقَ وَيَعْقُـوبَ كُـلًّا هَـدَيْنَا وَنُوحًـا هَـدَيْنَا مِـنْ قَبْـلُ وَمِـنْ ذُرِّيَّتِـهِ دَاوُودَ وَسُـلَيْمَانَ وَأَيُّـوب وَيُوسُـفَ وَمُوسَـىٰ وَهَـارُونَ وَكَـذَٰلِكَ نَجْـزِي الْمُحْسِـنِينَ . وَزَكَرِيَّـا وَيَحْـيَىٰ وَعِيسَـىٰ وَإِلْيَـاسَ كُـلٌّ مِـنَ الصَّـالِحِينَ . وَإِسْمَاعِيـلَ وَالْيَسَـعَ وَيُـونُسَ وَلُوطًـا وَكُـلًّا فَضَّـلْنَا عَلَـى الْعَـالَمِينَ . وَمِـنْ آبَـائِهِمْ وَذُرِّيَّـاتِهِمْ وَإِخْـوَانِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَـاهُمْ وَهَـدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِـرَاطٍ مُّسْـتَقِيمٍ ذَٰلِـكَ هُـدَى ٱللَّهِ يَهْـدِي بِـهِ مَـن يَشَـآءُ مِـنْ عِبَـادِهِ وَلَـوْ أَشْـرَكُواْ لَحَـبِطَ عَـنْهُمْ مَّـا كَـانُواْ يَعْمَلُـونَ أُولَٰئِـكَ الَّـذِينَ آتَيْنَـاهُمُ الْكِتَـابَ وَالْحُكْـمَ وَالنُّبُـوَّةَ فَـإِن يَكْفُـرْ بِهَـا هَٰـؤُلَاءِ فَقَـدْ وَكَّلْنَـا بِهَـا قَوْمًـا لَّيْسُـوا بِهَـا بِكَـافِرِينَ . أُولَٰئِـكَ الَّـذِينَ هَـدَى اللَّهُ فَبِهُـدَاهُمُ اقْتَـدِهْ قُـل لَّا أَسْـأَلُكُمْ عَلَيْـهِ أَجْـرًا إِنْ هُـوَ إِلَّا ذِكْـرَىٰ لِلْعَـالَمِينَ " [146]. فبـدأ تعـالى في هـذه الآيـات البيّنـات بالتّمسّـك بالعقيـدة ابتـداء، وبـيّن ـ مـع فضـل ذلـك الـرّهط الكـريم مـن الأنبيـاء والرّسـل رغـم علـوّ شـأنهم وقيـادتهم موكـب الإيمـان ـ أنّهـم لـو خلّطـوا إيمـانهم شـركاً بـالله تعـالى في اعتقـاد أو عبـادة أو تلقّـي هـدى، لحبطـت أعمـالهم، ثمّ ختـم بآتّبـاع مـنهجهم. وعلـى هـذا السّـبيل سـار السّـلف، قـال مالـك:" وَلَا يُصْـلِحُ آخِـرَ هَـذِهِ الأُمَّـةِ إِلاَّ مَـا أَصْلَحَ أَوَّلَهَا "[147]. وقال أحد الحكماء:

ما لم تك العقيدة أصلاً راسخـا للعابدين فكلّ فرع فاسـد

---

[145] صـحيح ابـن حبّـان. تحقيـق: شـعيب الأرنـؤوط. ط: 2. مؤسّسـة الرّسـالة. بيـروت. س: 1414هـ - 1494 م. رقـم: 6562. وابـن حجـر العسـقلاني. الإصـابة فـي تمييـز الصّـحابة. ط: 1. دار إحيـاء التّـراث العربـي. بيـروت. س: 1328هـ - 1907 م. وعلـي بـن أبـي بكر الهيثمي. مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد. مؤسّسة المعارف. بيروت. س: 1406هـ - 1986 م. (3 /465).

[146] الأنعام. 83 – 91.

[147] القاضـي عيـاض اليحصـبي " الشّـفا بتعريـف حقـوق المصـطفى ". ط. دار ابـن رجـب. مصـر . (2/98- 99). و ابـن تيميّـة « اقتضاء الصّراط المستقيم ». ط:1. مكتبة الرّشد. الرّياض. س: 1404 هـ - 1983 م . (2/ 762 - 763).

أرأيت بنيانًا تطـاول أهلــه في رفعه والأسّ هار هامــد

لقــد أمضــى الرّســول صــلّى الله عليــه وســلّم حياتــه يــدعو إلى العقيــدة السّــليمة والتّوحيــد الخـالص، وجاهـد أعـداءه مـن أجلهـا، حـتّى قـال صـلّى الله عليـه وسـلّم:" " أُمِـرْتُ أَنْ أُقَاتِـلَ النَّـاسَ حَـتَّى يَقولـوُا لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ، فَـإِذَا قَالُوهـاَ، وَصَـلّوا صَـلاَتَنَا وَاسْـتَقْبَلُوا قِبْلَتَنَـا وَذَبَحُـوا ذَبِيحَتَنَـاَ فَقَـدْ حُرِّمَـتْ عَلَيْنَـا دِمَـاؤُهَمْ وَأَمْـوَالُهُمْ إِلاَّ بِحَقِّهَـا وَحِسَـابُهُمْ عَلَـى اللهِ " [148]. كمـا أمـر أصـحابه أن يسـلكوا هـذا السّـبيل بشـكل واضـح لا مواربـة فيـه، فعـن ابـن عبّـا س أنّ معـاذا قـال: " بَعَثَـنِي رَسُـولُ اللَّهِ صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ قَـالَ إِنَّـكَ تَـأْتِي قَوْمًـا مِـنْ أَهْـلِ الْكِتَـابِ فَـادْعُهُمْ إِلَى شَـهَادَةِ أَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُـولُ اللَّهِ فَـإِنْ هُـمْ أَطَـاعُوا لِـذَلِكَ فَـأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَـرَضَ عَلَـيْهِمْ خَمْـسَ صَـلَوَاتٍ فِي كُـلِّ يَـوْمٍ وَلَيْلَـةٍ فَـإِنْ هُـمْ أَطَـاعُوا لِـذَلِكَ فَـأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَـرَضَ عَلَـيْهِمْ صَـدَقَةً تُؤْخَـذُ مِـنْ أَغْنِيَـائِهِمْ فَتُـرَدُّ فِي فُقَـرَائِهِمْ فَـإِنْ هُـمْ أَطَـاعُوا لِـذَلِكَ فَإِيَّـاكَ وَكَـرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ "[149].

ولقـد اسـتمرّت الأمّـة علـى ذلـك النّسـق العقـدي في الإصـلاح طيلـة القـرون، إلى القـرنين الماضـيين حيـث شـهدت ألوانـا مـن تجـارب الإصـلاح الـدّيني لا تكـاد تحصـى، فمـن إصـلاح " حركـة الموحّـدين" مـع محمّـد بـن عبـد الوهّـاب (1791 م) و عبـد الحميـد بـن بـاديس (1940 م) رائـد النّهضـة الإسـلاميّة في الجزائـر و عـلال الفاسـي (1974 م) ، إلى حركـة الإصلاح الاجتهادي المقصادي مع الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور رحمهم الله جميعا.

وكانـت كـلّ هـذه الحركـات إرهاصـات ومخاضـات تمهّـد لـولادة كـبرى تُعـدّ لهـا حضّـرها قـوانين شـرعيّة وكونيّـة لعالمنـا الإسـلامي. هـذا، ولـئن اختلفـت تلـك التّجـارب في ضـبط أولويّاتهـا الحركيّة إلاّ أنّ مرجعيّتهم الإصلاحيّة اتّفقت على أصلين اثنين أساسيّين وهما:

1 إصـلاح الـنّفس بـالعلم: إنّ المتأمّـل في النّصـوص الشّـرعيّة والسّـنن الكونيّـة سـوف يتـيقّن أنّ إصلاح الواقع هو ثمرة إصلاح النّفس، وأنّ إصلاح النّفس هو أصل وأساس إصلاح

---

[148] البخـاري. شـرح ابـن حجـر العسـقلاني. " فـتح البـاري بشـرح صـحيح البخـاري ". كتـاب الصـلاة 8. بـاب اسـتقبال القبلـة يسـتقبل بـاطراف رجليـه القبلـة. رقـم 28. حـديث رقـم (392). دار الفكـر للطّباعـة والنّشـر والتّوزيـع. بيـروت. ط: 1. س: 1415 هـ - 1995 م.(2/ 53).

[149] صـحيح مسـلم بشـرح النّـووي. كتـاب الإيمـان. 1. رقـم (19). ط: 1. دار الكتـب العلميّـة. بيـروت. 1415 هـ - 1995م. (175/1 - 176).

الواقع، لأنّ تغيير الواقع متوقّف على تغيير النّفس، فبداية التّغيير من داخل الإنسان نفسه، ونتيجة التّغيير وثمرته من الله تعالى، ودليله قوله تعالى:" إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ " [150]. وفي الصّحيحين:" أَلاَ إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلَّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ " [151]. ولأنّ العلم هو أصل كلّ خير وهدي وكمال ونجاة، قال ابن القيّم:" يُعْرض للسّالك معاطب ومهالك لا ينجيه منها إلاّ بصيرة العلم " [152]. وقال أيضا:" حظوظ النّفس لا يميّزها إلاّ من رسخ في العلم بالله وأمره وعرف صفات النّفس وأحوالها " [153]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال يوما لأصحابه:" تَصَدَّقُوا ! فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عِنْدِي دِينَارٌ ! قَالَ: تَصَدَّقْ بِهِ عَلَى نَفْسِكَ. قَالَ: عِنْدِي آخَرُ ! قَالَ: تَصَدَّقْ بِهِ عَلَى زَوْجَتِكَ. قَالَ: عِنْدِي آخَرُ ! قَالَ: تَصَدَّقْ بِهِ عَلَى وَلَدِكَ! قَالَ: عِنْدِي آخَرُ ! قَالَ: تَصَدَّقْ بِهِ عَلَى خَادِمِكَ ! قَالَ: عِنْدِي آخَرُ ! قَالَ: أَنْتَ أَبْصَرُ " [154].

2 إصلاح النّفس بالعلم والعقل بالعقيدة والمجتمع بالشّريعة:

إنّ إصلاح النّفس لا يمكن أن يتحقّق إلاّ عبر إصلاح العقل وتحرير الفكر عبر سلامة الاعتقاد، ولهذا جعل الإسلام إصلاحَ التّفكيرِ هو الأساس لكلّ إصلاح سواء كان إصلاحا دينيّاً أو اجتماعيّاً أو سياسيّاً، فكان أوّل ما نزل من توجيه في رسم منهج الإصلاح قوله تعالى:" إِقْرَأْ "! وهذا أعظم دليل على أنّه إذا أردنا أن ندخل الدّورة الحضاريّة من جديد ينبغي أن يكون عبر إصلاح عقديّ فكريّ فنصحّح الانحرافات العقديّة والفكريّة قبل تصحيح أيّ مجال آخر، لأنّه متى سلمت العقيدة سلمت توابعها. يقول الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور:" قال الحكيم: الإنسان عقل تخدمه أعضاء". فإصلاح المخدوم هو

---

[150] الرّعد 11

[151] البخاري. شرح ابن حجر العسقلاني. " فتح الباري بشرح صحيح البخاري ". كتاب الإيمان 2. باب رقم 39.فضل من استبرأ لدينه. حديث رقم (52). دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع. بيروت. لبنان. ط: 1. س: 1415 هـ - 1995 م.(1/ 172). و صحيح مسلم بشرح النّووي. كتاب رقم 22 المساقاة. رقم (1599). ط: 1. دار الكتب العلميّة. بيروت. 1415 هـ - 1995 م.(22/11 - 23).

[152] ابن القيّم. " مدارج السّالكين بين منازل إيّاك نعبد وإيّاك نستعين ". ط: 2. دار العلم للملايين. بيروت. 1399 هـ - 1979 م. (1 / 160).

[153] نفسه. (1/ 509).

[154] الألباني. صحيح التّرغيب والتّرهيب للحافظ المنذري. ط: 1. مكتبة المعارف. بيروت. س: 1421هـ - 2000 م. رقم 1958 م. و صحيح ابن حبّان. ط: 2. مؤسّسة الرّسالة. بيروت. س: 1414هـ - 1969 م. رقم 3337 .

مـلاك إصـلاح خادمـه. فإصـلاح عقـل الإنسـان هـو أسـاس إصـلاح جميـع خصـاله، ويجـيء الاشـتغال بإصـلاح أعمالـه، وعلـي هـذين الإصـلاحين مـدار قـوانين المجتمـع الإسـلامي. وفي صـحيح مسـلم عـن أبي عمـرة الثّقفـي أنّـه قـال: قلـت: يـا رسـول الله، قـل لي في الإسـلام قـولاً لا أسـأل عنـه أحـداً غـيرك، قـال: " قُـلْ آمَنْـتُ بِـاللهِ ثُمَّ اسْـتَقِمْ ".[155] فجمـع لـه في قولـه:" قُـلْ آمَنْـتُ بِـاللهِ " معـاني صـلاح الاعتقـاد، وفي قولـه: " اسْـتَقِمْ " [156] وقـال أيضـا:" ... وكـان إصـلاح الاعتقـاد أهـمّ مـا ابتـدأ بـه الإسـلام وأكثـر مـا تعـرّض لـه، وذلـك لأنّ إصـلاح الفكـرة هـو مبـدأ كـلّ إصـلاح، ولأنّـه لا يُرْجَـى صـلاحٌ لقـوم تلطّخـت عقـولهم بالعقائـد الضّـالّة وخسـئت نفوسـهم بآثـار تلـك العقائـد المثـيرة خوفـا مـن لا شـيء وطمعـا في غـير شـيء. وإذا صلُح الاعتقاد أمكن صلاح الباقي، لأنّ المرء إنسان بروحه لا بجسمه "[157].

3 إصلاح المجتمع بالشّريعة:

لا يخفـى أنّ الإسـلام عقيـدة وشـريعة ومـنهج حيـاة ودين ودولـة دعـا إلى تحقيـق الأخـوّة بـين المسـلمين والحريَّـة وتقريـر حـقِّ الحيـاة والملـك والحركـة والعلـم والأمـن والعدالـة والمسـاواة بـين كافّـة أفـراد المجتمـع ورعايـة مصـالح أفـراده وحفـظ الأنفـس والأمـوال العامّـة والخاصّـة وحفـظ الأعـراض وتـوفير الشّـغل والكرامـة وتـأمين الصّـحّة والنّقـل والطّريـق، ونشـر الطّمأنينـة فيـه واسـتقرار الدّولـة والمجتمـع وتأكيـد وحـدة الأمَّـة والقضـاء علـى كـلِّ مظـاهر الفرقـة وأسـبابها وسـدّ كـلّ أبـواب الفسـاد كافـة، والتّشـدّد في محاربـة الجـرائم الأصـليَّة وإحيـاء " واجـب الحسـبة " ليـأمن المجتمـع مـن الإنحـراف العـام والخـاص، فيُراقـب المجتمـعُ نفسـه كمـا يُراقـب كـلّ أجهـزة الدّولـة، أضـف إلى ذلـك قـانون عـادل وقضـاء صـارم يُنفّـذ علـى الجميـع دون تمييـز ، ثمّ أضـف إلى ذلـك أيضـا إقامـة الرّقيـب الـدّاخلي " الـورع " ... أليسـت كـلّ هـذه المسـائل هـي مـن أوامـر الشّـريعة ومـن

---

[155] صـحيح مسـلم. ط:1. دار إحيـاء الكتـب العربيّـة. س: 1374هـ - 1952 م .رقـم: 3005. و صـحيح ابـن حبّـان. تحقيـق: شـعيب الأرنـؤوط. ط: 2 مؤسّسـة الرّسـالة. بيـروت. س: 1414هـ - 1494 م. رقـم: 942. و محمّد ناصـر الـدّين الألبـاني. صـحيح الجـامع الصّـغير وزيادتـه. ط: 3. المكتـب الإسـلامي. بيـروت. س: 1408هـ - 1988 م. رقـم 4395. والألبـاني أيضـا. صـحيح التّرمـذي. ط: 1. مكتب التّربية العربي لدول الخليج. الرّياض. س: 1408هـ - 1988 م. رقم 2410.

[156] الإمـام محمّد الطّـاهر ابـن عاشـور. أصـول النّظـام الاجتمـاعي فـي الإسـلام. نشـر مشـترك دار سـحنون للنّشـر والتّوزيـع. دار السّـلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة. ط: 3. سنة: 1431 هـ - 2010 م. تونس. ص 41.

[157] تفسـير الآيـة 19 مـن سـورة آل عمـران" إِنَّ الـدِّينَ عِنْـدَ اللَّهِ الْإِسْـلَامُ ". التّحريـر والتّنـوير. ط: الـدّار التّونسـيّة للنّشـر. س:1404 هـ - 1984 م. (3 / 194).

مطالبها الأساسيّة والجوهريّة ؟ ثمّ ألا يؤثّر تطبيقها في إصلاح المجتمع ؟

من أجل ذلك لخّص الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور . رحمه الله تعالى . في مقدّمة تفسيره مقاصد القرآن، أنّه لا يصلحُ أمر المجتمعات ودنياهم إلاّ بالعقيدة والشّريعة، فقال ـ رحمه الله ـ :" المقاصد الأصليّة التي جاء القرآن لتبيانها بحسب ما بلغ إليه استقراؤنا ثمانية أمور: الأوّل: إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصّحيح. وهذا أعظم سبب لإصلاح الخلق، لأنّه يزيل عن النّفس عادة الإذعان لغير ما قام عليه الدّليل، ويطهّر القلب من الأوهام النّاشئة عن الإشراك... الثّاني: بسط العقيدة في سياسة الأمّة بالشّريعة وسيادة الأمّة وشهادتها على النّاس" [158]. وفي هذا يتّفق الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور . رحمه الله تعالى . مع الإمام محمّد بن عبد الوهّاب . رحمه الله تعالى . . وقال علي الماوردي [159]: " الدِّين أقوى قاعدة في صلاح الدّنيا واستقامتها، وأجدى الأمور نفعًا في انتظامها وسلامتها، ولذلك لم يُخل الله تعالى خلقَه مذْ فطرهم عقلاء من تكليف شرعي، واعتقاد ديني ينقادون لحكمه، فلا تختلف بهم الآراء، ويستسلمون لأمره؛ فلا تتصرّف بهم الأهواء " [160].

---

[158] ابن عاشور. التّحرير والتّنوير. ط: الدّار التّونسيّة للنّشر . تونس. س: 1404 هـ - 1984 م. (1/ 39 – 41).

[159] الإمام العلاّمة، أقضى قضاة عصرهأبو الحسن علي بن محمّد بن حبيب البصري الماوردي الشّافعي (364 - 450 هـ / 974 - 1058 م) صاحب النّصانيف الشّهيرة منها:"أدب الدّنيا والدّين " و " الأحكام السّلطانيّة " و " الحاوي " في فقه الشّافعيّة في نيف وعشرين جزءا... انظر إلى " الاعلام قاموس تراجم لأشهر الرّجال والنّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين". خير الدّين الزّركلي ط: 9 .1400 هـ - 1980 م. دار العلم للملايين بيروت. (4 / 327).

[160] الإمام الماوردي. أدب الدّنيا والدِّين. دار مكتبة الحياة. بيروت. س: 1406 هـ - 1986م. ص 12.

المبحث الثّاني

الإصلاح بين العقدي والسّياسي

لا يفهم من هذا المبحث أنّنا نفصل بين الدّين والسّياسة، لأنّنا نعتقد أنّ الإسلام دين ودولة، عقيدة وشريعة، وهذا مُقرّر بإجماع أهل العلم الذين جعلوا السّياسة الشّرعيّة جزء أصيلا من الشّريعة الإسلاميّة، والعقيدة الإسلاميّة هي أساس الفكر السّياسي عند المسلمين، إذ السّياسة فرع من العقيدة وتبع لها، وليست أصلا فيه. فيكون الإسلام بذلك منهجا متكاملا ضابطا للحياة من حيث الاعتقاد والتّصوّر والسّلوك، كما أنّنا نعتقد أنّ السّياسة ينبغي أن تكون خادمة للدّين ومحقّقة لمصالحه وكلّيّاته الشّرعيّة الخمس بحفظ الدّين والنّفس والعقل والنّسل والمال.

وإنّ العمل الإصلاحي الإسلامي من البديهي أن ينطلق في المجتمعات الإسلاميّة من عقيدتها، غير أنّ هذه المسألة صارت ـ منذ الاتّصال بالأوروبي في النّصف الثّاني من القرن الثّامن عشر ـ (معضلة) حين بدأ تأثيره الثّقافي والسّياسي والعسكري على بلاد المسلمين. فكانت تلك " المعضلة " أولويّة ملحّة ينبغي تفكيك ما أحدثته من تشابك وتخليصها من الغموض والالتباس، علّنا ندقّق أوضاعا ذهنيّة مشتركة ونحرّر مدلولات فكريّة توافقيّة. وهذه " المعضلة " تقول: من أين نبدأ في عمليّة الإصلاح؟ هل الأولويّة أن ننطلق من العقدي أم من السّياسي؟ ولأيّ منهما تكون الأولويّة عند المزاحمة والموازنة؟ وسأحاول الإجابة عن هذه المعضلة باختصار رغم أنّها صارت مفرق طريق بين التّيّارات العاملة في السّاحة الإسلاميّة.

إنّ الإنسان منذ فجر التّاريخ لم يستغن عن العقيدة، ولن يستغني عنها مهما تطوّرت حياته، ذلك أنّ حاجته إلى العقيدة أمر فطريّ ثابت لا يتغيّر ولا يزول، وقد يجد الباحث في تاريخ البشريّة مدنا بلا حصون أو قصور أو مدارس، ولكن لم تخل من عقائد أو معابد، قال تعالى:" فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ

ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ " [161]. ذلك لما للعقيدة على مستوى الفرد من أثر كبير في تربيته واستقامته وتوازنه وتحصينه عن الجزع والاضطراب، ومنحه قوّة وتحمّلا وثباتا وصبرًا وأملاً ورجاء، أمّا على مستوى المجتمع، فلأنّها تضمن توفير قواعد العدل والمساواة والأمن بين النّاس.

غير أنّ الإسلام يعتبر العقيدة أصلا والسّياسة فرعا عنها. كما أنّ الكيان السّياسي للإسلام لم يتجسّد في أرض المدينة النّبويّة إلاّ بعدما تمّ البناء العقدي المتين في مكّة المكرّمة. ولأنّ الإسلام بناء " بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ .." [162]. فقد أسّسه على بناء قويّ متين متماسك، فإذا كان بناء مسكن بسيط يستدعي أن يقام على فرش أعظم قوّة وأشدّ تماسكا، فكيف يكون الحال في بناء حضاري؟ لا شكّ أن تؤسّس على عقيدة متينة خالصة، وهذا عين الذي فعله النّبي صلّى الله عليه وسلّم، وهو ما لاحظه أبو سفيان وهو ينكّل بالصّحابة ويسومهم سوء العذاب، ورأى من تضحياتهم بأنفسهم فداء للرّسول صلّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّمَ، ممّا يستبعد أن تصنع أيديولوجية أو مذهب أو سياسة ما تصنعه العقيدة، ولذلك قال أبو سفيان [163] في جاهليته:" مَا رَأَيْتُ مِنَ النَّاسِ أَحَدًا يُحِبُّ أَحَدًا كَحُبِّ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا " [164]. وفي الصّحيح:"... فَرَجَعَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ ـ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَةِ ـ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ:" أَيْ قَوْمِ وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحَمَّدًا " [165].

ولا شكّ أنّ هذا الحبّ والفداء يكشف بعمق متانة العمل العقديّ الذي بناه الرّسول صلّى

---

161) الرّوم 29.

[162] البخاري. شرح ابن حجر العسقلاني. " فتح الباري بشرح صحيح البخاري ". كتاب الإيمان 2. باب دُاوُكم إيمانكم. رقم 2. حديث رقم (8). دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع. بيروت. لبنان. ط: 1. س: 1415 هـ - 1995 م. (1/ 72) و صحيح مسلم بشرح النّووي. كتاب الإيمان. 1. رقم (5). ط: 1. دار الكتب العلميّة. بيروت. 1415 هـ - 1995 م. (1/175 - 158). وصحيح ابن حبّان. تحقيق شعيب الأرنؤوط. ط: 2. مؤسّسة الرّسالة. بيروت. س: 1414هـ - 1994 م. رقم 4872.

[163] أبو سفيان وهو صخر بن حرب بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف الأموي القرشي الكناني. (57 ق.هـ / 567م - 31 هـ / 652 م) سيد قبائل قريش وكنانة وأحد أشراف العرب وساداتهم في الجاهليّة وصدر الإسلام. أسلم يوم فتح مكّة.وأبلى بعد إسلامه بلاء حسنا وتوفّي بالمدينة وقيل بالشّام. انظر إلى الاعلام قاموس تراجم لأشهر الرّجال والنّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. خير الدّين الزّركلي. ط: 9. س: 1400هـ - 1980. دار العلم للملايين بيروت. (3/ 201).

[164] السّيرة النّبويّة (ابن هشام): تحقيق طه عبد الرّؤف سعد. عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري. ط: 1. دار الجيل. سنة: 1411 هـ - 1990 م. بيروت.

[165] صحيح البخاري. ط: 1. المكتبة السّلفيّة. القاهرة. مصر. س: 1400هـ - 1980 م. رقم: 2731.

الله عليه وسلّم في أصحابه. أليس حبّ النّبيّ من ثوابت الإيمان:" ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ "[166]. ولذلك جعل الإمام البُخاري ـ رحمه الله تعالى . بابا في كتاب الإيمان في صحيحه سمّاه: بَاب حُبُّ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْإِيمَانِ، وأورد هذا الحديث في هذا الموضع فحسب، وهو قوله صلّى الله عليه وسلّم:" فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ "[167]. ولذلك جعل الإمام النّسائي هذا الحديث في باب علامة الإيمان. والعقيدة الإسلاميّة ليست مسألة منعزلة عن واقع الحياة، بل هي القوّة المحرّكة الدّافعة لها، ذلك أنّ غرضها الأكبر هو إصلاح دنيا البشريّة بأسرها وإصلاح آخرتهم أيضا، والعمل على تحقيق خلافة الأرض وعمارتها، إذ لا تنمية مادّية وحضاريّة بدون إنسان مُنمّى عقائديّا وروحيّا وأخلاقيّا، فتكون العقيدة إذن هي المقوّم الأساس لمؤهّلات النّجاح في الحياة الدّنيا فضلا عن الأخرى.

ولأنّ مهمّة السّياسة هي رعاية شؤون النّاس وتدبير أمورهم وتأمين حياة كريمة لهم، فإنّ الله عزّ وجلّ ما أنزل الكتب و ما أرسل الرّسل إلاّ لتحقيق تلك المصالح، قال صلّى الله عليه وسلّم: "كَانَتْ بَنِو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ ..." [168]. ومن ثمّ يمكن أن نقرّر أنّ العقيدة الإسلامية هي عقيدة روحيّة اجتماعيّة سياسيّة.

وإذا تقرّر أنّ العقيدة تستهدف تنظيم سيرة البشر في معاشهم، فإنّه لا بدّ من أن ينطلق السّياسي ـ إذا أراد صوابا لأطروحاته وصحّة لخياراته ـ من عقيدة صحيحة خالصة، قال الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور:" لم يزل علماء الاجتماع يعدُّون من أكبر أسباب النّهوض

---

[166] البخاري. شرح ابن حجر العسقلاني. " فتح الباري بشرح صحيح البخاري ". كتاب الإيمان 2. باب حلاوة الإيمان. رقم 9. حديث رقم (16). دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع. بيروت. ط: 1. س: 1415 هـ - 1995 م. (1/ 86).

[167] البخاري. شرح ابن حجر العسقلاني. " فتح الباري بشرح صحيح البخاري ". كتاب الإيمان 2. باب حُبُّ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْإِيمَانِ. رقم 8. حديث رقم 14. دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع. بيروت. ط: 1. س: 1415 هـ - 1995 م.(1/ 84).

[168] صحيح البُخاري. ط: 1. المكتبة السّلفيّة. القاهرة. مصر. س: 1400 هـ - 1980 م. رقم(3455). و صحيح مسلم. ط: 1. دار إحياء الكتب العربيّة. س: 1374 هـ - 1954. رقم (1842).

والسّقوط حالة الدّين والعقيدة، والقرآن قد شهد بذلك ونبّه إليه من قبل فقد وجدت شاهِدَيْن لذلك فيه: أوّلهما قوله تعالى:" وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ " [169] أي صدّها عن حصول العلم النّافع عبادتها الشّمس فكانت بذلك الاعتقاد منصرفة عن الكمال العلمي والرّشد الفكري واستكمال الحضارة الصّحيحة. وثانيهما قوله تعالى:" فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ " [170]. فجعل لحال اعتقادهم أثرا في زيادة هلاكهم أي التّسبّب فيه، وليس ذلك من فعل الآلهة، إذ الآلهة لا تصدر منها أفعال تنفع أو تضرّ، وإنّما الذي يضرّ هو التّعاليم المؤثّرة في نفوس أتباعهم من الاعتماد على أوهام باطلة لا تلائم نظم العمران في هذا العالم فلا تلبث تعاليمها أن تصادم ما تقتضيه نواميس العمران الحقّة فيجيء الهلاك سريعا، لأنّ أعمال النّاس في هذا العالم إنّما تتمثّل على مثال فكرهم وعقولهم "[171].

وإذا نظرنا إلى هذا المبحث من زاوية التّرتيب في أحكام الشّريعة، فقد أطال إمام المقاصديّين أبو إسحاق الشّاطبي [172] في أمر ما نزل في مكّة من أحكام فجعله مقدّما على ما نزل في المدينة، فقال: " إنّ المنزّل بمكّة من أحكام الشّريعة هو ما كان من الأحكام الكلّيّة والقواعد الأصوليّة في الدّين على غالب الأمر"[173]، وقال أيضا:" إنّ المدنيّ من السّور ينبغي أن يكون منزّلا في الفهم على المكّي"[174]. هذا وإن كانت هذه النّصوص مناط بحثها يتعلّق بترتيب آي وسور القرآن الكريم، ولكنّه أيضا يشمل الأحكام والقضايا التي تناولتهما.

ونظرا إلى أنّ عقيدة الإسلام تتميّز بخصائص تميّزه من ربّانية وثبات ووسط ووضوح وفطريّة

---

[169] النّمل 43 - 44.
[170] هود .101
[171] الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور. أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام. نشر مشترك دار سحنون للنّشر والتّوزيع. دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة. ط . 3 . سنة 1431 هـ - 2010 م. تونس. ص 7 – 8.
[172] هو إبراهيم بن موسى بن محمد اللّخمي الأندلسي، وكنيته أبو إسحاق، ولقب شهرته الشّاطبي. (720 هـ - 790 هـ / 1319 م - 1388م) هو من أشهر علماء الأندلس والعالم الإسلامي. ولد سنة 720 هـ، 1319 م توفّي سنة 790 هجري، الموافق 1388 ميلادي. ألّف أنبل الكثير من الكتب لم يطبع منها إلاّ القليل. ففي أصول الشّريعة طبع: كتاب الاعتصام في أهل البدع والضلالات، و كتاب الموافقات في أصول الشريعة. انظر إلى الاعلام قاموس تراجم لأشهر الرّجال والنّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدّين الزّركلي ط: 9 . 1400 هـ - 1980 م. دار العلم للملايين بيروت.(1 / 75).
[173] أبو إسحاق الشّاطبي.الموافقات. ط:1. دار ابن القيّم و دار بن عفّان. س: 1424هـ - 2003 م. السّعودية. (3/ 338).
[174] نفس المصدر.(4 / 256).

وتـوازن روحـي ومـادّيّ وتعـارف إنسـانيّ وعـدل شـامل ومسـاواة ورحمـة ومعادلـة بـين المصـلحة العامّـة والمصـلحة الخاصّـة، وتقـديم مصـلحة المجمـوع علـى مصـلحة الفـرد، فإنّهـا تكـون مرشّـحة لتحقيـق مصـالح العبـاد، وإنّـه بقـدر مـا يكـون السّياسـي متشـبّعا بتلـك العقيـدة المتميّـزة بتلـك العقيـدة المتميّـزة بخصائصـها، تكـون قراراتـه مصـيبة للحـقّ ومحقّقـة للعـدل، لأنّ خيـارات السّاسـة وبـرامجهم ومخطّطـاتهم هـي آثـار لأفكـارهم وعقائـدهم، قـال الشّـيخ محمّـد الطّـاهر ابـن عاشـور: " ... أعمـال النّـاس في هـذا العـالم إنّمـا تتمثّـل علـى مثـال فكـرهم وعقـولهم وأخلاقهـم ... " [175].

ونظـرا لصـفاء فكـر وعقـول أهـل العلـم، فقـد ألـزم العلاّمـة ابـن عاشـور رجـال الحكـم أن ينفّـذوا مـا تقـرّره المرجعيّـة الشّـرعيّة مـن أحكـام وتشـريعات وسياسـات، إذا أرادوا أن يحقّقـوا الأهـداف النّبيلـة، فقـال رحمـه الله تعـالى:"... وإنّمـا أمـرهم الله بطاعـة أولي الأمـر وهـم أهـل العلـم عنـد ابـن عبّـاس ومجاهـد وجـابر بـن زيـد والضّـحّاك، وهـو اختيـار مالـك بـن أنـس. وإنّ حـظّ الأمـراء في الإسـلام هـو تنفيـذ مـا يـراه العلمـاء وتحقيـق مواقعـه، ألا تـرى إلى قـول النّـبيء عليـه السّـلام:" إِنَّمَا الطَّاعَـةُ فِي المَعْـرُوفِ" [176]، وقولـه:" لاَ طَاعَـةَ لِمَخْلُـوقٍ فِي مَعْصِـيَةِ الخَـالِقِ " [177] وهـل يميّـز المعـروف مـن المنكـر والطّاعـة مـن المعصـية إلاّ العلمـاء، فهـم المسـؤولون عـن الأمّـة والـذين بيـدهم تيسـير الأمـور وقـد قـال النّـبيء صـلّى الله عليـه وسـلّم:" كُلُّكُـمْ رَاعٍ وَمَسْـئُولٌ عَـنْ رَعِيَّتِـهِ فَالْإِمَـامُ رَاعٍ وَمَسْـئُولٌ عَـنْ رَعِيَّتِـهِ ..." [178] ولم يجعـل العلمـاء رعـاة للأمّـة ولا مسـؤولين عـن الرّعيّـة لأنّهم مرجع يرجع إليهم الرّاعون " [179].

إنّ جعـل الأولويّـة العقديّـة في العمـل الإصـلاحي هـو سـبيل الأنبيـاء عليـهم السّـلام فلـم تكـن

---

[175] الإمـام محمّد الطّـاهر ابـن عاشـور. أصـول النّظـام الاجتمـاعي فـي الإسـلام. نشـر مشـترك دار سـحنون للنّشـر والتّوزيـع. دار السّـلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة. ط . 3 . سنة 1431 هـ - 2010 م. تونس. ص 7 – 8.

[176] صـحيح مسـلم بشـرح النّـووي. كتـاب الإمـارة. 33. رقـم (1840). ط: 1. دار الكتـب العلميّـة. بيـروت. 1415 هـ - 1995 م.(191/12).

[177] صـحيح الجـامع الصّـغير. محمّد ناصـر الـدّين الألبـاني. ط: 3. المكتـب الإسـلامي. بيـروت. لبنـان. س: 1408هـ - 1988 م . رقـم 7520. و السّـيل الجـرّار المتـدفّق علـى حـدائق الأزهـار. محمّد بـن علـي الشّـوكاني. دار الكتـب العلميّـة. بيـروت. ط: 1. س: 1405 هـ - 1985 م.(55/2). و ابـن حجـر العسـقلاني. هدايـة الـرّواة إلـى تخـريج أحاديـث المصـابيح و المشـكاة. ط: 1. دار ابـن القـيّم. الـدّمّام السّـعوديّة. س: 1422 هـ - 2001 م. (4/ 447). والمعجـم الأوسـط للطّبرانـي. ط: 1. دار الحـرمين. القـاهرة. مصـر. س: 1415 هـ - 1995م.(181/4). وغيرهم....

[178] سنن الترمذي. كتاب الجهاد عن رسول الله ﷺ. باب ما جاء لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

[179] محمّد الطّـاهر ابـن عاشـور. أصـول النّظـام الاجتمـاعي فـي الإسـلام. ط: نشـر مشـترك دار سـحنون للنّشـر والتّوزيـع. دار السّـلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة. ط. 3. س: 1431 هـ - 2010 م. تونس. ص: 220.

لهم قضيّة مركزيّة غيرها، إلاّ أنّهم قد نبّهوا إلى مقتضياتها دونها من مسائل اجتماعيّة أو سياسيّة أو اقتصاديّة أو أخلاقيّة، وجعلوها فروعا تبعا للأصل الأوّل وهي قضيّة العقيدة.

فهذا شعيب ـ مثلا ـ فقد نبّه قومه على العقيدة أوّلا، ثمّ ثنّى بالتّنبيه على الكيل والميزان ثانيا. قال تعالى:" وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ " [180]. وعليه فكلّ إصلاح لا يعتمد على العقيدة فهو ليس من سبيل المؤمنين، قال تعالى: " قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ " [181]. وإنّه من الخطإ الأكبر أن يُتصوّر أنّه بالعمل السّياسي وحده يتحقّق العمل الإصلاحي، ومن هذا المنطلق رفض الرّسول صلّى الله عليه وسلّم أن يتسلّم السّلطة من أهل قريش وقد عرضوها عليه، والقوم لم يتهيّؤوا له عقائديّا بعد.

ولأنّ العقيدة ضروريّة لكلّ عمل وفعل إنسانيّ، قدّم الله تعالى الإيمان في خمس و خمسين مرّة على عمل الصّالحات " الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ " ذلك أنّ كلّ عمل سلوكيّ لا بدّ له من رصيد قلبي يضخّ السّلوك بآعتبار أنّ الإيمان ينبوع عقديّ صاف ينبثق منه العمران.

ولأنّ المسألة الحيويّة والأساسيّة لكلّ جماعة سياسيّة ـ سواء كانت معارضة أو حاكمة ـ هي مسألة المشروعيّة، فإنّ الهمّ الأساسي لكلّ منها، هو اكتساب شرعيّة تعبويّة لها، فتسعى جاهدة في اختلاق عقيدة لها تخدم وجودها وبقاءها واستمرارها، ويتأكّد هذا الأمر بالأخصّ على كلّ سلطة سياسيّة حاكمة، لإدراكها أنّه لا بقاء لها ولا دوام لسلطة على أساس القوّة فحسب، بل لا بدّ لها من أساس عقائديّ أو إيديولوجي يكسبها مشروعيّة سياسيّة وأخلاقيّة تحوّل حزبه حقّا وزعيمه مقدّسا، قال جان جاك روسو في (العقد الاجتماعي) حيث يقول:" ليس للأقوى ما يكفي من القوّة ليكون دائماً هو السّيّد إن

---

[180] هود 83 - 85.
[181] يوسف 108.

لم يحوّل قوّته إلى حقّ، وطاعته إلى واجب " [182].

ولقد كان الإسلام كنظام عقائديّ سياسيّ أسبق نظام كونيّ في إحداث تغيير هيكليّ جذريّ للمجتمعات الجاهليّة، كما سبق قيام دولته الدّينيّة " النّموذج " في المدينة

النّبويّة، ممّا يبرهن على قدرة الإسلام على إنارة البشريّة بنظرة شاملة للوجود، ورسالة للحياة والإنسان والمجتمع والعمل والثّروة والسّلطة في تصوّر ديني متفرّد ومتكامل ومعتدل، غيّرت وجه التّاريخ البشريّ كلّه، فأسقطت أمامه كلّ الإمبراطوريات، وحرّرت شعوبها من طواغيتهم، وحقّقت الأمن والعدل بينها، وأقام نظاما عقائديّا سياسيّا في توازن فريد. وهو لا يزال قادرا على تحرير الأمّة الإسلاميّة وإنهاضها من جديد.

لقد أجاب الشّيخ ابن عاشور . رحمه الله . بشكل واضح وصريح بشكل لم يسبقه فيه أحد، على "المعضلة " التي تلاقيها الحركة الإسلاميّة الإصلاحية المعاصرة في عملها الإصلاحي، والتي لا يزال المسلمون يختلفون حولها، وهي: من أين يبدأ الإصلاح هل بالعقيدة أم بالسّياسة؟ يجيب الشّيخ محمّد الطاّهر ابن عاشور في " التّحرير والتّنوير" فقال: "... واعتذر هارون عن بقائه بين القوم بقوله" إِنِّي خَشِيتُ أن تَقُولَ فَرَّقْتَ " أي أن تظنّ ذلك بي فتقوله لوْماً وتحميلاً لتبعة الفرقة الّتي ظنّ أنّها واقعة لا محالة إذا أظهر هارون غضبه عليهم لأنّه يستتبعه طائفة من الثّابتين على الإيمان، ويخالفهم الجمهور فيقع انشقاق بين القوم وربّما اقتتلوا، فرأى من المصلحة أن يُظهر الرّضى عن فعلهم ليهدأ الجمهور ويصبر المؤمنون اقتداء بهارون، ورأى في سلوك هذه السّياسة تحقيقاً لقول موسى له " وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ". [183] وهو الذي أشار إليه هنا بقوله " ولَمْ تَرْقُب قَوْلِي "، فهو من جملة حكاية قول موسى الذي قدّره هارون في ظنّه. وهذا اجتهاد منه في سياسة الأمّة إذ تعارضت عنده مصلحتان مصلحة حفظ العقيدة ومصلحة حفظ الجامعة من الهرج. وفي أثنائها حفظ الأنفس والأموال والأخوّة بين الأمّة فرجّح الثّانية، وإنّما رجّحها لأنّه رآها أدوم. فإنّ مصلحة حفظ العقيدة يُستدرك فواتُها الوقتيُّ برجوع موسى وإبطاله عبادة العجل

---

[182] روسو. العقد الاجتماعي. الفصل 3 في حقّ الأقوى. دار القلم. بيروت. س:1393هـ - 1973 م. ص 39.
[183] الأعراف 142

حيث غيوا عكوفهم على العجل برجوع موسى، بخلاف مصلحة حفظ الأنفس والأموال واجتماع الكلمة إذا انثلمت عسر تداركها. وتضمّن هذا قوله " إِنِّي خَشِيتُ أن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بني إسرائيلَ ولَمْ تَرْقُب قَوْلِي "[184]، وكان اجتهاده ذلك مرجوحاً لأنّ حفظ الأصل الأصيل للشّريعة أهمّ من حفظ الأصول المتفرّعة عليه، لأنّ مصلحة صلاح الاعتقاد هي أمّ المصالح التي بها صلاح الاجتماع، كما بيّنّاه في كتاب « أصول نظام الاجتماع الإسلامي » . ولذلك لم يكن موسى خَافياً عليه أنّ هارون كان من واجبه أن يتركهم وضلالهم وأن يلتحق بأخيه مع علمه بما يُفضي إلى ذلك من الاختلاف بينهم، فإنّ حرمة الشّريعة بحفظ أصولها وعدم التّساهل فيها، وبحرمة الشّريعة يبقى نفوذها في الأمّة والعملُ بها كما بيّنته في كتاب « مقاصد الشّريعة » [185].

وأحسب أنّ ما تفتّق به ذهن الشّيخ رحمه الله تعالى من طرح " المعضلة "، والتّفطّن إلى ذلك " الحسم " ـ أو قل ذلك الفتح الرّبّاني . في الإجابة، لم يأت من فراغ، بل جاء نتيجة تجربة وتأمّل ومكابدة وتحمّل لآلام الأمّة وآمالها، فاختار أن يدافع عن صفاء العقيدة ويستميت عليها، ويعاند في نقض الباطل ويقاوم لتتجاوز الأمّة انحطاط العالم الإسلامي وانحلاله. كما يكشف عن حدّة الصّراع الفكري والسّياسي الحاصل في عهده، والذي انطلق منذ بداية تحسّس العالم الإسلامي سبيل النّهضة في أواسط القرن الثّامن عشر الميلادي من خلال محاولة اقتباس حركة الإصلاح ما كان سببا في نهضة أوروبا، ولكن على عقيدة إسلاميّة خالصة وفهم عميق للدّين.

كما أحسب أيضا أنّ ذلك السّبق في وضوح تلك الرّؤيا جاء نتيجة عصارة رجل متألّم من هيجان الشّعارات البرّاقة المخادعة التي بدأ العلمانيّون ومحترفو السّياسة يستقدمونها إلى بلدنا و يطرحونها، كمناداتهم بالوحدة الوطنيّة على حساب العقيدة، فصرخ بما اختمر في ذهنه الصّافي ساخرا من ذلك الغثاء، وهو موقن من أنّه لا وحدة وطنيّة بدون عقيدة جامعة، لا تعارض العقل ولا تناقض الفطرة.

---

[184] طه 92.

[185] محمّد الطّاهر ابن عاشور. التّحرير والتّنوير. ط: دار سحنون. تونس:1418 هـ - 1997 م. انظر تفسيره للآية رقم 91 من سورة طه.(17 / 292 - 294).

إنّ السّياسة فرع من الدّين والعقيدة أصل الدّين كلّه، فكيف نبدأ بالفرع ونترك الأصل؟ إنّ تقديم ما يُسمّى المصالح السّياسيّة على مبادئ العقيدة يُهدّد العقيدة بدون شكّ، فكم من

جماعة إسلاميّة انطلقت عقائديّة وانتهت علمانيّة لمّا انغمست في السّياسة وتخفّفت من المبادئ، ومن الأمثلة التي تؤكّد هذه الحقيقة حزب الاستقلال بالمغرب.

إنّ إجابة الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور تزيل إشكال إعادة طرح السّؤال مرّة أخرى: هل العقيدة أوّلا أم السّياسة، ليظهر بعد ذلك بكلّ جلاء أنّ التّشكيك في أولويّة العقيدة لا ينبغي أن يطرح داخل الدّائرة الإسلاميّة.

الفصل الثّالث

العمل الإصلاحي عند الإمامين
ابن عبد الوهّاب وابن عاشور

المبحث الأوّل: الإصلاح عند الإمام محمّد بن عبد الوّهاب

المبحث الثّاني: الإصلاح عند الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور

المبحث الثّالث: جوانب الاتّفاق والاختلاف بين الإمامين

المبحث الأوّل

الإصلاح عند محمّد بن عبد الوّهاب

أوّلا: تعريف موجز بالشّيخ الإمام محمّد بن عبد الوهّاب ـ رحمه الله ـ

وُلد الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب بن سليمان بن على بن محمّد بن أحمد بن راشد التّميمي النّجدي – زعيم النّهضة الدّينيّة الإصلاحيّة الحديثة في جزيرة العرب – سنة 1115 هجرية الموافق عام 1703 ميلادي – في بلدة العيينة، الواقعة شمال الرّياض. نشأ رحمه الله تعالى في أسرة علم فأبوه كان قاضيا وجدّه هو العلاّمة القاضي سليمان بن علي. حفظ الشّيخُ القرآن قبل بلوغه عشر سنين، وقرأ على أبيه في الفقه، وسافر إلى مكّة والمدينة لتحصيل المزيد من العلم عبر منهج التّلقّي عن مشايخه، والتقى بالعديد من العلماء، ودرس على يد عدّة مشايخ سيأتي الحديث بعد هذا التّعريف الموجز، ثم توجّه إلى الإحساء فأخذ عن شيوخها، وزار البصرة وبغداد، حيث اطلّع على علوم التصوف وفلسفة الاشراق، وأنكر على كثير من العلماء ما سمعه من العلوم التي لا تتفق من وجهة نظره مع مفهوم الإسلام، وشرع في الدعوة إلى العودة إلى الإسلام كما فهمه العرب الأوائل، وأظهر للنّاس أنّ الواجب على جميع المسلمين أن يأخذوا دينهم عن كتاب الله وسنّة رسول الله عليه الصّلاة والسّلام، وناقش وذاكر، وناظر في ذلك العلماء. ثمّ قدم حريملاء ـ وهي قرية تتبع مدينة الرّياض ـ في عام 1140 هجري الموافق لسنة 1729 ميلادي، واستقرّ هناك ولم يزل مشتغلا بالعلم والتّعليم والدّعوة في حريملاء حتّى مات والده في عام 1153 هجريّة الموافق لسنة 1742 ميلادي حيث انقلب عليه بعض أهلها وهمّوا بالفتك به، فخرج الشّيخ للعيينة واستقرّ بها،

ثمّ أُطرد منها لأنّه هدم القباب وأقام الحدود، فخرج إلى بلاد الدّرعيّة، فنزل على شخص من خيارها، ثمّ التقى بزوجة محمّد بن سعود أمير الدّرعيّة [186] حيث قرّبت بينهما وتحالفا وحقّقا معا وحدة بلاد الحجاز.

توفّي الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب رحمه الله تعالى في العيينة عام 1206 هجري الموافق لسنة 1791 ميلادي. ألّف كتبا عديدة سنتعرّض لها في حينها، وترك طلبة كثيرين، له ستّة أبناء وابنة واحدة.[187]

ثانيا: البنية الفكريّة للإمام محمّد بن عبد الوهّاب ـ رحمه الله ـ :

إنّ أيّ إنتاج فكري لكلّ إنسان إنّما هو نتاج مجموعة من العوامل المؤثّرة في شخصيّة ذلك الكائن البشريّ، وبالتّتبّع والاستقراء ثبت أنّ من أهمّ عوامل الوسط الأسري والدّيني والثّقافي الذي ينشأ فيه ذلك المرء، أضف إلى ذلك الخبرات والتّجارب الشّخصيّة له، ثمّ ما يعكسه المحيط السّياسي المحلّي والإقليمي والدّولي الذي يتكيّف معه ويتفاعل به. ولقد اجتمعت كلّ هذه العناصر في صقل شخصيّة ابن عبد الوهّاب، وفي صناعة أفكاره، كما أسهمت في ضخّ حركته الإصلاحيّة بشحنات قويّة ساعدتْه على القيام بعمليّة الإصلاح في الجزيرة العربيّة. وهذه هي أبرز تلك الرّوافد:

ـ ولد محمّد بن عبد الوهّاب ونشأ في عُيينة وهي مدينة بدويّة صغيرة بسيطة هادئة، وكانت إمارة في منطقة مستقرّة، فلم تكن عيينة بادية أو صحراء قاحلة، كما أنّ أهلها ليسوا بدوا رحّلا كما يراد أن يربط بين حركة محمّد بن عبد الوهّاب والبيئة التي نشأ فيها، لأنّ قريته كانت على صلة وثيقة بالحجاز والعراق. هذا، ولئن كانت عيينة تخضع للدّولة العثمانيّة، غير أنّها لم تكن هناك حامية عثمانيّة لنجد، وأقرب حامية عثمانيّة لها كانت

---

[186] محمّد بن سعود بن محمد آل مُقْرِن (توفّي في عام 1179 هـ - 1765 م). مؤسّس الدّولة السّعوديّة الأولى أو بما يسمّى إمارة الدّرعيّة (المنطقة الوسطى بجانب مدينة الرّياض العاصمة الحاليّة) حيث انطلق منها محمّد بن سعود من مدينة الدّرعيّة. التقى به محمّد بن عبد الوهّاب. وتوافقا على كثير من الأمور واتّفقا على إقامة دولة تقيم الشّرع. كتاب الاعلام قاموس تراجم لأشهر الرّجال والنّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. خير الدّين الزّركلي ط: 9. 1400 هـ - 1980 م. دار العلم للملايين. بيروت.(7 / 107).

[187] نفس المصدر. ص 257.

بالإحساء، وكانت منطقته شبه منسيّة، لأنّ إدارتها كانت تابعة للبصرة، المرتبطة ببغداد المتمتّعة بشيء من حكم ذاتي.

ـ تلقّى محمّد ابن عبد الوهّاب من البيئة التي عاش فيها، والمحيط الذي تنقَّل في جَنَبَاته مجموعة من الصّفات الفكريّة والقِيَم الخُلُقيّة التي رشّحته أن يكون عالما وهيّأته أن يصير مصلحا، كما أنّ الوضع المالي الجيّد لأسرته أعانه على صرف جُلِّ وقته والتّفرّغ إلى رفع همّته لتحقيق طموحه في طلب العلم، حتّى أنّه تفوّق على آبائه وأجداده وسائر علماء نجد. فقد ولد ابن عبد الوهّاب في قبيلة تميم التي كانت بيئة علم وعلماء، ونشأ في أسرة علم عريق ووجاهة مرموقة، فدرس على والده القاضي الفقه الحنبلي والتّفسير والحديث، كما كان جدّه وشقيقه عالمين كبيرين. فالحاصل أنّ الشّيخ تشبّع منذ نشأته في أسرة حنبليّة بفقه الحنابلة، غير أنّ بيئته انتشر فيها الطّرق الصّوفيّة والبدع والخرافات.

ـ ترعرع محمّد بن عبد الوهّاب في بيئة تفشّى فيها الفساد العقدي، فوجد نفسه وسط قوم أحياء يسألون موتاهم، فكان التّوحيد الخالص الذي بشّر به الإسلام في واد ومجتمعه في واد آخر، فقد كذّب الكثير من النّجديّين بالبعث و أنكروا الشّرائع، وفضّلوا حكم الطّاغوت على حكم الله تعالى، هذا فضلا عن اتّخاذهم القبور مساجد، والتّعلّق بالأشجار والتّبرّك بالأحجار والغلوّ في أدعياء الولاية.

ذكر ابن غنّام [188] أنّ القوم وقعوا في مائة ناقض وما تلبّسوا به من إنكار البعث وسبّ الشّرع، وتفضيل حكم الطّاغوت على حكم الله" [189]. وحكى تلاميذ الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب الحالة الكارثيّة المزرية لنجد آنذاك فقالوا:" وقعنا في الشّرك فذبحنا للشّياطين ودعونا الصّالحين ونأتي الكهّان..". الخ [190] فالمقصود أنّ البيئة التي نشأ فيها ابن عبد الوهّاب اندرس فيها الدّين وانمحت فيها معالم التّوحيد، فتمزّقت الأمّة شيعاً و أحزاباً، وتوسّعت النّزاعات السّياسيّة، وتدهور الأمن واستولى الخوف، وأصيب النّاس في

---

[188] حسين ابن غنّام (أو ابن أبي بكر بن غنام) النّجدي الأحسائي المالكي(000 - 1225 هـ - 000 - 1811 م) مؤرخ. مالكي المذهب، شاعر فحل كان عالم الأحساء في عصره. انظر إلى الاعلام قاموس تراجم لأشهر الرّجال والنّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. خير الدّين الزّركلي ط: 9 . 1400 هـ - 1980 م. دار العلم للملايين بيروت. (2 / 251).

[189] تاريخ نجد المسمّى " روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام ". تحقيق ناصر الدّين الأسد. حسين ابن غنّام. ط:4. دار الشّروق. س: 1415هـ - 1994م. (1/ 108).

[190] علماء نجد خلال ثمانية قرون. الشّيخ عبد الله بن عبد الرّحمان البسّام. نشر دار الكتب العلميّة. بيروت. ط: 1. س: 1419هـ - 1998 م. (367/4).

معايشهم وأرزاقهم.

وعن رحلاته العلميّة التي قام بها محمّد بن عبد الوهَّاب ـ إلى مكّة المكرّمة والمدينة النّبويّة وبغداد والبصرة ـ على جانب كبير من الأهمّيّة في حياته، إذ كان واضحًا أثرها على شخص ابن عبد الوهّاب. لقد تهيَّأ للشّيخ أن يطّلع على وضع علميّ يختلف تماما عمَّا أَلِفَه في مسقط رأسه العُيَيْنَة من الاحتباس على الفقه الحنبلي. فقد انتفع بعلماء المدينة النّبويّة حيث ملتقى العلماء وطلاّب العلم من مختلف أقطار العالم الإسلامي، فاطّلع على تيّارات الفقه والتّصوُّف والفلسفة وعلم الكلام. كما استفاد أيضا ممّا رأى من مظاهر الشّرك وابتداع في الدّين لا تتَّفق مع ما يؤمن به من توحيد خالص، ولم يرَ مَن ينكرها، وكان هذا أيضا حافزا منبّها لمزيد طلب العلم والرّحلة في سبيل ذلك حتّى استغرقت قريبًا من عشرين سنة من فترة شبابه وسّعت مداركه ومعرفته بأحوال النّاس وفهمه لما آل إليه واقع المسلمين. فأدرك أنّ الإسلام مهدَّد بالاضمحلال لما تطرَّق إلى أسسه وأصوله من بِدَع ولوثَات أخفتْ حقيقة الدّين الإسلامي الصّحيحة وصفاءه ونقاوته.

أمّا العلماء الذين أخذ ابن عبد الوّهاب عنهم العلم فهم كُثُر، ولقد استفاد من مناهجهم العلميّة وتجاربهم في الدّعوة، وكان لبعضهم تأثيرٌ خاص على شخصيّته، ولا سيَّما على جانبها الفكري، منهم:

أ- الشّيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف النّجدي: وهو عالم في الفقه الحنبلي والحديث الشّريف، لازَمَه الشّيخ محمّد بن عبد الوهَّاب، وأخذ عنه قدرًا كبيرًا من العلم، التقى معه في أفكاره حول معاني التّوحيد، والحاجة إلى الإصلاح، وعدم الرّضا بما عليه بعض أهل نجد من مظاهر الشّرك كتعظيم القبور والأوثان، واتَّفق معه على ضرورة التّغيير لهذه الأوضاع الدّينيّة السّيّئة عن طريق التّعليم، يدلُّ يدلُّ على ما سطّرتُ آنفا ما ذكره ابن بشر في " تاريخه ": قال الشّيخ محمّد ابن عبد الوهَّاب: كُنتُ عنده يومًا، فقال لي: أتريد أن أُريك سلاحًا أعددته للمجمعة؟ قلت: نعم! فأدخَلَني منزلاً فيه كتب كثيرة، فقال: هذا الذي أعددنا لها، وهو الذي عرَّفه بالشّيخ محمّد حياة السّندي، وأوصى الشّيخ به خيرًا، ممتَدِحًا فطنته ومواهبه وتفهُّمه الصّحيح لتعاليم الإسلام". وكان من المعجَبِين بشيخ الإسلام ابن تيميَّة (661 هـ ـ

728 هـ / 1263م ـ 1328م) الـذي عُـرِف بفكـره الأصـيل وعلمـه الواسـع، وقطعًـا أنّـه شجَّع تلميذه محمّد بن عبد الوهَّاب على مواصلة قراءة مؤلّفاته والانتفاع بعلمه " [191].

ب- الشّـيخ محمّـد حيـاة السّـندي: أحـد علمـاء الحـديث، لازَمَـه محمّـد بـن عبـد الوهَّـاب واسـتفاد منـه في منهجـه الإصـلاحي، أعطـاه مـن وقتـه وعنايتـه حظًّـا أوفـر بعـد أن رأى فيـه قـوّةً وذكـاءً ومضـاءَ عزيمـةٍ وعلـوَّ نفـسٍ، ورَسَـم لـه طريـق العلـم الصّـحيح، محـذِّرًا لـه مـن الخلـود إلى مـنهج التّقليـد الـذي سـلكه غالـب علمـاء ذلـك العصـر، فكـان التّقليـد سـببًا في جمـود الفكـر وبـطء حركـة العلـم وتوقُّـف الاجتهـاد، وبـيّن لـه المـنهج الصّـحيح في طلـب العلـم، وكيـف يسـير في طريـق الـدّعوة إلى الله تعـالى " [192]. قـال عنـه الشّـيخ عبـد اللّطيـف بـن عبـد الـرّحمن بـن حسـن بـن محمّـد بـن عبـد الوهّـاب [193]:" كـان لـه أكـبر الأثـر في توجيـه الشّـيخ محمّـد ابـن عبـد الوهَّـاب إلى إخـلاصِ توحيـدِ عبـادةِ الله، والـتّخلُّص مـن رقِّ التّقليـد الأعمـى، والاشـتغال بالكتـاب والسّـنّة " [194]. ولعـلّ أبـرز مـا اسـتفاده الشّـيخ مـن كثـرة رحلاتـه الواسـعة وقراءتـه المعمّقـة وضـوح رؤيتـه للحـقّ وتمييـزه بـين التّوحيـد الصّـحيح ونواقضـه مـن الشّـرك، وهـو الـذي وقـع فيـه أكثـر النّـاس، وهـو أيضـا مـا رسّـخ وضـخّم نزعتـه إلى الإصـلاح، فقـد منحتْـه قراءتُـه الواسـعة في كتـب التّفسـير والحـديث وسـيرة السّـلف الصّـالح، ووقوفـه علـى الـدّليل مـن الكتـاب والسّـنّة وضـوحًا في الرّؤيـة، وتمسُّـكًا بـالحقّ، وصـلابةً في الـدّعوة، وصـمودًا في المحنـة، وصـبرًا علـى الأذى، ورسـوخًا في نزعتـه إلى الإصـلاح والتّغيـير. يقـول الأسـتاذ رفيـق العجـم:" إنّ تثقُّـفَ الشّـيخ مـن عـدَّة مناهـل ومعاينتـه أوضـاع المسـلمين في عـدَّة أمـاكن جعلـه ينـدفع بـدعوةٍ تمثِّـل ضميرَ الأمّة، ويطرح فكرًا ينطوي على الخلاص والتّجديد في قضاياها " [195].

---

[191] عثمـان بـن بشـر: "عنـوان المجـد فـي تـاريخ نجـد". ط: 4. مكتبـة الرّيـاض الحديثـة. الرّيـاض. س: 1402 هـ - 1981 م. (1 / 20). و انظـر أيضـا إلـى كتـاب" الـدّعوة الوهّابيـة وأثرهـا فـي الفكـر الإسـلامي الحـديث". د. محمّد كامـل ظـاهر. ط: 1. دار السّـلام للطّباعـة والنّشر. بيروت.1413 هـ - 1993 م. ص 35.

[192] أحمـد بـن عبـدالعزيز الحليبـي: روافـد التّغييـر الثقـافي فـي دعـوة الإمـام محمّد بـن عبـدالوهّاب. المصـدر: مجلّـة الدّرعيّـة. جمـادى الآخـرة / رمضان 1423هـ - سبتمبر / ديسمبر 2002 م. العددان (19/18).

[193] هو من أحفاد الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب. (1225 هـ - 1293 هـ).

[194] عبـد اللّطيـف بـن عبـد الـرّحمن بـن حسـن بـن محمّد بـن عبـد الوهّـاب آل الشّـيخ " مصـباح الظّـلام فـي الـرّدّ علـى مـن كـذب علـى الشّـيخ الإمـام ونسـبه إلـى تكفيـر أهـل الإيمـان والإسـلام ". ط:1. دار الهدايـة للطّبـع والنّشـر والتّرجمـة. الرّيـاض. س: 1424 هـ - 2003 م. ص139- .140

[195] ابـن عبـد الوهَّـاب فـي أبعـاده الإصـلاحيّة الإسـلاميّة. الأسـتاذ رفيـق العجـم. مجلّـة الفكـر العربـي المعاصـر. عـدد: شـعبان 1409 هـ - مارس 1989 م. ص: 38.

وقد تأثّر الشّيخ محمّد ابن عبد الوهّاب بمنهج الإمامين ابن تيميَّة و ابن القيِّم: كان لآراء ابن تيميَّة وابن القيِّم الأثر في توجيه ابن عبد الوهَّاب والتّأثير على حياته، فقد تضلُّع من ربِّهما العالي، واستمدَّ منها غذاءَها الفكري، ومنهجَها العلمي فبلغ بهما الإصلاح الذي ينشده في ربوع الجزيرة العربيّة والعالم الإسلامي في العصر الحديث. يقول الأستاذ أحمد أمين (1886م/ 1954م):" كان ابن تيميَّة إمامَه ومرشدَه وباعثَ تفكيره والموحيَ إليه بالاجتهاد والدّعوة إلى الإصلاح " [196].

فمن تأمّل حركة محمّد ابن عبد الوهّاب بعمق لا يجد فيها كثيرا من التّجديد، وإنّما تجده قد أحيى مذهب السّلف، وأعاد النّاس إلى الأصول السّليمة للعقيدة الإسلاميّة التي كان عليها السّلف الصّالح، متلمّسا في ذلك طريقة الإمامين الجليلين ابن حنبل وابن تيميّة، ومتوسّلا بمنهجهما العلمي، كما تأثّر أيضا بمواقفهما الشّجاعة في مواجهة السّلطة السّياسيّة وقول الحقّ والاستهانة بكلّ عذاب في سبيل ذلك.

لقد كان ابن تيميّة العنصر الأبرز في رسم معالم فكر وشخصيّة محمّد بن عبد الوهّاب حتّى أنّه يكاد يكون نسخة من مباحث ابن تيميّة الكثيرة، وهو مبحث العقيدة، بل لا نبالغ إن قلنا: إنّ الشّيخ محمّد ابن عبد الوهّاب لم يأت بجديد، وإنّما استنسخ مبحثا وحيدا من أبحاث ابن تيميّة.

إنّه لئن اعتبرت دعوة محمّد ابن عبد الوهّاب أصلا لحركات الإصلاح والتّغيير التي تلتها في العصر الحديث، فإنّ حركة ابن تيميّة هي أصل حركة ابن عبد الوهّاب، وبالتّالي يكون ابن تيميّة هو مؤسّس المشروع السّلفي المعاصر، الذي تميّز بالتّركيز على التّوحيد ومحاربة الانحرافات الشّركيّة والبدع والضّلالات ومحاربة التّقليد والطّرق الصّوفيّة المنحرفة وتقديس المشايخ و الجمود المذهبي، غير أنّ دعوة ابن تيميّة إلى توسيع دائرة الأبحاث والفتاوى والتّجديد وإعادة الاعتبار إلى دور العقل، كان فارقاً نوعيّاً ومهمّا عن دعوة ابن عبد الوهّاب، فحركة الأخير إذن تأثّرت بابن تيميّة أكثر من تأثّره بحركة ابن تيميّة، وهذا بلا شكّ لا يقلّل من العمل الاصلاحي العظيم والتّصحيح المتميّز الذي أفاد به ابن عبد

[196] أحمد أمين. زعماء الإصلاح في العصر الحديث". بيروت. دار الكتاب العربي. ط: 3. س:1391 هـ - 1971م . ص 13.

الوهّـاب الأمّـة، حـين أحـيى المـيراث السّـلفيّ النّصّـي كمـا قـدّم دفعـة هائلـة وشـحنة ضـخمة في مسـألة العقيـدة والتّوحيـد. ولعـلّ هـذا الفـارق سـببه يرجـع إلى طبيعـة البيئـة المختلفـة، وطبيعـة الحاجـة الملحّـة لبيئـة ابـن عبـد الوهّـاب، فـابن تيميّـة عـاش في بيئـة حضـاريّة معقّـدة ولـذلك تنـاول مسائل المعاش والأخلاق والحسبة والحكم و السّياسة الشّرعيّة، في حين أنّ هذه القضايا لم تكن مطروحة بشكل ملحّ و قويّ في بيئة ابن عبد الوهّاب رحمهما الله تعالى.

أبرز آراء محمّد بن عبد الوهّاب الإصلاحيّة

أ . أهـمّ دعـائم دعوتـه الفكريّـة: إنّ الباحـث المتأمّـل في الـتّراث الفكـريّ للشّـيخ محمّـد بـن عبـد الوهّـاب ودعوتـه، يجـد دعـائم دعوتـه مبثوثـة في كـلّ مصـنّفاته الكثـيرة، الـتي يمكـن تقسـيمها في خمسـة أصـناف: كتـب ورسـائل صـغيرة ومراسـلات وفتـاوى وردود، إلاّ أنّهـا اجتمعـت كلّهـا وتمحـورت علـى أمـر واحـد، وهـو الـدّعوة إلى التّوحيـد الخـالص، مصـداقا لقولـه تعـالى:" أَلَا لِلَّهِ الـدِّينُ الْخَـالِصُ" [197]. وقولـه سـبحانه:" وَمَـآ أُمِـرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُـدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِـينَ لَـهُ ٱلـدِّينَ حُنَفَـآءَ وَيُقِيمُـواْ ٱلصَّـلاَةَ وَيُؤْتُـواْ ٱلزَّكَـاةَ وَذَلِـكَ دِيـنُ ٱلْقَيِّمَـةِ" [198]. وتأسّـيا بمـنهج الأنبيـاء والمرسـلين الـذين اجتمعـوا علـى أنّ التّوحيـد هـي قضـيّتهم الكـبرى، ومهمّـتهم العظمـى، قـال تعـالى:" وَلَقَـدْ بَعَثْنَـا فِي كُـلِّ أُمَّـةٍ رَّسُـولاً أَنِ اعْبُـدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُـواْ الطَّـاغُوتَ" [199] وقـال جـلّ ذكـره:" وَمَـا أَرْسَـلْنَا مِـن قَبْلِـكَ مِـن رَّسُـولٍ إِلاّ نُـوحِي إِلَيْـهِ أَنَّـهُ لا إِلَـهَ إِلاّ أَنَـاْ فَاعْبُـدُونِ" [200]. غـير أنّنـا يمكـن أن نقـرّر أنّ أهـمّ **مؤلّفاتـه** علـى الإطـلاق الـتي تبـيّن المعـالم الأساسـيّة لدعوتـه بكـلّ وضـوح ثلاثـة وهي: " كتاب التّوحيد "، و" كشف الشّبهات " و" الأصول الثّلاثة وأدلّتها ".

ومـن المؤلّفـات الأخـرى في التّوحيـد:" كتـاب أصـول الإيمـان " و" مفيـد المسـتفيد في كفـر تـارك التّوحيـد " و " تفسـير شـهادة أن لا إلـه إلا الله "، و" المسـائل الـتي خـالف فيهـا رسـول الله أهـل الجاهليّـة " ـ وفيهـا أكثـر مـن مائـة مسـألة . و " فضـل الإسـلام " و" نصـيحة المسـلمين " و " معـنى الكلمـة الطّيّبـة " و" الأمـر بـالمعروف والنّهـي عـن المنكـر " و" تفسـير سـورة الفاتحـة " و" مجموعـة خطـب " و" مفيـد المسـتفيد " و " رسـالة في أنّ التّقليـد جـائز لا واجـب " و " كتاب الكبائر ".

---

197) الزّمر 3.
198) البيّنة 5.
199) النّحل 36.
200) الأنبياء 25.

أمّا **مقالاته ورسائله** ـ رحمه الله . فهي عديدة منها: 1 عقيدة الفرقة النّاجية. 2 الأصول الثّلاثة وأدلّتها. 3 القواعد الأربعة. 4 وجوب الدّعوة إلى التّوحيد. 5 دلائل التّوحيد. 6 معنى " لا إله إلاّ الله". 7 كلمات في معنى الشّهادتين. 8 كلمات في بيان التّوحيد. 9 رسالة في معنى الطّاغوت.10 رسالة إلى أهل المغرب. 11 نواقض الإسلام. 12 فضل الإسلام. 13 الرّدّ على الرّافضة. 14 التّفريق بين قيام الحجّة وفهم الحجّة. 15 شرح ستّة مواضع من السّيرة. 16 تعليم الصّبيان التّوحيد.

أمّا **فتاوي** الإمام محمّد بن عبد الوهّاب ـ رحمه الله . **و ردوده**، فمن أهمّها: 1 ردّ افتراءات حول الدّعوة. 2 حول أقسام التّوحيد 3 بماذا يُكفّر المرء؟

أمّا **مراسلات** الشّيخ ـ رحمه الله . فهي كثيرة جدّا تصل إلى إحدى وخمسين كما جاءت في الدّرر السّنّيّة، كان قد وجّهها الشّيخ إلى علماء الإسلام وإلى الأمراء ومشايخ القبائل في الحرمين والحجاز والجزيرة العربيّة واليمن والشّام والعراق، وإلى كلّ المسلمين في العالم. وهذه المراسلات فيها بيان لحقيقة دعوته، كما ذبّ فيها عن نفسه ممّن افترى عليه من المجموعات الدّينيّة المحافظة، أو من السّياسيّين المحرّضين أو ممّن بلغتهم أخباره مشوّهة مبتورة، كما أنّ من النّاس من ضاع عنه معنى التّوحيد بسبب الجهل أو بسبب قصور الأفهام عن إدراك دعوة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم الحقيقيّة، لأنّ دعوة تستهدف ردّ الأمور كلّها إلى الله تعالى ونزع كلّ السّلطات والحظوظ من أمراء القبائل وأنصار القبور، فضلا عن خصومها من غير المسلمين. لا بدّ أن تحدث صدمة وتهدّد مصالحهم، فكان لزاما أن تواجه بحملات من التّشويه والافتراء، كما كان لزاما أيضا على الشّيخ أن يكاتبهم جميعا.

ومن مراسلاته المهمّة ما كتبه إلى كلّ المسلمين، وكانت تحت عنوان: من محمّد بن عبد الوهّاب إلى من يصل إليه هذا الكتاب من المسلمين قال فيها: ... من محمّد بن عبد الوهّاب إلى من يصل إليه من المسلمين سلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ وبعد. ما ذكر لكم عنّي أنّي أُكفّر بالعموم فهذا من بهتان الأعداء، وكذلك قولهم إنّي أقول من تبع دين الله

ورسوله وهو ساكن في بلده أنّه ما يكفيه حتّى يجيء عندي فهذا أيضا من البهتان..." [201].

ومن رسائله الشّهيرة ــ عندنا أهل تونس ــ رسالته إلى أهل المغرب هذا نصّها: بسم الله الرّحمن الرّحيم. الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضلّ له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعص الله ورسوله فقد غوى، ولن يضرّ إلاّ نفسه ولن يضرّ الله شيئاً وصلّى الله على محمّد وآله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً. أمّا بعد فقد قال الله تعالى:" قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ " [202]، وقال تعالى:" قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ "[203]، وقال تعالى:" وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا " [204]، وقال تعالى:" الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِينًا " [205]، فأخبر سبحانه أنّه أكمل الدّين وأتمّه على لسان رسوله صلّى الله عليه وسلّم وأمرنا بلزوم ما أنزل إلينا من ربّنا، وترك البدع والتّفرّق والاختلاف فقال تعالى:" اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ" [206]، وقال تعالى:" وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ " [207]، والرّسول صلّى الله عليه وسلّم قد أخبر بأنّ أمّته تأخذ مأخذ القرن قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع وثبت في الصّحيحين وغيرهما عنه صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال:" لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شِبرًا بِشِبرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ. قُلْنَا: يَا

---

[201] الدّرر السّنّيّة في الكتب النّجديّة. الرّسالة التّاسعة. تحقيق: عبد الرّحمن بن محمّد بن قاسم العاصمي النّجدي. تأليف: علماء نجد من عصر الشّيخ محمد بن عبد الوهّاب. ط: 1. دار القاسم. الرّياض. س: 1417 هـ - 1996 م. (10 / 131).

[202] يوسف 108.

[203] آل عمران 31.

[204] الحشر 7.

[205] المائدة 4.

[206] الأعراف 2.

[207] الأنعام 154.

افترَقَتْ علَى إحدَى وَسبعينَ فِرقةً، و إنَّ أُمَّتِي ستَفتَرِقُ علَى اثنتينِ و سَبعينَ فرقةً، كلُّها في النَّارِ إلَّا واحِدةً، و هيَ الجَماعَةُ " [209]. إذا عُرِف هذا فمعلوم ما قد عمّت به البلوى من حوادث الأمور التي أعظمها الإشراك بالله والتّوجّه إلى الموتى وسؤالهم النّصر على الأعداء وقضاء الحاجات وتفريج الكربات التي لا يقدر عليها إلاّ ربّ الأرض والسّموات، وكذلك التّقرّب إليهم بالنّذر وذبح القربان، والاستغاثة بهم في كشف الشّدائد وجلب الفوائد إلى غير ذلك من أنواع العبادة التي لا تصلح إلاّ لله. وصرف شيء من أنواع العبادة لغير الله كصرف جميعها لأنّه سبحانه أغنى الشّركاء عن الشّرك ولا يقبل من العمل إلاّ ما كان خالصاً كما قال تعالى:" فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ " [210]، فأخبر سبحانه أنّه لا يرضى من الدّين إلاّ ما كان خالصاً لوجهه وأخبر أنّ المشركين يدعون الملائكة والأنبياء والصّالحين ليقرّبوهم إلى الله زلفى ويشفعوا لهم عنده، وأخبر أنّه لا يهدي من هو كاذب كفّار فكذّبهم في هذه الدّعوى وكفّرهم فقال:" إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ "، وقال تعالى:" وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ " [211]، فأخبر أنّ من جعل بينه وبين الله وسائط يسألهم الشّفاعة فقد عبدهم وأشرك بهم، وذلك أنّ الشّفاعة كلّها لله كما قال تعالى:" قُلْ لِلّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً "،[212] فلا يشفع عنده أحد إلاّ كما قال تعالى:" مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ "[213]، وقال تعالى:" يَوْمئِذٍ ـ أَيْ يَوْم ـ الْقِيَامَة لَا تَنْفَع الشَّفَاعَة ـ أيْ عِنْده ـ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَن وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا "[214]، وهو سبحانه لا يرضى إلاّ التّوحيد كما قال تعالى:" وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ" [215]، وقال تعالى:" قُلِ

---

[209] البخاري. شرح ابن حجر العسقلاني. " فتح الباري بشرح صحيح البخاري ". كتاب أحاديث الأنبياء 60. باب ذُكِر عن بني إسرائيل. رقم 50. دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع. بيروت. ط: 1. س: 1415 هـ - 1995 م. حديث رقم (3456) (7/ 171) و حديث رقم (7320). (235/15). و صحيح مسلم بشرح النّووي. كتاب العلم. 47. ط: 1. دار الكتب العلميّة. بيروت. 1415 هـ - 1995 م. رقم (2669). (179/16). وغيرهما.

[210] الزّمر : 3.

[211] يونس 18.

[212] جزء من آية الزّمر 44.

[213] جزء من آية البقرة 253.

[214] طه 106.

[215] الأنبياء 28

ادْعُـوا الَّـذِينَ زَعَمْـتُم مِّـن دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُـونَ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ فِي السَّـمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَمَـا لَهُـمْ فِيهِمَـا مِـن شِـرْكٍ وَمَـا لَـهُ مِـنْهُم مِّـن ظَهِـيرٍ . وَلاَ تَنْفَـعُ الشَّـفَاعَةُ عِنْـدَهُ إِلاَّ لِمَـنْ أَذِنَ لَـهُ " [216]. فالشّـفاعة حـقّ ولا تُطلـب في دار الـدّنيا إلاّ مـن الله تعـالى كمـا قـال تعـالى:" وَأَنَّ الْمَسَـاجِدَ لِلَّهِ فَـلَا تَـدْعُوا مَـعَ اللَّهِ أَحَـدًا " [217]، وقـال:" وَلَا تَـدْعُ مِـنْ دُون اللَّه مَـا لَا يَنْفَعـك وَلَا يَضُـرّك فَـإِنْ فَعَلْـت فَإِنَّـك إِذًا مِـنْ الظَّـالِمِينَ " [218] فـإذا كـان الرّسـول الله صـلّى الله عليـه وسـلّم وهـو سـيّد الشّـفعاء، وصـاحب المقـام المحمـود، وآدم فمـن دونـه تحـت لوائـه لا يشـفع إلاّ بـإذن الله لا يشـفع ابتـداء بـل:" يَـأْتِي فَيَخِـرُّ سَـاجِداً فَيَحْمَـدُهُ بِمَحَامِـدَ يُعَلِّمُـهُ إِيَّاهَـا ثُمَّ يُقَـالُ اِرْفَـعْ رَأْسَـكَ، وَقُـلْ تُسْـمَعْ، وَسَـلْ تُعْـطَ، وَاشْـفَعْ تُشَـفَّعْ ثُمَّ يُحَـدُّ لَـهُ حَـداً فَيُـدْخِلُهُمُ الجَنَّـةَ " [219] ، فكيـف بغـيره مـن الأنبيـاء والأوليـاء؟ وهـذا الـذي ذكرنـاه لا يخـالف فيـه أحـد مـن علمـاء المسـلمين بـل قـد أجمـع عليـه السّـلف الصّـالح مـن الصّـحابة والتّـابعين والأئمّـة الأربعـة وغـيرهم ممّـن سـلك سـبيلهم ودرج علـى مـنهجهم. وأمّـا مـا صـدر مـن سـؤال الأنبيـاء والأوليـاء الشّـفاعة بعـد مـوتهم وتعظـيم قبـورهم ببنـاء القبـاب عليهـا والسّـرج والصّـلاة عنـدها واتخاذهـا أعيـاداً وجعـل السّـدنة والنّـذور لهـا فكـلّ ذلـك مـن حـوادث الأمـور الـتي أخـبر بوقوعهـا النّـبيّ صـلّى الله عليـه وسـلّم وحـذّر منهـا، كمـا في الحـديث عنـه صـلّى الله عليـه وسـلّم أنّـه قـال:" لاَ تَقُـومُ السَّـاعَةُ حـتَّى يَلْحَـقَ حَـيٌّ مِـن أُمَّـتِي بالمشْـرِكِينَ وحَـتَّى تَعْبُـدَ فِئَـامٌ مِـنْ أُمَّـتِي الأَوْثَـانَ " [220]، وهـو صـلّى الله عليـه وسـلّم حمـى جنـاب التّوحيـد أعظـم حمايـة وسـدّ كـلّ طريـق يوصـل إلى الشّـرك فنهـى أن يجصّـص القـبر، وأن يبـنى عليـه كمـا ثبـت في صـحيح مسـلم مـن حـديث جـابر، وثبـت فيـه أيضـاً أنّـه بعـث علـيّ بـن أبي طالـب رضـي الله عنـه وأمـره أن لا يـدع قـبراً مشـرفاً إلاّ سـواه ولا تمثـال إلاّ طمسـه، ولهـذا قـال غـير واحـد مـن العلمـاء يجـب هـدم القبـب المبنيّـة علـى القبـور لأنّهـا أسّسـت على معصية الرّسول صلّى الله عليه وسلّم.

---

216) سبأ 22 – 23 .
217)) الجنّ 18.
218) يونس 106.
219) البخـاري. شـرح ابـن حجـر العسـقلاني. " فـتح البـاري بشـرح صـحيح البخـاري ". كتـاب التّفسـير. سـورة بنـي اسـرائيل.65. بـاب ذُرِّيَّـةَ مَـنْ حَمَلْنَـا مَـعَ نُـوحٍ إِنَّـهُ كَـانَ عَبْـدًا شَـكُورًا. رقـم 4712. 5. جـزء مـن حـديث رقـم 4712. دار الفكـر للطّباعـة والنّشـر والتّوزيـع. بيـروت. ط: 1. س: 1415 هـ - 1995 م.(9/ 311 - 312).
220) تحقيـق: ناصـر بـن عبـد الكـريم العقـل. اقتضـاء الصّـراط المسـتقيم لمخالفـة أصـحاب الجحـيم. ابـن تيميـة. ط: 8. مكتبـة الرّشـد. الرّيـاض. السّـعوديّة. س: 1421هـ - 2000 م.(142/1). و صـحيح ابـن حبّـان. تحقيـق: شـعيب الأرنـؤوط. ط: 3. مؤسّسـة الرّسـالة. بيروت. س: 1414هـ - 1994 م. رقم 7238. و الألباني. صحيح التّرمذي. ط: 1. مكتب التّربية العربي لدول الخليج. الرّياض.

فهذا هو الذي أوجب الاختلاف بيننا وبين النّاس حتّى آل بهم الأمر إلى أن كفّرونا وقاتلونا واستحلّوا دماءنا وأموالنا حتّى نصرنا الله عليهم وظفرنا بهم، وهو الذي ندعو النّاس إليه ونقاتلهم عليه بعد ما نقيم عليهم الحجّة من كتاب الله وسنّة رسوله وإجماع السّلف الصّالح من الأئمّة ممتثلين لقوله سبحانه وتعالى:" وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ " [221]، فمن لم يجب الدّعوة بالحجّة والبيان قاتلناه بالسّيف والسّنان، كما قال تعالى:" لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ "[222]، وندعو النّاس إلى إقام الصّلاة في الجماعات على الوجه المشروع وإيتاء الزّكاة وصيام شهر رمضان وحجّ بيت الله الحرام ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر كما قال تعالى:" الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ" [223]. **فهذا هو الذي نعتقد وندين الله به فمن عمل بذلك فهو أخونا المسلم له ما لنا وعليه ما علينا.**

ونعتقد أيضاً أنّ أمّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم المتّبعين لسنّته لا تجتمع على ضلالة، وأنّه لا تزال طائفة من أمّته على الحقّ منصورة لا يضرّهم من خذلهم ولا من خالفهم حتّى يأتي أمر الله وهم على ذلك، وصلّى الله على محمّد " [224].

إنّ كلّ منصف يقرأ مضمون هذه الرّسالة قراءة متأنّية موضوعيّة قائمة على ميزان العلم والعدل، ومتحرّرة من الجهل والتّعصّب والظّلم، سينتهي إلى ما انتهى إليه الشّيخ محمّد بيرم الخامس [225]ـ رحمه الله تعالى . من" موقف شجاع متحرّر من كلّ الضّغوط السّياسيّة والأطماع الشّخصيّة والقوالب الجامدة الرّافضة لأيّ فكر أو موقف مغاير، ففاجأ بيرم

س: 1408هـ - 1988 م. رقم 4252. و تحقيق: علي بن حسن بن عبد الحميد الحلبي. هداية الرّواة إلى تخريج أحاديث المصابيح و المشكاة. ابن حجر العسقلاني. ط: 1. دار ابن القيّم. الدّمّام السّعوديّة. س: 1422 هـ - 2001 م. 98/5. والألباني. تحذير السّاجد من اتّخاذ القبور مساجد. ط: 1. مكتبة المعارف بيروت. لبنان. س: 1421هـ - 2000 م. رقم 160. وغيرها.

[221] الأنفال 39.

[222] الحديد 24.

[223] الحجّ 39.

[224] تحقيق: عبد الرّحمن بن محمّد بن قاسم. الدّرر السّنيّة في الأجوبة النّجديّة. تأليف: علماء نجد الأعلام. ط: 6. 1417هـ - 1996م . الرّسالة السّابعة عشرة: رسالته إلى أهل المغرب.(1/ 83 - 88).

[225] محمّد بيرم الخامس بن مصطفى بن محمّد الثّالث من بني بيرم (1256 هـ / 1840 م – 1307 هـ / 1889 م) عالم رحالة مصلح مؤرّخ من علماء تونس. ولد في محرم من سنة 1256 هـ الموافق لشهر مارس 1840 م بمدينة تونس. توفّي رحمه الله تعالى بحلوان في 25 ربيع الثاني 1307 هـ ، الموافق لـ 20 ديسمبر 1889م بعد مرض استبدّ به ودُفن بالقاهرة. أشرف خلال وزارة خير الدّين باشا على جمعية الأحباس منذ عام 1874م، وساهم في تنظيم التّعليم بالمدرسة الصادقيّة عند تأسيسها عام

الـذين ردّوا علـى تلـك الرّسـالة قـائلا:" بعـض الـرّادّين عليهـا تجـاوزوا حـدّ مـا ينبغـي وخرجـوا أعمالها كلّها عن حدود الشّرع بل كادوا أن ينسبوها للكفر " [226].

لقـد عُودِيَـتْ تلـك الـدّعوة وتصـدّى لهـا العثمـانيّون، فجُنِّـد محمّـد علـي باشـا لمحاربـة الدّولـة السّـعودية الأولى، وسـانده في ذلـك مشـايخ الملـوك بشـكل عنيـف ومتشـنّج بـدا ذلـك في مثـل هـذه النّعـوت النّابيـة:" المبتـدع والضّـال والشّـقيّ، والهـوس الوهّـابي، والجهـل باللّغـة والشّـريعة، والغفلـة عـن قواعـد القيـاس وميـلا إلى القيـاس الفاسـد ...." إلى درجـة اتّهـام ابـن عبـد الوهّـاب بأنّـه خـارجيّ زائـغ سـاع في مـا يغضـب الـرّبّ وبالتّـالي فـإنّ " الوهّابيّـة مـن الفـرق الهالكـة وأنّ فتنـتهم أعظـم مـن بقيـة الفـرق (الهالكـة) وذلـك أنّ مـا اسـتندوا إليـه قيـاس فاسـد لا مسـتند لـه مـن الكتـاب والسّـنّة وبإجمـاع الأمّـة ... بـل إنّ التّـوتّر بلـغ ذروتـه لـدى الشّـيخ إسماعيـل التّميمـي ليُسـقط جـام غضـبه علـى الوهّابيّـة بالـدّعاء عليهم بالويـل حـتّى لا يبقـى لهـم أثـر ولا يعـتري أهـل الإسلام منهم ضرر " [227].

ب . معالم دعوة الشّيخ محمّد ابن عبد الوهّاب من خلال كتاب التّوحيد:

بيّنـتُ فيمـا سـبق أنّ دعـائم دعـوة الشّـيخ محمّـد بـن عبـد الوهّـاب الفكريّـة نجـدها مبثوثـة بـين مؤلّفاتـه الكثـيرة، وبـالأخصّ منهـا " **كتـاب التّوحيـد الـذي هـو حـقّ الله علـى العبيـد** " وأرى مـن الضّـروري أن نتوقّـف قلـيلا بـين يـدي كتابـه هـذا، إذ يعـدّ أهـمّ تصـانيفه بـل عُمـدتها وخلاصـتها، وأجمـع كتبـه وأنفعهـا، اشـتمل علـى سـتّة وسـتين بابـاً، عـالج فيهـا المشـكلات الخطـيرة الـتي وقـع فيهـا النّـاس في عصره وتـورّط فيهـا أهـل مصره، حيـث يـذكر في كـلّ بـاب مـن أبـواب الكتـاب عنوانـا، ثمّ يسـوق الأدلّـة الـتي تـدلّ عليـه مـن القـرآن العظـيم، ومـن السّـنّة النّبويّـة

1875، وفـي إصـلاح التّعلـيم بجـامع الزّيتونـة، وفـي إصـلاح المحـاكم الشّـرعيّة مسـتعينا بالعـارفين لقواعـد الفقـه والاجتهـاد. كلّفـه خيـر الـدّين باشـا عـام 1875م أيضـا بـإدارة المطبعـة الرّسـميّة وجريـدة " الرّائـد " النّاطقـة بلسـان الحكومـة الإصـلاحيّة. سـافر إلـى أوروبـا لمّـا احتـلّ الفرنسـيّون تـونس. هـاجر إلـى الأسـتانة ومكـث فيهـا زمنـا، ثـمّ توجّـه إلـى مصـر عـام 1302 هـ 1884 م، وهنـاك أنشـأ جريـدة جريـدة «الإعـلام» أو « الإعـلام بحـوادث الأيّـام ومقتضـى المقـام بعلـوم الإسـلام ونصـائح الأنـام » منـذ عـام 1885، واسـتمرّت نحـو أربعـة أعـوام وتوقّفـت عـن الصّـدور حـين تـولّى منصـب القضـاء فـي محكمـة مصـر الابتدائيّـة الأهليّـة. مـن أهـمّ مؤلّفاتـه: كتـاب " صـفوة الاعتبـار بمسـتودع الأمصـار ". فـي خمسـة أجـزاء. علـي الصّـولي " الـدّين والدّولـة والمجتمـع فـي مواقـف وآثـار محمّد بيـرم الخـامس ". ط:1. دار الطّليعة الجديدة. دمشق. 1424 هـ - 2003. ص: (19 - 22) بتصرّف.

[226] علـي الصّـولي الـدّين والدّولـة والمجتمـع فـي مواقـف وآثـار محمّد بيـرم الخـامس". ط:1 . دار الطّليعـة الجديـدة. دمشـق. 1424 هـ - 2003 م . ص 122.

[227] المرجع السّابق.

الشّريفة، وأقوال الصّحابة وأئمّة السّلف، ثمّ يختم الباب باستنباطات مفيدة، وحكم رشيدة، وقواعد سديدة، مستنبطة من النّصوص المذكورة بعبارات مختصرة ومهمّة ومعبّرة. وهذه طريقته في كلّ مؤلّفاته، ممّا يجعلك تفهم أنّ الشّيخ يريد أن يبلّغك رسالة مفادها: أنّي لم آت بشيء من عندي، بل كلّ الذي أدعو إليه إنّما هو مبثوث في الكتاب والسّنّة وما كان عليه السّلف، وما أنا إلاّ ناقل لها ومذكّر بها.

وممّا يلفت للانتباه أنّ كتاب التّوحيد كلّه نصوص سمعيّة، لم يَصُغْ فيه مؤلّفه إلاّ عناوين الأبواب أو ما استخرجه من مسائل في عناوين قصيرة بليغة، ويكاد يكون الكتاب كلّه نصوصا قرآنيّة يعضّدها بنصوص قرآنيّة و نصوصا حديثيّة يسندها بنصوص حديثيّة أخرى، وهو نفس الأسلوب الذي دأب عليه في كلّ تآليفه تقريبا، فكتابه " الكبائر " مثلا، ذكر فيه ثمانية عشر ومائة كبيرة، لم يكتب فيه بصياغته إلاّ عناوين الأبواب أو جملة الختام قائلا:" تمّ بحمد الله ومنّته وصلّى الله على سيّدنا محمّد وسلّم تسليماً كثيراً ".

لقد كان " كتاب التّوحيد " بمثابة مدفعيّة دكّت أسوار البدع التي صارت دينا في عهده، وهدمت قلاع الشّرك الوثنيّة، لا في قريته فحسب، بل في كلّ الحجاز والجزيرة العربيّة وغيرها من بلاد المسلمين، فقد ابتلع ذلك المؤلّف العظيم الخرافات ودحر الأساطير.

أمّا **مؤلّفه الثّاني** المهمّ المسمّى:" **كشف الشّبهات** "، فهو أيضا يعدّ من أهمّ ما كتبه الشّيخ رحمه الله تعالى، وهو يُعدّ تكملة لكتاب التّوحيد وشرح له، وضعه الشّيخ لتوضيح الأسس التي قامت عليها دعوته والرّدّ على ما أثاره خصومه حولها من شبهات، فقد تميّز بوضوح شديد، وتلقين حجج وبراهين من حديد. وممّا جاء في أوّله:" اعلم رحمك الله أنّ التّوحيد هو إفراد الله بالعبادة، وهو دين الرّسل الذي أرسلهم الله به إلى عباده... ثمّ يقول:" وقد يكون لأعداء التّوحيد علوم كثيرة وكتب وحجج كما قال تعالى:" فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون " [228]. إذا عرفت ذلك، وعرفت أنّ الطّريق إلى الله لا بدّ له من أعداء قاعدين عليه أهل فصاحة

[228] غافر 82.

وعلمٍ وحُجج، فالواجب عليك أن تتعلّم من دين الله ما يصير لك سلاحاً تقابل به هؤلاء الشّياطين الذين قال إمامهم ومقدّمهم لربّك عزّ وجلّ:" لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ " [229]. ثمّ يقول في آخر الكتاب:" **لا خلاف أنّ التّوحيد لا بدّ أن يكون بالقلب واللّسان والعمل، فإن اختلّ شيء من هذا لم يكن الرّجل مسلماً، فإن عرف التّوحيد ولم يعمل به فهو كافر مرتدّ معاند ككفر فرعون وإبليس وأمثالهما**، وهذا يغلط فيه كثير من النّاس يقولون: إنّ هذا حقّ ونحن نفهم هذا ونشهد أنّه حقّ، ولكنّنا لا نقدر أن نفعله، ولا يجوز عند أهل بلدنا إلاّ من وافقهم، أو غير ذلك من الأعذار، ولم يدر المسكين أنّ غالب أئمّة الكفر يعرفون الحقّ، ولم يتركوه إلاّ لشيء من الأعذار كما قال تعالى: " اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً "، وغير ذلك من الآيات، كقوله: "يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ" [230].

أمّا مؤلّفه الثّالث فهو كتاب (الأصول الثّلاثة وأدلّتها) وهي رسالة صغيرة كتبها الشّيخ لتعليم كلّ عوام المسلمين أصول الدّين الثّلاثة: معرفة العبد ربّه ـ سبحانه وتعالى ـ ومعرفة العبد دينه، ومعرفة العبد نبيّه صلّى الله عليه وسلّم بالأدلّة.

وأهمّ ما في مؤلّف" **كتاب التّوحيد** " أنّه بيّن فيه معالم طريق دعوته، ووضّح فيه منهجه، ومن أهمّ هذه المعالم:

أوّلاً: البدء بالأهمّ فالأهمّ، وأهمّ المهمّ عند ابن عبد الوهّاب ـ رحمه الله . في مجتمع ذهل عن التّوحيد الصّافي وتاه عن الدّين الخالص.

ـ أن يعود بالنّاس إلى إفراد الله تعالى بالعبادة دون شريك له، والتّحذير من الشّرك بكلّ صوره وأنواعه. وهذا هو المحور الأساس الذي نبّه عليه الشّيخ وركّز عليه اهتماماته، إذ كان يعتبره نقطة قوّة المسلمين فبها اجتمعوا من قبل وتقدّموا. وهذا ما دندن عليه الشّيخ في كتاب التّوحيد وغيره، فقد عقد فيه باباً بعنوان:"الدّعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله"

---

[229] الأعراف 15 – 16.

[230] انظر كشف الشّبهات لمحمّد بن عبد الوهّاب. ط: 1. وزارة الشّؤون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد. السّعودية. س: 1418هـ - 1997 م. ص (54 - 55).

وصدّره بقول الله عزّ وجلّ:" قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ " [231]. ثمّ ذكر حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لما بعث معاذا إلى اليمن الذي بدأ بأهمّ واجب، ثمّ الذي يليه، فبدأ بالتّوحيد وهو إخلاص العبادة لله وحده، وترك عبادة ما سواه ثمّ المناسك الأخرى... و أذكر بالمناسبة مسائل من هذا الباب: الأولى: كون التّوحيد أوّل واجب. الثّانية: أن يبدأ به قبل كلّ شيء حتّى الصّلاة. الثّالثة: البداءة بالأهمّ فالأهمّ. ولأنّ التّوحيد الذي يدعو إليه الشّيخ هو الذي بعث الله تعالى به جميع الرّسل، فقد بيّن ذلك في نفس الكتاب في: باب" تفسير التّوحيد وشهادة أن لا إله إلاّ الله " حيث لخّص فيه أركان توحيد الألوهيّة (توحيد العبادة)، وجمع التّوحيد في أربع آيات تدلّ على ثلاثة أركان:

الرّكن الأوّل: إفراد الله بالنّسك، ودلّل عليه بقوله تعالى:" أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ " [232].

الرّكن الثّاني: حصر التّشريع لله تعالى وحده وردّ ما سواه لأنّ هذا حقّ الله تعالى وحده، مستدلاّ بقوله تعالى:" اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ " [233].

الرّكن الثّالث: الولاء لله بلا شريك، ولازمه: البراءة من الشّرك والمشركين، ودلّل عليهما الشّيخ بآيتين: قوله تعالى:" وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ " [234]، وقوله تعالى:" وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي " [235].

ثانياً: تعظيم الكتاب والسّنّة النّبويّة، وعدم التّقدّم بين يديهما أحي ابن عبد الوهّاب التّمسّك ب الكتاب والسّنّة ظاهراً وباطناً، والرّجوع إليهما في كلّ كبيرة وصغيرة، والتّسليم لهما إذعاناً وانقياداً وتقديمهما على كلّ الأقوال والآراء، من أجل تحرير مصادر الدّين وتنقيتها من شوائب الأهواء والزّيغ والضّلال، باعتبار أنّ التّعظيم والتّسليم هما الرّكيزتان

---

[231] يوسف 108.
[232] الإسراء 57.
[233] التّوبة 31.
[234] البقرة 165.
[235] الزّخرف 25 - 26.

الأساسيّتان لصحّة الدّين وسلامة المعتقد. فقد كان اعتماده في العقيدة على الكتاب والسّنّة وتقديمهما على غيرهما سمة بارزة في منهجه يشاهدها القارئ في جميع ما كتبه التي يكثر فيها إلحاحه رحمه الله تعالى على أتباعه بأن يعتصموا بالكتاب والسّنّة، وأن يستسلموا لأمر الله تعالى وأمر رسوله، وأن لا يكون في قلوبهم أجلُّ من كتاب الله عزّ وجلّ. ولهذا عقد الشّيخ عدّة أبواب في كتاب التّوحيد لتحقيق هذا المعلم، منها الباب الثّامن والثّلاثون:" باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحلّ الله أو تحليل ما حرّم الله فقد اتّخذهم أرباباً من دون الله "، وباب" قول الله تعالى:" أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا "[236]".

ومن أقواله الجامعة في هذا الباب:" الواجب طلب علم ما أنزل الله على رسوله صلّى الله عليه وسلّم من الكتاب والحكمة، ومعرفة ما أراد بذلك، كما كان عليه الصّحابة والتّابعون ومن سلك سبيلهم، فكلّ ما يحتاج إليه النّاس فقد بيّنه الله ورسوله صلّى الله عليه وسلّم، بياناً شافياً كافياً، فكيف أصول التّوحيد والإيمان، ثمّ إذا عرف ما بيّنه الرّسول صلّى الله عليه وسلّم نظر في أقوال النّاس، وما أرادوا بها، فعرضت على الكتاب والسّنّة والعقل الصّريح الذي هو موافق للرّسول صلّى الله عليه وسلّم فإنّه الميزان مع الكتاب، فهذا سبيل الهدى "[237]. وقد بيَّن رحمه الله تعالى أنّ التّوحيد لا يفسد إلاّ بسبب البعد عن متابعة سنّة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال:" كلّما كان الرّجل أتبعَ لدين محمّد صلّى الله عليه وسلّم كان أكمل توحيداً لله تعالى وإخلاصاً لدينه، وإذا أُبعد عن متابعته نقص عن دينه بحسب ذلك، فإذا كثر بعده عنه ظهر فيه من الشّرك والبدع ما لا يظهر فيمن هو أقرب منه لاتّباع الرّسول صلّى الله عليه وسلّم" [238].

---

[236] النّساء 60.

[237] الدّرر السّنّيّة في الأجوبة النّجديّة. تحقيق: عبد الرّحمن بن محمّد بن قاسم. تأليف: علماء نجد الأعلام. ط: 6. س: 1417هـ - 1996م. (2/15).

[238] الدّرر السّنّيّة في الأجوبة النّجديّة. تحقيق: عبد الرّحمن بن محمّد بن قاسم. تأليف: علماء نجد الأعلام. ط: 6. س: 1417هـ - 1996م. (12/2).

ثالثاً: ذمّ البدعة والإحداث في الدّين ممّا لم يرد في الكتاب والسّنّة:

اعتنى الشّيخ ابن عبد الوهّاب عناية فائقة بالتّتبّت والتّحرّي في شأن العبادة، فمن أراد أن يعبد الله عزّ وجلّ حقّ العبادة فلا يجوز له أن يعبده إلاّ بمقتضى شرعه، ولهذا كان ينهى عن البدع والمحدثات التي يتناقلها النّاس ويتوارثونها جيلاً بعد جيل، دون حجّة أو أثارة من علم صحيح، ويرى أنّ مصادر التّديّن يجب أن تكون صافية من كلّ شائبة، خالصة من كلّ دخيل. وذكر" أنّ من زاد في الدّين بشيء ما فعله الرّسول وليس عليه الصّحابة والتّابعون فكأنّما نقص" [239]. وهذا من عمق فقه الإمام وبعد نظره، لأنّ النّاس كلّما استحسنوا شيئاً صيَّروه ديناً، ومع تتابع الأجيال تصبح آراء النّاس هي الأصل، وتندرس معالم الشّريعة. قال تعليقاً على قول الله تعالى:" الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا " [240]. فأخبر سبحانه أنّه أكمل الدّين، وأتمّه على لسان رسوله، وأمرنا بلزوم ما أنزل إلينا من ربّنا، وترك البدع والتّفرّق والاختلاف، فقال تعالى:" اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ" [241]، وقال أيضا:" وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ[242]"،[243].

رابعاً: العناية بالعلم، وضابط العلم عنده ما قرّره الشّارع الحكيم:

إنّ العلم الذي دعا إليه الشّيخ وعظّمه، هو ما يدلّ عليه الشّارع بالدّليل والحجّة والبرهان، ذكر هذا في كتابه " الأصول الثّلاثة الواجب على كلّ مسلم ومسلمة تعلّمها ". يقول: اعلم رحمك الله أنّه يجب علينا تعلم أربع مسائل: الأولى: العلم، وهو معرفة الله، ومعرفة نبيّه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلّة. الثّانية: العمل به. الثّالثة: الدّعوة إليه. الرّابعة: الصّبر على الأذى فيه. والدّليل قوله تعالى بسم الله الرّحمن الرّحيم:" وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ

---

[239] نفسه. (2/ 12).
[240] المائدة 4.
[241] الأعراف 2.
[242] الأنعام 154.
[243] المصدر السّابق (1/ 84).

لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ " [244] [245]. وقال أيضا:" إذا أمر الله العبد بأمر، وجب عليه فيه: سبع مراتب: الأولى: العلم به، الثّانية: محبّته، الثّالثة: العزم على الفعل، الرّابعة: العمل، الخامسة: كونه يقع على المشروع خالصاً صواباً، السّادسة: التّحذير من فعل ما يحبطه، السّابعة: الثّبات عليه". [246] وفي كتاب أصول الإيمان للشّيخ عقد هذه الأبواب في شأن العلم: باب التّحريض على طلب العلم وكيفيّة الطلب، وباب قبض العلم، وباب التّشديد في طلب العلم للمراء والجدال وباب التّجوّز في القول وترك التّكلّف والتّنطّع. ويعتقد الشّيخ أنّ هذا أهمّ ما على الإنسان معرفته والعمل به قبل كلّ معرفة وعمل، فإنّه أصل العلم وقاعدته وأنّ هذا العلم والإيمان في مكانهما من ابتغاهما وجدهما إلى يوم القيامة " [247]. وفي مناهج التّعليم نصح بسلوك سبيل التّدرّج ثمّ بالأسهل فالأسهل، وأسهل ما يكون وأهمّه تعليم الصّبية التّوحيد، ثمّ القصص التي قصّ الله علينا عن الأنبياء وأممهم. كما رسم منهجا ينبغي السّير عليه ليحقّق التّعليم أهدافه النّبيلة المرجوّة، كما وضع أيضا تعاليم للمعلّم فقال له: " ينبغي للمعلّم أن يعلّم الإنسان على قدر فهمه، فإن كان ممّن يقرأ القرآن أو عرف أنّه ذكيّ، فيعلّم أصل الدّين وأدلّته، والشّرك وأدلّته، ويقرأ عليه القرآن، ويجتهد أنّه يفهم القرآن فهم قلب، وإن كان رجلا متوسّطا ذكر له بعض هذا، وإن كان مثل غالب النّاس، ضعيف الفهم، فيصرّح له بحقّ الله على العبيد، مثل ما ذكر النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لمعاذ، ويصف له حقوق الخلق، مثل حقّ المسلم على المسلم، وحقّ الأرحام، وحقّ الوالدين، وأعظم من ذلك حقّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وأفرضه شهادتك له أنّه رسول الله، وأنّه خاتم النبيّين، وتعلم أنّك لو ترفع واحدا من الصّحابة في منزلة النّبوّة صرت كافراً، فإذا فهم ذلك فقل حقّ الله عليك أعظم وأعظم، فإذا سأل عن حقّ الله فاذكر له أنّك تعبده، ولا تصير مثل البدوي، وأيضا تخلص له العبادة، لا تكون مثل من يدعوه ويدعو غيره، أو يذبح له ولغيره، أو يتوكّل عليه وعلى غيره، وكلّ العبادات كذلك، وتعرّفه أنّ من أخلّ بهذا حرمت عليه الجنّة، ومأواه النّار،

---

[244] سورة العصر.
[245] محمّد بن عبد الوهّاب. الأصول الثّلاثة. شرح محمّد بن صالح العثيمين. نشر: دار الإيمان. الاسكندريّة. مصر. 1422 هـ - 2001 م. من (19 إلى 25).
[246] نفسه.
[247] نفسه. (1/ 93 و 97).

ولو ظنّ أنّه ما يشرك، **فإذا عرف التّوحيد، ولا عمل به، ولا أحبّ وأبغض فيه؛ ما دخل الجنّة**، ولو ظنّ أنّه ما أشرك لأنّ فائدة ترك الشّرك تصحيح التّوحيد، ومن أعظم ما تنبّهه عليه التّضرّع عند الله، والنّصيحة وإحضار القلب في دعاء الفاتحة إذا صلّى " [248].

خامساً: التّركيز على العلم النّافع: و المقصود بالعلم النّافع الذي يترتّب عليه عمل ويجنّب الكلام والجدل: لا يعلّم الشيخ ابن عبد الوهّاب النّاس إلاّ ما ينفعهم في أصل دينهم وعباداتهم ومعاملاتهم، فكتب وبلّغ الذي لا غنى لهم عن معرفته، و **كان ينهى عن القراءة في كتب أهل الكلام**. قال رحمه الله تعالى:" الواجب طلب علم ما أنزل الله على رسوله صلّى الله عليه وسلّم من الكتاب والحكمة ومعرفة ما أراد بذلك كما كان عليه الصّحابة والتّابعون ومن سلك سبيلهم، وكلّما يحتاج إليه النّاس فقد بيّنه الله ورسوله صلّى الله عليه وسلّم بيانا شافيا كافيا، فكيف أصول التّوحيد والإيمان، ثمّ إذا عرف ما بيّنه صلّى الله عليه وسلّم نظر في أقوال النّاس وما أرادوا بها فعرضت على الكتاب والسّنّة والعقل الصّريح الذي هو موافق للرّسول صلّى الله عليه وسلّم فإنّه الميزان مع الكتاب فهذا سبيل الهدى، وأمّا سبيل الضّلال والبدع والجهل فعكسه أن تبتدع بدعة بآراء رجال وتأويلاتهم، ثمّ تجعل ما جاء به الرّسول صلّى الله عليه وسلّم تبعا لها وتحرّف ألفاظه وتؤوّل على وفق ما أصّلوه، وهؤلاء تجدهم في نفس الأمر لا يعتمدون على ما جاء به الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، ولا يتلقون منه الهدي، ولكن ما وافقهم منه قبلوه، وجعلوه حجّة لا عمدة، وما خالفهم منه تأوّلوه كالذين يحرّفون الكلم عن مواضعه، أو فوّضوه كالذين لا يعلمون الكتاب إلاّ أمانيّ. وليعلم طالب العلم أنّ العوام محتاجون إلى كلام أهل العلم من تحقيق هذه المسائل ونقل كلام العلماء " [249].

---

[248] الدّرر السّنّيّة في الأجوبة النّجديّة. تحقيق: عبد الرّحمن بن محمّد بن قاسم. المؤلّف: علماء نجد الأعلام. ط: 6. س: 1417هـ - 1996م. (1/ 170).

[249] الدّرر السّنّيّة في الأجوبة النّجديّة. تحقيق: عبد الرّحمن بن محمّد بن قاسم. المؤلّف: علماء نجد الأعلام. ط: 6. س: 1417هـ - 1996م. (2/ 15).

سادسا: التّحذير من التّقليد الأعمى: لأنّ التّقليد الأعمى من أهمّ العوامل التي تؤدّي بالانحراف عن العقيدة الإسلاميّة السّليمة الصّافية، ولأنّ التّقليد أيضا لا يساعد على تنمية المواهب بل يضعفها، كما يأسر بصيرة الإنسان، ويلغي العقل ويخدّره، فلا يقوى على النّظر أو الاستدلال، فيتعطّل عن أن يميّز الحقّ من الباطل، والباطل من الحقّ، فيصير أداة استقبال كلّ شيء ويأخذه ويسلّم له دون نظر أو تمحيص، وهذا خطر عظيم يهدّد كلّ شيء ويدمّره، فقد حذّر الشّيخ من التّقليد، فكان يستحثّ النّاس على اتّباع الكتاب والسّنّة وترك التّعصب للنّاس ولو كانوا أئمّة، قال يعاتب أحد المقلّدين:" فانظر يا رجل حالك وحال أهل هذا الزّمان، أخذوا دينهم عن آبائهم، ودانوا بالعرف والعادة، وما جاز عند أهل الزّمان والمكان دانوا به وما لا، فلا " [250].

سابعاً: النّهي عن الغلوّ: نهى الشّيخ عن الغلوّ على وجه العموم، وعن الغلوّ في الأولياء والمبالغة في مدح الصّالحين على وجه الخصوص، لأنّ الكثير من قومه وقع في ذلك، ولآعتقاده أنّ الغلوّ فيهم هلاك، وقد ثبت لديه أنّ الغلوّ في الصّالحين كان هو أوّل وأعظم سبب أوقع بني آدم في الشّرك الأكبر. ولهذا عقد الشّيخ باباً في كتاب التّوحيد بعنوان:" ما جاء أنّ سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم وهو الغلوّ في الصّالحين "، وصدَّره بقوله عزّ وجلّ:" قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ " [251].

وساق فيه عدداً من النّصوص من الكتاب والسّنّة، منها: قول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:" لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ " [252]، ثمّ ساق قول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: " إِيَّاكُمْ وَالغُلُوَّ فِإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ " [253] فمحبّة الأولياء والصّالحين لا تعني تقديسهم وإعطاؤهم ما لا يليق بهم من صفات

---

250) حسين بن غنام. تاريخ نجد. تحرير وتحقيق ناصر الدّين الأسد. ط: دار الجيل، بيروت 1402هـ - 1982. (2/ 53).
251) المائدة 79.

252) البخاري. شرح ابن حجر العسقلاني. " فتح الباري بشرح صحيح البخاري ". كتاب أحاديث الأنبياء.60. باب وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا. رقم 48. حديث رقم (3445). دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع. بيروت. ط: 1. س: 1415 هـ - 1995 م. (7/ 149).

253) تحقيق: ناصر بن عبد الكريم العقل. " اقتضاء الصّراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ". ابن تيمية. ط: 8. مكتبة الرّشد. الرّياض. س: 1421هـ - 2000 م. (327/1). و صحيح ابن حبّان بترتيب ابن بلبان. ط: 2. مؤسّسة الرّسالة. بيروت. س: 1414هـ - 1494 م. رقم: 3871. و الألباني. السّلسلة الصّحيحة. ط: 1. مكتبة المعارف. الرّياض.1415 هـ - 1995 م. (177/5). وغيرها.

الرّبوبيّة والألوهيّة، ولهذا اشتدّ نكيره على الذين يعظّمون القبور والقباب، ويلجؤون إلى المقبورين لكشف الضّرّ أو جلب النّفع. ومن الغلوِّ الذي نهى عنه الشّيخ الغلوّ في حقّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وآل بيته الطّيبين الطّاهرين، فالله عزّ وجلّ شرّف النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالنّبوّة والرّسالة، وأمرنا بتعزيره وتوقيره واتّباعه وتعظيم أمره ونهيه، والذّبّ عن جنابه الكريم، ونهانا عن تجاوز ذلك إلى الاستغاثة به أو النّذر له أو الطّواف بقبره، ونحو ذلك من العبادات التي لا تصرف إلاّ لله عزّ وجلّ وحده لا شريك له.

ج. قراءة في فكر الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب من خلال كلّ مصنّفاته:

لكي نفهم حقيقة دعوة الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب ومنطلقاتها وأهدافها، كان من المهمّ أن نتناول قراءة كتب الشّيخ قراءة علميّة منصفة متأمّلة مع معرفة دقيقة بالسّياق الدّيني والاجتماعيّ والسّياسي الذي نشأت فيه دعوته. والدّارس المنصف لكلّ مؤلّفاته والمتأمّل فيها، يخرج بهذه الخلاصات:

أوّلا: أنّ الشّيخ أجاب عن مشكلات خطيرة حقيقيّة وقع فيها قومه.

ثانيا: أنّه لم يغرق في عالم فلسفة النّخبة، فلم يستعمل مفرداتهم في رسائله ومكاتباته، بل كان حريصاً على البساطة والوضوح، فخاطب العلماء بلغتهم، وناقش العوام بلغة سهلة قريبة، حتّى إنّه في بعض رسائله كان يستخدم عبارات من اللّهجة العامّيّة الدّارجة في المجتمع النّجدي، رغبة في إفهام النّاس، وإيصال المعنى إلى عقولهم بأبلغ وسيلة، وكان يوصي طلاّب العلم بذلك، فكتب "رسالة تلقين أصول العقيدة للعامّة" يقول في مطلعها:" إذا قيل لك: من ربّك؟ فقل: ربّي الله، فإذا قيل لك: إيش معنى الرّبّ؟ فقل: المعبود المالك المتصرّف. فإذا قيل لك: إيش معنى أكبر ما ترى من مخلوقاته؟ فقل: السّموات والأرض ". إلى آخر الرّسالة [254].

ثالثا: أنّ مؤلّفاته المتميّزة لم تكن إلاّ جملة استخلاصات عقائديّة حاسمة، وتقريرات حازمة: نصّ معضّد بنصّ دون تعقيدات في التّعامل معها، ذكّر بها النّاس ودعا إليها للتّحرّر

[254] الدّرر السّنّيّة في الأجوبة النّجديّة. تحقيق: عبد الرّحمن بن محمّد بن قاسم. تأليف: علماء نجد الأعلام. ط: 6. س: 1417هـ - 1996م.(1 / 151- 154).

من كلّ أصناف الشّرك الظّاهر والخفيّ نتيجة تراكمات قرون الانحطاط التي انعكست سلبا على الأمّة في المستويات السّياسيّة والاجتماعيّة والفكريّة وبالتّالي الحضاريّة.

فالخلاصة أنّ كلّ من تتبّع مكتبة الشّيخ رحمه الله تعالى وتأمّل فيها ينتهي إلى خلاصتين اثنتين هما بمثابة المحورين الأساسيّين الذين هيمنا وتمحور حولهما جميع مؤلّفاته، وهما: التّوحيد الخالص والعلم النّافع، لأنّهما يمثّلان بالنّسبة له أبرز خصائص الإسلام وما يتميّز به.

د. أهّم أصول الدّعوة الإصلاحيّة للشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب:

كانت أصول ابن عبد الوهّاب الفكريّة " إسلاميّة نقيّة خالصة "، لم تختلط بنطف فكريّة غريبة حضاريّاً ولم تتعرّض فطرته الدّينيّة، للتّلوّث الفكري أو الانبهار بالغرب الذي تعرّضت له نخب سياسيّة وفكريّة كثيرة في وطننا الإسلامي الكبير، وهذا يحملنا على القول بأنّ ابن عبد الوهاب يُعدّ نموذجاً معياريّا لمعنى الإصلاح الشّرعي القابل للتّنفيذ، وهو بذلك يضرب ضربة لازبة كلّ عابث واهم يهرف بإصلاح خارج الشّريعة، قال الحقّ تبارك وتعالى:" وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ " [255].

وعليه، فإنّنا نقرّر أنّ أهّم مبادئ وأصول الدّعوة الإصلاحيّة لمحمّد بن عبد الوهّاب هي:

ـ التّركيز الشّديد على التّوحيد، وتخليصه من كلّ ما شابه من شرك. والتّوحيد عنده هو الاعتقاد بأنّ الله وحده هو خالق هذا الكون، وأنّه هو المسيطر عليه، وواضع قوانينه التي يسير عليها، وليس في الخلق من يشاركه في خلقه ولا في أمره ولا في تشريعه، فالله تعالى هو المعبود بحقّ وهو الذي له الأمر وحده في ضبط معاني العبوديّة سواء كانت نسكا أو شعائر ظاهرة وباطنة أو حدودا أو حكما أو وولاء.

ـ الرّجوع بالنّاس إلى التّوحيد الخالص والسّعى إلى تنقية العقيدة من كلّ الشّوائب والشّبهات، ومن كلّ أنواع الشّرك المختلفة، وهذا هو أصل دين الإسلام الذي كان عليه المسلمون في الصّدر الأوّل.

---

[255] البقرة 10- 11.

ولذلك أطلق على حركته اسم " التّوحيد " وعلى أتباعه اسم " الموحّدين ".

ـ ردّ كلّ مسألة من مسائل العقيدة ما لم يستند إلى دليل واضح من كتاب أو سنّة، مع الاعتماد على منهج أهل السّنّة والجماعة في فهم الدّليل والبناء عليه.

ـ محاولة تطبيق النّموذج النّبويّ ولزوم غرز الرّسول واتّبَاعُه في عقائده وفي أقواله وأفعاله وتقريراته وسيرته بما في ذلك طريق التّمكين للدّعوة، ولذلك تفهم لماذا عرض دعوته على الأمراء قصد إقامة دين الله في الأرض، كما فعل النبيّ تماما في عرضه الرّسالة والنّصرة على قبائل العرب، امتثالا لقوله تعالى:" لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً "[256].

ـ الثّورة على الوضع الاجتماعي القائم والتّمرّد على النّمط الدّيني السّائد الذي انحدر إليه أكثر النّاس فكانت حركته الإصلاحيّة من أعظم الثّورات العارمة التي شهدها المسلمون منذ بعثة النّبيّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم ضدّ الاستبداد والضّعف والانحلال والفساد والتّخلّف الذي آل إليه العالم الإسلامي.

ـ طرح البدع والخرافات والأوهام المنتشرة بسبب الجهل والتّخلّف، ومحاربة الخطر الأعظم الذي يهدّد صفاء الإسلام ونقاءه ممّا يسبّب في تفكّك الأمّة وانهيارها. وكانت طبقة " كهنة " المشايخ ورؤساء القبائل وأدعياء التّصوّف هم الرّاعون لتلك البدع حيث قد تسلّطوا على النّاس وخدعوهم باسم الدّين ومارسوا عليهم سلطات كبرى وتمتّعوا بحصانات عظمى.

ـ محاربة التّقليد ورفض الجمود وتحرير العقل من سلطة المذهب والقبيلة والأجداد، والتّمرّد عليها بالاتّصال المباشر بالنّصّ تسليما لسلطته، مع الاستفادة من اجتهادات العلماء المستندة إلى الدّليل الرّاجح.

ـ رفض التّفاعل مع إنتاجات ثقافة الحضارات الأخرى رفضاً مطلقاً تأثّرا بمدرسة الحديث، وبواقعه البيئي والحضاري، فلم ينخرط في جدالات وتساؤلات التّحدّيات التي طرحها ما يسمّى " التّمدّن "و" التّحديث " التي لم تكن مطروحة في الحجاز.

---

[256] الأحزاب 21.

ـ حضور الوعي بوضع الأمّة بقوّة وقد جسّده في توحيد الحجاز، وإرساله الرّسائل والرّسل إلى العالم الإسلامي ممّا يدلّل على أنّ طبيعة عولمة مشروعه، ولقد أحدثت رسائل حركته إلى المغرب الإسلامي أثرا إيجابيّا بنسب متفاوتة في المغرب الإسلامي، ففي تونس أجبرت تلك الرّسالة باي تونس حمّودة باشا على طمس معلم من معالم الشّرك يمارس فيه النّاس عقائد وثنيّة صارخة، فأصدرت سلطته فتوى تكسّر ذلك المعلم، كما حضر حمّودة باشا الباي بنفسه عمليّة الكسر تلك. ففي يوم الثّلاثاء عاشر شعبان سنة 1227 هجري، 18 أوت 1812 م، كَسَر الحجر الذي كان بشاطئ بحر سيدي أبي سعيد المعروف بكرسيّ الصّلاح، بفتوى العالم المفتي أبي العبّاس أحمد البارودي، وحضر كسره بنفسه، لأنّ الجهّال كانوا يذبحون به، ويلقون المذبوح في الماء، ومنهم من يشترط عدم التّسمية. وكان ذلك في عنفوان هرج الوهّابي " [257].

ـ لم يكن مشروع ابن عبد الوهّاب الإصلاحي مذهبا فقهيّا، كما يظنّ بعض النّاس، كما لم يأتِ بمذهب إصلاحي جديد، وإنّما هو " **أحيى** " النّصّ وردّ له اعتباره وعظّمه في نفوس أتباعه كما هو منهج أهل القرون الأولى **حبّا وفهما وعملا** ، متّبعا الدّليل والبرهان من أيّ إمام من الأئمّة الأربعة، إلاّ أنّه . في الحقيقة .كان شديد التّأثّر بأئمّة أهل الحديث كأحمد بن حنبل (164هـ / 780م ـ 241هـ / 855م) وابن تيميّة وابن القيّم (691 هـ - 751 هـ / 1292م - 1349م) الذين حاربوا الخرافات والبدع، ودعوا النّاس إلى الرّجوع إلى القرآن والسّنّة بفهم سلف الأمّة، لأنّ ذلك . حسب رأي الشّيخ . هو السّبيل الذي يمثّل الإسلام الأصيل الصّافي، وهو أيضا المنهج الوحيد لإنقاذ الأمّة والكفيل بإصلاح أنظمة الحكم والمجتمع. قال الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب:" لستُ ولله الحمد أدعو إلى مذهب صوفيّ أو فقيه، أو متكلّم أو إمام من الأئمّة الذين أعظّمهم مثل ابن القيّم والذّهبي و ابن كثير و غيرهم، بل أدعو إلى الله وحده لا شريك له و أدعو إلى سنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم التي أوصى بها أوّل أمّته و آخرهم..." [258]. وقال في رسالة أخرى:" وأخبرك أنّي و

---

[257] أحمد بن أبي الضّياف. إتحاف أهل الزّمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان. نشر كتابة الدّولة للشّؤون الثّقافيّة والأخبار. ط: 1. س: 1383 هـ - 1963 م. ص: 59.

[258] أحمد بن عبد العزيز الحليبي. " روافد التّغيير الثّقافي في دعوة الإمام محمّد بن عبد الوهّاب " مجلّة الدّرعيّة: العددان (18/ 19). جمادى الآخرة - رمضان 1423 هـ / سبتمبر - ديسمبر 2002 م. مكّة المكرّمة.

لله الحمد متّبع و لست بمبتدع، عقيدتي و ديني الذي أدين الله به مذهب أهل السّنّة والجماعة الذي عليه أئمّة المسلمين، مثل الأئمّة الأربعة وأتباعهم إلى يوم القيامة " [259].

وقال في رسالة ثالثة:" وأمّا مذهبنا فمذهب الإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السّنّة، ولا ننكر على أهل المذاهب الأربعة إذ لم يخالف نصّ الكتاب والسّنّة و إجماع الأمّة و قول جمهورها " [260]. وقال أيضا:" وصورة الأمر الصّحيح أنّي أقول: ما يُدْعى إلاّ الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى في كتابه:" فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدَا " [261]، وقال في حقّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم:" قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً "[262]، فهذا كلام الله والذي ذكره لنا رسول الله ووصّانا به... وهذا الذي بيني وبينكم، فإن ذكر شيء غير هذا فهو كذب وبهتان " [263].

اتُّهم الشّيخ ابن عبد الوهّاب بأنّه كان حريصا على فرض رأيه على النّاس وإلزامهم به، والحقّ أنّه كان ينهى عن تقليده وكان يدعو النّاس إلى اتباع العلماء بأدلّتهم، فيقول:" لا تأخذوا بكلامي و اضربوا بكلامي بعرض الحائط...". ويقول أيضاً:" يا عباد الله لا تطيعوني واسألوا أهل العلم من كلّ مذهب عمّا قال الله ورسوله " [264]. بل لقد جعل الشّيخ التّقليد في مسائل الدّين من أصول الجاهليّة الكتابيّين والأمّيّين التي ينبغي مخالفتها، فقال:" هذه أمور خالف فيها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ما عليه أهل الجاهليّة الكتابيّين والأمّيّين، ممّا لا غنى للمسلم عن معرفتها.

فالضّدّ يضرّ حسنَه الضّدُّ وبضدّها تتبيّن الأشياءُ

فأهمّ ما فيها وأشدّها خطراً عدم إيمان القلب بما جاء به الرّسول، فإن انضاف إلى ذلك

---

[259] محمّد بن أحمد بن إسماعيل المقدّم. " خواطر حول الوهّابيّة. ط: دار التّوحيد للتّراث ". الإسكندريّة. ط: 1. 1429 هـ - 2008 م. ص 32.

[260] موسوعة مؤلّفات الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب. الرّسائل الشّخصيّة. النّاشر: مكتبة ابن تيميّة. 1396 هـ/ 1976 م. الرّسالة السّادسة عشرة ص 107.

[261] الجنّ 18.

[262] الجنّ 21.

[263] الدّرر السّنّيّة في الكتب النّجديّة. الدّار العربيّة للطّباعة والنّشر. بيروت. لبنان. ط: 2. س: 1402 هـ - 1982 م. (1/215-216).

258) أحمد بن عبد العزيز الحليبي. " روافد التّغيير الثّقافي في دعوة الإمام محمّد بن عبد الوهّاب " مجلّة الدّرعيّة: العددان (18/ 19). جمادى الآخرة - رمضان 1423 هـ / سبتمبر - ديسمبر 2002 م. مكّة المكرّمة.

[264] موسوعة مؤلّفات الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب. الرّسائل الشّخصيّة. ط: مكتبة ابن تيميّة. 1396 هـ - 1976 م. الرّسالة الثّامنة. ص 55.

استحسان ما عليه أهل الجاهليّة تمّت الخسارة كما قال تعالى:" وَالَّذِينَ آَمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ " [265]... ثمّ ذكر أنّ التّقليد هي المسألة الرّابعة التي عليها أهل الجاهليّة، فقال:"... أنّ دينهم مبنيّ على أصول أعظمها التّقليد، فهو القاعدة الكبرى لجميع الكفّار أوّلهم وآخرهم، كما قال تعالى:" وَكَذَلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَارِهِم مُّقْتَدُونَ "[266]. وقال تعالى:" وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا . أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ" [267]. فأتاهم بقوله:" قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ". وقوله:" اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ [268]"[269].

ومن مظاهر رفض الشّيخ ابن عبد الوهّاب التّقليد أنّه دعا كلّ مسلم عامّة وكلّ أتباعه خاصّة أن يتعلّم ولا يقلّد فقال في مقدّمة كتابه " الأصول الثّلاثة ": " اعلم ـ رحمك الله ـ أنّه يجب علينا تعلّم أربع مسائل. الأولى: العلم وهو معرفة الله ومعرفة نبيّه ومعرفة دين الإسلام بالأدلّة. الثّانية: العمل به. الثّالثة: الدّعوة إليه. الرّابعة: الصّبر على الأذى فيه. والدّليل قوله تعالى بسم الله الرّحمن الرّحيم " وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ [270]" [271].

فالرّجل قد جعل التّقليد الأعمى واتّباع الآباء والأجداد من مسائل الجاهليّة، وأمر النّاس وجوبا بطلب العلم، ثمّ إنّه نهى عن تقليده، بل قضى حياته رحمه الله تعالى يحاور النّاس ويجادلهم بالحسنى.

إنّ كلّ منصف ينشد الحقّ ويريده، عليه أن يقرأ كتب الشّيخ و يعتمد عليها للحكم له أو

---

[265] العنكبوت 52.
[266] الزّخرف 22.
[267] لقمان 20.
[268] سبأ 46.
[269] انظر كتابه " 128 مسألة من مسائل الجاهليّة ". شرح: صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان. نشر: دار العاصمة للنّشر والتّوزيع. الرّياض. ط: 1. س: 1421هـ - 2005 م. ص 18.
[270] سورة العصر
[271] محمّد بن عبد الوهاب. الأصول الثّلاثة. شرح محمّد بن صالح العثيمين. نشر: دار الإيمان. الاسكندريّة. مصر. 1422 هـ - 2001 م. من (ص 19 إلى ص 25).

عليه، عندها سيظهر بطلان الدّعاوى الباطلة التي ألحقت به من تشدّد وتفسير حرفي للنّصّ الدّيني، ومجابهة أيّ شخص يخالفه، واتّهامه رحمه الله تعالى أنّه يرى نفسه الممثّل الشّرعي والوحيد للدّين، هذا فضلا عن إذلال المرأة واضطهادها. لقد كانت دعوة الشّيخ ابن عبد الوهّاب دعوة للحوار الموضوعي المنفتح على الآخرين، رائده في ذلك إماماه أحمد بن حنبل وابن تيميّة وهما يحاوران من خالفهما رغم الاضطهاد الكبير الذي سُلّط عليهما.

إنّه لا بدّ أن نسجّل أنّ من أهمّ فضائل الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب نشره التّراث العلمي الحواريّ الضّخم لعقيدة السّلف الذي أسّسه المجدّد ابن تيميّة الذي ذبّ عن تلك العقيدة في وجه أهل الكلام الذين حاولوا صنع عقائد للمسلمين على نهج الفلاسفة والمناطقة الذين غلوا في إعمال العقول في تفسير النّصوص القرآنيّة والنّبويّة. لقد أزاح ابن عبد الوهّاب الغبار على تلك الثّروة العلميّة السّلفيّة الهائلة الضّخمة، وقد ظلّت مهملة مطويّة وخافية منسيّة لأكثر من ثلاثة قرون.

تلخيص دعوة الشّيخ ابن عبد الوهّاب: فلو أردنا أن نلخّص دعوة الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب، نقول إنّ الأسس التي بنى عليها دعوته هي الآتية:

أوّلا: أنّه لم يحد عن **الوحي** ـ (الكتاب والسّنّة) ـ قيد أنملة، فأعاد ابن عبد الوهّاب . رحمه الله . المسلمين إلى عقيدتهم الأولى عبر اتّخاذه النّصّ ـ الذي أهمله الآخرون ـ دليله الوحيد إلى تلك العقيدة الخالصة الصّافية.

ثانيا: أنّه . رحمه الله . جسّد التّوحيد الخالص في ضمائر المسلمين وأرضهم، لأنّ التّوحيد هو الطّابع المميّز للإسلام، ولأنّ استقرار التّوحيد في ضمائر المسلمين هو الشّرط الضّروريّ و الصّراط السّويّ الذي لا محيد عنه لإصلاح عقولهم وأخلاقهم ونظمهم وأوضاعهم.

ثالثا: أنّه . رحمه الله . جدّد إحياء مفهوم توحيد الاتّباع لكلّ الرّسل وبالأخصّ منهم الرّسول محمّد صلّى الله عليهم وسلّم، وهو الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم، وهو الذي سار عليه السّلف الصّالح في التّلقّي عن النبيّ فهما واعتقادا ومنهجا وعملا، وهو عين ما كان عليه الأنبياء عليهم السّلام من علم وعمل.

فالمقصود أنّ حركة الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب قامت بتنقية الدّين وتخليصه من الشّرك والبدع وأعمال الجاهليّة، ولذلك اهتمّ أيضا ببسط الحديث عن بيان ما يضادّ التّوحيد الخالص وينقضه، ففصّل في بيان الشّرك وأنواعه، والكفر وأنواعه، والنّفاق وأنواعه، حتّى أنّه ذهب مذهبا عجيبا حين اعتبر شرك العرب زمن بعثة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أخفّ من شرك زمانه لأمرين: أوّلهما: أنّ الأوّلين كانوا يشركون ويدعون معبوداتهم الباطلة في الرّخاء، أمّا في الشّدّة فيخلصون لله الدّين" وَإِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً "[272]. وثانيهما: قال:" إنّ الأوّلين يدعون مع اللهِ أُنَاساً مقرَّبين عند الله، إمّا أنبياء وإمّا أولياء وإمّا ملائكة، أو يدعون أحجاراً أو أشجاراً مطيعةً لله ليست عاصية، وأهلُ زماننا يدعون مع اللهِ أُناساً من أفسق الناس،... والذي يعتقد في الصّالح أو الذي لا يعصي مثل الخشب والحجر أهون ممن يعتقد فيمن يُشاهد فسقه وفساده ويشهد به..." [273].

رابعا: كان الشّيخ ابن عبد الوهّاب مهموما بعودة الأمّة إلى سيادتها وعزّها ومجدها ورقيّها وازدهارها الذي كان عليه المسلمون الأوائل لما تمسّكوا بدينهم، فعمل على توحيد العرب بالدّين ناسباً سبب تلاشيهم وتفرّقهم وذهاب ريحهم ونفوذ الكفّار فيهم وتداعيهم عليهم بابتعادهم عن سيرة السّلف الصّالح، وابتعادهم عن خُلقهم العربي الأصيل، وأنّ الحلّ في تطبيق الدّين الإسلامي مع الاستفادة من اجتهادات أهل الذّكر. فراح يجتهد بكلّ قواه حتّى حقّق الله على يديه توحيد الحجاز على أساس ديني، ممّا يثبت قدرة الإسلام على الحكم، وأنّه السّبيل الوحيد القادر على جمع العرب وتوحّدهم وتقدّمهم.

خامسا: لا بدّ أن نقرّر مسألة مهمّة في مسيرة محمّد بن عبد الوهّاب الإصلاحيّة أنّه يكاد يكون قد أهمل كلّ الميراث الأصولي الاجتهادي الذي أضافه المسلمون على مرّ القرون في تعاملهم مع النصّ، ورفض رفضا مطلقا أن يقلّد من جاء بعد سلف القرون المفضّلة الثّلاثة، إلاّ من تبعهم بإحسان، كما زهد في التّمسّك بتفسيرات للإسلام غير تفسيراتهم، إدراكا

---

[272] الإسراء 67.

[273] شرح كشف الشّبهات. تحقيق: محمّد بن عبد الرّحمن بن قاسم. محمّد بن إبراهيم آل الشيخ. نشر: دار الوطن. الرّياض. س: 1413 هـ - 1992 م. ص 86.

منه لأهمّيّة العودة المباشرة إلى المصدرين الأصليّين: القرآن الكريم والسّنّة الشّريفة وحصر الثّقة فيهما، بدلا من الاعتماد على تفسيرات مأخوذة من غيرهما، وهذا هو التّجديد الذي قام به الشّيخ أنّه مارس " التّفكير المستقلّ "، وأحيي مدرسة أهل الحديث السّابقة لنشوء المذاهب والفرق، ولم يُعِرْ مدرسة أهل الفقه وكلّ منهج تراث ابن تيميّة وابن القيّم أيّ اهتمام، بل عاد بنا إلى ما قبل الفقه والمذاهب وتراثهما الضّخم ممّا يؤكّد حرصه الواضح و عزمه الشّديد على جعل القرآن والحديث وحدهما مصادر الإسلام، لا يقدّم عليهما أمرا، ولا يسبق عليهما خبرا، ممّا جعل البعض يقول: إنّ الشّيخ له مشكل جوهري في التّعامل مع النصّ حيث لا تجد الاجتهاد الفقهي والأصولي في كتب ابن عبد الوهّاب، لأنّه اعتبر التّعامل مع الحديث هو الفقه، بل الدّين كلّه، في حين أنّ ابن تيميّة ـ مثلا ـ كان مجدّدا مجتهدا، له ميراث كبير في الاجتهاد وأصول الفقه والمنطق رغم أنّ الكلام والمنطق ليسا منهجه.

سادسا: إنّ ابن عبد الوهّاب يكاد يكون قد استنسخ فكر ابن تيميّة (ت 728 هـ) وابن القيّم (ت 756 هـ) بأسلوب سهل وبتبويب على غرار علماء الحديث. فإذا تقرّر ذلك، فإنّنا يمكن أن نقول: إنّ جوهر دعوة ابن الوهّاب ما هو إلاّ إحياء لتعاليم مدرسة الإمام ابن تيميّة، فكانت دعوته صدى لفكره، وترجمة لأهدافه في واقع عملي، غير أنّ ابن عبد الوهّاب حاز الشّهرة به، وإليه نُسِبت المدرسة بداية من عصره إلى اليوم، حيث وُفّق لإظهارها بالقول و على الأرض، ولم يتحقّق هذا لشيخ الإسلام ابن تيميّة في هذا حيث مات رحمه الله تعالى سجينا.

فالمقصود أنّ الشّيخ محمّد ابن عبد الوهّاب تحرّك داخل فكر ابن تيميّة، بل داخل جزء منه تعلّق بالعقيدة وبأنواعها، وبكلّ ما يشوّش عليها من جاهليّة وطاغوت، بمعنى أنّ الشّيخ محمّد ابن عبد الوهّاب أحيى محورا من المحاور الخمسة التي دار عليها عمل ابن تيميّة في العمل الإصلاحيّ الضّخم للمنهج السّلفي [274]، كما عبّر عن ذلك المستشرق

[274] وهي:أوّلا: تجديد عقيدة التّوحيد التي كان عليها النّبيّ وأصحابه. ثانيا: تعظيم النّصّ الشّرعيّ. ثالثا: نقد بدع الفلسفة والمنطق وعلم الكلام. رابعا: الرّدّ على الفرق الإسلاميّة المبتدعة وعلى الملل الكافرة. خامسا: تجديد العلوم الإسلاميّة.

جولد تسيهر [275]:" وضع ابن تيميّة ألغاما في الأرض فجّر بعضها محمّد بن عبد الوهّاب، وبقي بعضها لم يفجّر حتّى الآن" [276].

سابعا: تربية الأمّة على الاعتزاز بالإسلام والاستعلاء بالإيمان والافتخار بعظمة العقيدة، قال الشّيخ ابن عبد الوهّاب:" لكن إذا أقبلت على الله، وأصغيت إلى حججه وبيّناته، فلا تخف ولا تحزن، " إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا " [277]، والعامّي من الموحّدين يغلب الألف من علماء هؤلاء المشركين، كما قال تعالى:" وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ [278]" [279].

ثامنا: لأنّ الإصلاح لا بدّ له من عدم التّسليم بكلّ المعارف السّائدة، ولا بدّ له أيضا من مراجعة ونقد تصحيحي للقديم والبحث ومساءلة، حتّى لا نسلم بكلّ المعارف، فقد اعتمد الشّيخ محمّد ابن عبد الوهّاب على منهج النّقد الصّارم، واعتباره ميزانا علمياً موضوعيّا، فكان ـ من أبرز نقده، أن ساوى بين توحيد مشركي زمانه و شرك العرب زمن بعثة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، بل اعتبر شرك الأوّلين أخفّ من شرك زمانه لأمرين أوّلهما: أنّ الأوّلين كانوا يشركون ويدعون معبوداتهم الباطلة في الرّخاء، أمّا في الشّدّة فيخلصون لله الدّين، وثانيهما: أنّ الأوّلين يدعون مع اللهِ أُنَاساً مقرَّبين عند الله، إمّا أنبياء وإمّا أولياء وإمّا ملائكة، أو يدعون أحجاراً أو أشجاراً مطيعةً لله ليست عاصية، وأهلُ زماننا يدعون مع اللهِ أُناساً من أفسق الناس... "[280].

---

[275] إجناتس جولد تسيهر (1266 - 1340 هـ / 1850 - 1921 م) مستشرق يهودي مجري. يعتبر على نطاق واسع بين مؤسّسي الدّراسات الإسلاميّة الحديثة في أوروبا. هو أوّل مستشرق قام بمحاولة واسعة شاملة للتّشكيك في الحديث النّبوي فألّف الكتب وكتب المقالات بهدف الطّعن في السّنّة واعتبر المشرقون كتبه المرجع الأساس في دراساتهم للأحاديث والسّنن. من كتاب العقيدة والشّريعة في الإسلام. لإجناتس جولد تسيهر. نقله إلى العربيّة محمّد يوسف موسو عبد العزيز عبد الحقّ وعلي حسن عبد القادر. ط: 1. دار الرّائد العربي.بيروت. 1365 هـ - 1946 م. مقدّمة ص: ح.

[276] عائض بن عبد الله القرني. من كتاب " على ساحل ابن تيمية ". مكتبة العبيكان الرّياض. ط: 1. س 2002. ص 120.

[277] النّساء 75.

[278] الصّافّات 172.

[279] شرح كشف الشّبهات. تحقيق: محمّد بن عبد الرّحمن بن قاسم. تأليف: محمّد بن إبراهيم آل الشيخ. نشر دار الوطن. الرّياض . السّعوديّة. سنة 1413هـ - 1992 م . ص 48.

[280] شرح كشف الشّبهات. تحقيق: محمّد بن عبد الرّحمن بن قاسم. محمّد بن إبراهيم آل الشيخ. نشر: دار الوطن. الرّياض. س: 1413 هـ - 1992 م. ص 86 بتصرّف.

مجالات العمل الإصلاحي للشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب

تعدّدت مجالات العمل الإصلاحي للشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب، فكان منها:

1 . إصلاحه العقدي: لعلّ أبرز ما يبيّن العمل الإصلاحي للشّيخ ابن عبد الوهّاب في هذا الباب رسالته الطّويلة التي بعث بها إلى أهل القصيم لما سألوه عن عقيدته [281]. وفي رسالة أخرى لخّص دعوته أو قل عقيدته فقال:" أخبرك أنّي ولله الحمد متّبع و لست بمبتدع، عقيدتي و ديني الذي أدين الله به مذهب أهل السّنّة و الجماعة الذي عليه أئمّة المسلمين، مثل الأئمّة الأربعة وأتباعهم إلى يوم القيامة. لكنّي بيّنت للنّاس إخلاص الدّين لله ونهيتهم عن دعوة الأحياء و الأموات، وعن إشراكهم فيما يعبد الله به من الذّبح و النّذر والتّوكّل والسّجود و غير ذلك ممّا هو حقّ لله لا يشركه فيه ملك مقرّب لا نبيّ مرسل، وهو الذي دعت إليه الرّسل أوّلهم إلى آخرهم، وهو الذي عليه أهل السّنّة والجماعة " [282].

2 ـ الاجتهاد في فهم دلالة النّصوص الشّرعيّة: ومن الأعمال الإصلاحيّة التي قام بها محمّد بن عبد الوهَّاب تعامله مع النّصّ الشّرعي، وفي هذه المسألة مرّ الشّيخ بمرحلتين:

ـ المرحلة الأولى: وهي مرحلة النّشأة التي التزم فيها بالنّمط المتوارَث السّائد الذي هيمن عليها أجواء من الانغلاق الفكري و الجمود العلمي والالتزام بالتّقليد المذهبي، والتّمسّك الحرفي بظاهر النّصّ لا يتجاوزونها إلى تلقّي أحكام الشّريعة من الأدلّة الأصليّة: الكتاب والسّنّة.

ـ المرحلة الثّانية: إفلات الشّيخ من أغلال أثقال التّقليد، وطفق يتحرّر منها بالتّفكير المنضبط والعقليّة المستقلّة والبصيرة الواسعة، وبلغ ـ كما يذكر الشّيخ عبد الرّحمن ابن عبد اللّطيف آل الشّيخ ـ " الغاية القُصوَى والطّريقة المُثْلَى في معرفة معاني الكتاب

---

[281] الدّرر السّنّيّة في الأجوبة النّجديّة .تحقيق: عبد الرّحمن بن محمّد بن قاسم. المؤلّف: علماء نجد الأعلام. ط: 6. س: 1417هـ - 1996م. (2/ 207 - 272.)

[282] نفسه: (1/ 79 - 83) بعث بها الشّيخ ابن عبد الوهّاب إلى الشّيخ عبد الرّحمن السّويدي وهو أحد علماء العراق.

والسّنّة واستنباط ما فيهما من الأسرار الشّرعيّة والأحكام الدّينيّة " [283].

3 – دعوته إلى الاجتهاد وفتح بابه في الفروع: كان الشّيخ مُقتنعا بالاجتهاد في فروع الدّين. وقد بيّن رحمه الله تعالى أنّه لم يصل درجة الإجتهاد المطلق، ولكنّه لا مانع له من أن يجتهد داخل مذهبه في الفروع:" ولا نستحقّ مرتبة الاجتهاد المطلق، ولا أحد لدينا يدّعيها، إلاّ أنّنا في بعض المسائل، إذا صحّ لنا نصّ جليّ من كتاب أو سنّة غير منسوخ ولا مخصّص ولا معارض بأقوى منه، وقال به أحد الأئمّة الأربعة: أخذنا به، وتركنا المذهب، كإرث الجدّ والأخوة، فإنّا نقدّم الجدّ بالإرث، وإن خالف مذهب الحنابلة "[284]. وقال أيضا:" ولا مانع من الاجتهاد في بعض المسائل دون بعض، فلا مناقضة لعدم دعوى الاجتهاد، وقد سبق جمع من أئمّة المذاهب الأربعة، إلى اختيارات لهم في بعض المسائل، مخالفين للمذهب، الملتزمين تقليد صاحبه "[285]. يقول الدّكتور محمّد بن عبد الله السّلمان في هذا الشّأن: " إذا نظرنا إلى الآثار الفقهيّة للشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب، فإنّنا لا يمكن أبدًا أن نعدَّه من طبقة أصحاب الاجتهاد المطلَق، وإنّما نعدُّه من طبقة المجتهد المنتسِب لمذهب معيَّن، فهو منتسِب للمذهب الحنبلي ومع ذلك فله اجتهادات تخرج به أحيانًا عن أقوال هذا المذهب إلى غيره " [286]. ومن ممارسته للاجتهاد ردُّه اختلاف الآراء وتعارُض الأقوال داخل مذهبه إلى النّصّ، قال رحمه الله: " إذا اختلف كلام أحمد وكلام أصحابه، فنقول: في محلّ النّزاع الرّدّ إلى الله والرّسول لا إلى كلام أصحابه، ولا إلى الرّاجح المرجَّح من الرّوايتين والقولين... ثمّ قال: " وبالجملة، فمتى رأيتَ الاختلاف فرُدَّه إلى الله والرّسول، فإذا تبيَّن لك الحقُّ فاتّبعه، فإن لم يتبيَّن واحتجت إلى العمل فقلِّد مَن تَثِقُ بعلمه ودينه " [287].

4 – تصدِّيه للتعصُّب المذهبي: إذا أبدى الشّيخ تعظيمًا لبعض العلماء، فإنّه لا

---

[283] أحمد بن عبد العزيز الحليبي. " روافد التّغيير الثّقافي في دعوة الإمام محمّد بن عبد الوهّاب ". مجلّة الدّرعيّة: العددان (19/18). جمادى الآخرة - رمضان 1423هـ - سبتمبر - ديسمبر 2002م. مكّة المكرّمة. ص 6.

[284] الدّرر السّنيّة في الأجوبة النّجديّة .تحقيق: عبد الرّحمن بن محمّد بن قاسم. المؤلّف: علماء نجد الأعلام. ط: 6. س: 1417هـ - 1996م (1/ 277).

[285] نفسه (1/ 228).

[286] منّاع بن خليل القطّان. " اعتماد دعوة الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب على الكتاب والسّنّة ". النّاشر: عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة. الرّياض. ط: 2.س: 1411هـ - 1991م. ص 101.

[287] أحمد بن عبد العزيز الحليبي. روافد التّغيير الثّقافي في دعوة الإمام محمّد بن عبد الوهّاب. الدّرعيّة: العددان (19/18). جمادى الآخرة - رمضان 1423هـ/ سبتمبر - ديسمبر 2002م. مكّة المكرّمة. ص 6.

يصل درجة التّعصُّب لأقوالهم، بل لأخذ بأقوالهم لمدى ما يراها قريبة من الحقّ. وممّا جاء عنه في هذا الصّدد قوله رحمه الله تعالى: " لَسْتُ ولله الحمد أدعو إلى مذهب صوفيّ أو فقيه أو متكلّم أو إمام من الأئمّة الذين أعظِّمُهم، مثل ابن القيِّم والذّهبي وابن كثير وغيرهم، بل أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وأدعو إلى سنّة رسوله صلّى الله عليه وسلّم التي أوصَى بها أوَّل أمَّته وآخِرَهم، وأرجو أنّي لا أردُّ الحقَّ إذا أتاني " [285].

أمّا العمل بالمذهب وأقوال الفقهاء عنده، فهو رهين موافقتها للنّصّ، فقال:" أمَّا المتأخِّرون رحمهم الله ـ أي من الفقهاء وغيرهم ـ فكتبهم عندنا، فنعمل بما وافَق النصَّ منها، وما لا يوافق النّصّ لا نعمل به " [286]. فالشّيخ مقلّد لمذهب أحمد غير أنّه لا يرى بالتّقليد المطلق والتعصُّب لأقول أئمّة المذهب على دلالة النّصِّ القاطع، قال رحمه الله تعالى:" لا ننكر على أهل المذاهب الأربعة إذا لم يخالف نصَّ الكتاب والسّنّة و لا إجماع الأمّة و لا قول جمهورها " [287].

لقد كان الشّيخ محمّد بن عبد الوهَّاب شجاعًا في طرقه فتح باب الاجتهاد في زمن الانغلاق والتّعصّب والتّقليد والضّيق بالمخالف " المشاغب العاق " وإرهابه إن اعتدى على الموروث الفقهي " المقدّس ".

واعتبارا لكلّ ما سبق، فإنّه لا يستقيم أن يُتَّهَم الشّيخُ المصلحُ المجدّدُ بالجمود والانغلاق والتّشدّد والتّقليد وتأسيس مذهب جديد. والحقّ أنّ الشّيخ دعا إلى الالتزام بالدّليل الشّرعي والتّحرُّر من ربقة التّقليد، سواء في مبحث العقيدة أو الفقه.

لقد ردّ الشّيخ الاعتبار للنّصّ وعظّمه في واقع متردّ متخلّف، وأصرَّ على التّسليم للقرآن الكريم و للسّنّة النّبويّة الصّحيحة، والعمَل بهما حسب معانيهما السّهلة دون جدال. وإنّه لا بدّ أن نقرّر ضخامة العمل الذي قام به الشّيخ في تحويل نفوس النّاس في فترة زمنيّة صار فيه النّصّ الشّرعي فضلة، وقول الفقهاء عمدة.

---

[285] الدّرر السّنّيّة في الأجوبة النّجديّة .تحقيق: عبد الرّحمن بن محمّد بن قاسم. تأليف: علماء نجد الأعلام. ط: 6. س: 1417هـ - 1996م . (1/ 37).
[286] نفسه (1/ 100).
[287] نفسه (1/ 245).

وأحسب أنّ الشّيخ . رحمه الله . ، لا يمنع من الاستفادة من مُنتَجات الحضارة الغربيّة ـ التي لم تصل إليه ـ شريطة أن لا تتنافى مع الدّين الحنيف، لأنّنا لم نجد في آثاره ما يمنع ذلك.

5 – إصلاحه التّعليمي والتّربوي: إنّ دعوة الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب في جوهرها ما هي ـ في الحقيقة ـ إلاّ دعوة تربويّةً، قامت على هذه الأسس:

أ . تحرير العقل بالعلم النّافع وتعميم نشره، وتفعيل تلك التّربية في تطبيق أحكام الإسلام وحدوده، وشعائره الظّاهرة والباطنة، وإقامة مجتمعٍ إسلاميّ يجسّد الدّين عقيدةً وعبادةً وشريعة. ولأنّ الأساس الفكري هو المعوَّل عليه في العمليّة التّربوية، فقد جعل الشّيخ ابن عبد الوهّاب تصحيح العقيدة الجانب المركزيّ والأساس الرّئيس للتّربية، لذلك أولى هذا الأصل العقدي كلّ اهتمامه بحثا وتأليفا ونشاطا وحركة.

ب . العناية بجانب القدوة الحسنة: انطلاقا من أنّ أقوى الوسائل التّربويّة تأثيراً في العمليّة التّربويّة ـ كما قرّر أهل الاختصاص ـ الأسوة الحسنة، فقد اهتمّ الشّيخ . رحمه الله . بهذا الجانب اهتماماً شديداً حيث اجتهد في الالتزام بالسّنّة في نفسه أوّلا، ثمّ ما قام به من جهود ضخمة في ردّ النّاس إلى توحيد اتّباع الرّسول، من أجل ذلك ألّف (مختصر سيرة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم) ثمّ اختصر كتاب (زاد المعاد في هدي خير العباد) تحقيقا لهدف الاقتداء بالنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

ج . إلزامية التّعليم لكلّ المسلمين ـ والعامّة منهم خاصّة ـ في مسائل المنجيات من النّار، فألّف . رحمه الله . رسائل صغيرة وملخّصات قصيرة في وجوب تعلّم أساسيّات لا بدّ منها في العقيدة والأحكام والأخلاق تتناسب مع مستويات العوامّ الذهنيّة، في "رسالة تلقين أصول العقيدة للعامّة" بطريقة السّؤال والجواب، كتبها الشّيخ بأسلوبٍ سهلٍ ومُيسّر، وضمَّنها بعض الألفاظ العامّية ليخاطب النّاس على قدر عقولهم وفهومهم. وأكّد على كلّ إمام مسجد ـ من أتباعه ـ إثر الصّلوات أن يستدعي فرداً أو فردين ويُساعدهما في تلقين معلومات العقيدة، ممّا يبرهن حرص الشّيخ على عنايته واهتمامه بتحقيق التّوحيد وتوسيعه لدى جميع النّاس، تحقيقا لانتشار ظاهرة وجود (العامّي الموحِّد). يقول الشّيخ في مطلع رسالة مخصّصة

لهذه المسألة المهمّة:" إذا قيل لك: من ربّك؟ فقل: ربّي الله، فإذا قيل لك: إيش معنى الرّبّ؟ فقل: المعبود المالك المتصرّف. فإذا قيل لك: إيش معنى أكبر ما ترى من مخلوقاته؟ فقل: السّموات والأرض. إلى آخر الرّسالة التي أشرنا إليها أعلاه مرّات عديدة. بل يذهب الشّيخ . رحمه الله . إلى مدح الموحِّد، وذمّ العالم المشرك فيقول:" والعامّي من الموحّدين يغلب ألفاً من عُلماء المشركين كما قال تعالى:" وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ " [288] فجند الله هم الغالبون بالحُجّة واللّسان كما هم الغالبون بالسّيف والسّنان "[289].

د ــ تربية الطّفل وتعليمه: يرى ابن عبد الوهّاب أنّ الأطفال ينبغي أن يكون أوّل ما يتعلّمونه العقيدة وأن يكون ذلك قبل تعلّمهم القرآن. انظر إلى رسالته "تعليم الصّبيان التّوحيد" حيث صاغ تلك الرّسالة في ستّة أسئلة، ليسهل على الصّغار تناولها وحفظها، وقال في مقدّمتها:"... فهذه رسالة نافعة فيما يجب على الإنسان أن يعلّم الصّبيان قبل تعلّمهم القرآن حتّى يصير إنساناً كاملاً على فطرة الإسلام وموحّداً جيّداً على طريقة الإيمان ورتّبتُه على طريقة سؤال وجواب: من ربّك؟ وما معنى الرّبّ؟ بما عرفت ربّك؟ لأيّ شيء خلقك؟ ما دينك؟ وبيّن معنى لا إله إلا الله، ثمّ أركان الإسلام الخمسة ثمّ أصول الإيمان السّتّة، وبيّن معنى الشّرك والعبادة. ولأنّ من تمام معرفة التّوحيد معرفة ما يضادّه من الشّرك، بيّن الشّيخ أنّ أوّل ما فرض الله على عباده الكفر بالطّاغوت والإيمان بالله، وبيّن معنى الطّاغوت. ثمّ ختم رسالته بتعليمهم حبّ الصّحابة والسّلف لأنّهم من خير القرون. [290].

6 ــ إصلاحه السّياسي: يتجلّى اهتمام الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب في إصلاحه السّياسيّ في ربط الإصلاح السّياسيّ بالدّين، ومن هنا يُمكن للمرء أن لا يُوافق الذين يتعمّدون تناول جهود ابن عبد الوهّاب الإصلاحيّة في إطار دينيّ بحت، إصرارا منهم أنّ الشّيخ ما هو إلاّ مصلح ديني واجتماعي، لتغييب الدّور السّياسي للشّيخ وطمس دوره

---

[288] الصّافّات 172.

[289] شرح كشف الشّبهات. تحقيق: محمّد بن عبد الرّحمن بن قاسم. محمّد بن إبراهيم آل الشيخ. نشر دار الوطن. الرّياض. س: 1413هـ - 1992 م . ص 48.

[290] الدّرر السّنّيّة في الأجوبة النّجديّة. تحقيق: عبد الرّحمن بن محمّد بن قاسم. المؤلّف: علماء نجد الأعلام. ط: 6. س: 1417هـ - 1996م. (1 / 151- 154).

الفعّال في تأسيسه التّاريخي للدّولة السّعودية الأولى، وإبعاد أنّه أوّل من طرح فكرة الدّولة المركزيّة في وسط الجزيرة.

فالمقصود أنّ الإصلاح السّياسيّ في حركة الشّيخ هو جوهر إصلاحه الدّينيّ، وما كان خطابه الدّيني إلاّ بمثابة التّأسيس الأيديولوجي لإصلاحه السّياسي الذي كانت الحركة تسعى إلى تحقيقه.

ولأنّ الشّيخ يطمح أن يعود بالأمّة إلى عهد النّبوّة، فقد كان من الطّبيعي ـ من مصلح يعيش ضمن إطار تاريخيّ يتّسم بالانقسام وعدم الاستقرار ـ أن تكون له رؤية سياسيّة لتوحيد المسلمين في ظلّ دولة مركزيّة جامعة. فكان الطّرح الدّيني للشّيخ عن التّوحيد يمثّل استجابة لأمرين: أوّلهما جهل عموم قومه بحقيقة الدّين، وثانيهما استجابة لواقع سياسي وأمني كانا في أمسّ الحاجة إلى وحدة سياسيّة وتمثّل أمني، استجابة لحقيقة أنّ توحيد الألوهيّة بشكل خاصّ هو الصّيغة السّياسيّة والأمنيّة لمفهوم التّوحيد بمعناه العام. " فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ . وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ " [291].

لقد كان الوضع السّائد في غالب نجد شاهدا على تحلّل ديني وولاء قبليّ وتدهور اقتصادي، ممّا أثّر سلباً على الأوضاع الأمنيّة والاجتماعيّة والسّياسيّة، فكانت المنطقة تشهد اضطرابات سياسيّة واجتماعيّة حادّة، وغارات بدو، واقتتال داخليّ يتّسم في الغالب بالشّراسة، وذلك بفعل غياب الوازع الدّينيّ وأيضا بسبب غياب حكومة مركزية قويّة حازمة. وكانت كلّ هذه العوامل هي الأرضيّة الخصبة التي رشّحت للإصلاح المنتظر المنشود.

إنّ الدّلالات السّياسيّة في عمليّة إصلاح الشّيخ ابن عبد الوهّاب كانت شديدة الوضوح في تركيزه على شعاره المركزي " التّوحيد " بأركانه الثّلاثة كما بيّنّا من قبل.

وحيث لا قيام للتّوحيد إلاّ بدولة ،[292] فما إن جاءت ابن عبد الوهّاب فرصة تحالف

---

[291] قريش (3- 4 - 5).

[292] كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيميّة ـ رحمه الله تعالى:" فقوام الدّين بكتاب يهدي وسيف ينصر، وكفى بربّك هاديا ونصيرا. ودين الإسلام أن يكون السّيف تابعا للكتاب، فإذا ظهر العلم بالكتاب والسّنّة وكان السّيف تابعا لذلك كان أمر الإسلام قائما " انظر مجموع فتاوى ابن تيميّة. طبع: مجمع الملك فهد. س: 1416هـ - 1995م.(20 / 393).

مع أحد أمراء المدن القويّة للتّمكين لدولة " التّوحيد "، حتّى اغتنمها لاعتقاده أنّ الدّولة لا بدّ لها من عقيدة، وأنّ العقيدة لا بدّ لها من دولة، وأنّ العقيدة هي بمثابة الرّوح لكلّ نظام سياسيّ، كما تعدّ حجر الزّاوية الذي يَبني عليه السّياسي مشروعيّة وجوده و تبرير استمراره، ووجوب التّضحية من أجل منظومته، كما تمنحه البعد الأخلاقي والقيمي الذي يخضع الأفراد لها.

ومن المفيد أن نُسجّل أنّ ابن عبد الوهّاب لم يستهدف السّلطة كما لم يطمح إلى قيادة سياسيّة لشخصه أو لذرّيته وأسرته، بل من أجل استخدامها للعقيدة، لسبب أنّ العرف الدّيني والاجتماعي في ثقافة نجد يقضي بأن يزهد شيوخ العلم في السّياسة ويترفّعوا عنها ولا يزاحموا فيها.

فالذي يمكن أن نقرّره في مجال الإصلاح السّياسي للشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب أنّه أَحْيى المعنى السّياسي في دائرة التّوحيد ممّا كان له الأثر الفعّال في تأسيس الدّولة السّعوديّة الأولى، وتحقيق وحدة الجزيرة، عبر وفاق بينه وبين محمّد بن سعود عام 1744 ميلاي.

7 - إصلاح الوضع الاجتماعي: تعدّدت جوانب الإصلاح ابن عبد الوهّاب الاجتماعيّة، وهذه بعضها:

أ. ذكرنا اهتمامه بالطّفل وتعليمه فيما سبق.

ب ـ الدّفاع عن المرأة وحقوقها: أنصف الشّيخ المرأة وأعطاها حقوقها التي أقرّها الإسلام لها، فكان لها نصيب كبير في إصلاحه، إدراكا منه لأهمّيّة دورها في المجتمع وفي إصلاحه، فقوّم زيغها العقائدي، وأصلح الخلل الأسري وقوّى الرّباط الزّواجي، ورفع القهر المسلّط عليها، وأخرجها من غبن الرّجل لها. لقد كان ذكور بعض النّجديّين يتحايلون لهضم حقوق الأنثى فينهبون ما أعطاهنّ الله تعالى من ميراث وغيره، كما ذكر الشّيخ ذلك في إحدى رسائله:" من أعظم المنكرات وأكبر الكبائر تغيير شرع الله ودينه والتّحايل على ذلك بالتّقرّب إلى الله، وذلك مثل الأوقاف هذه... إذا أراد الرّجل أن يحرم من أعطاه الله من امرأة أو ابن أو نسل بنات أو غير ذلك، أو يعطي من حرمه الله أو يزيد أحداً أكثر ممّا

فـرض الله أو ينقصـه مـن ذلـك يريـد التّقـرّب إلى الله بـذلك مـع كونـه مبعـداً عـن الله، فالأدلّـة علـى بطـلان هـذا الوقـف ووجـوب عودتـه وقسـمته حسـب مـا قسـم الله ورسـوله أكثـر مـن أن تحصر "[293].

ت . تعلـيم المـرأة: كمـا أمـر النّسـاء بـتعلّم دينهنّ وجعلـه فريضـة علـيهنّ في رسـالة مـن أهـمّ رسـائله عنونهـا ب:" الأصـول الثّلاثـة الواجـب علـى كـلّ مسـلم ومسـلمة تعلّمهـا " فقـال:" اعلـم رحمـك الله أنّـه يجـب علـى كـلّ مسـلم و مسـلمة تعلّـم ثـلاث هـذه المسـائل والعمـل بهـنّ "[294] ، كمـا أوجـب علـى المـرأة أن تبلّـغ ديـن الله تعـالى، وكـان لبناتـه الأسـوة في نشـر العلـم بـين النّسـاء في الدّرعيّـة وخارجهـا، لاسـيما ابنتـه فاطمـة الـتي رحلـت إلى رأس الخيمـة ثمّ عُمـان بعـد سـقوط الدّرعيّـة، وحفيدتـه سـارّة بنـت علـي بـن محمّـد بـن عبـد الوهّـاب الـتي رحلـت إلى مصـر مـع أسـرتها بعـد سـقوط الدّرعيّـة سـنة 1233 هـ وقامـت بالتّـدريس هنـاك ونشـر العلـم وبيـان العقيـدة الصّـحيحة للنّـاس برفقـة عمّهـا الشّـيخ عبـد الله بـن محمّـد ابـن الشّـيخ محمّـد بـن عبـد الوهّـاب رحمهمـا الله الـذي كـان يـدرّس العقيـدة والفقـه في: رواق الحنابلـة في الجـامع الأزهـر، إضـافة لقيـام عـدد مـن النّسـاء آنـذاك بتـدريس القـرآن للفتيـات في البيـوت والكتاتيـب، ممّـا كـان لـه أبلـغ الأثر في تمسّكهنّ بآداب الإسلام "[295].

هـذا وقـد كـان أمـراء الحجـاز يفرضـون علـى النّـاس ضـرائب مجحفـة، فقـام الشّـيخ بمعاهـدة في بنـدها الثّـاني مـع أمـير الدّرعيـة (محمّـد بـن سـعود) يقتضـي بموجبهـا أن يتخلّـى عـن خـراج الثّمـار الذي كان يؤخذ من أهلها [296].

ث . تحقيـق الأمـن: لأنّ الأمـن [297] لا يتحقّـق إلاّ بقـانون ردعـي وزجـري، أقـام الشّـيخ الحـدود بعـد تـأمين الفـرد بالتّربيـة الصّـالحة، ثمّ بعـد تـأمين إصـلاح المجتمـع ــ بيانـا للنّـاس

---

[293] موسوعة مؤلّفات الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب. الرّسائل الشّخصيّة. ط: مكتبة ابن تيميّة. س: 1396 هـ - 1976 م. (12 / 78).
[294] مجموعة التّوحيد النّجديّة. ط: 2. مكتبة الملك فهد الوطنيّة. الرّياض. س: 1419 هـ - 1999 م. ص159.
[295] نسـاء شـهيرات مـن نجـد. د. دلال الحربـي. النّاشـر: إصـدارات: دارة الملـك عبـدالعزيز. 14 رمضـان 1419 هـ - 1999/01/01. ص: 82.
[296] حسـين بـن غنـام. روضـة الأفكـار. تحقيـق الـدّكتور ناصـر الـدّين الأسـد. ط: 3. مطبعـة المـدني. القـاهرة. س: 1382 هـ - 1962 م. ص81 . وعثمان بشر. عنوان المجد. ط: 2. وزارة المعارف السّعوديّة. س:1391هـ - 1971 م. ص22.
[297] دعـائم الأمـن مرتكـزة علـى ثلاثـة أسـس لا منـاص عنهـا وهـي: 1 تربيـة الفـرد. 2 إصـلاح الأوضـاع الاجتماعيّـة والاقتصـاديّة و السّياسيّة. 3 إقامة الحدود.

أنّ العقوبة ليست قائمة على التّشفّي والانتقام، بل تقطع الجريمة وتقتل القتل وتحقّق الأمن، مصداقا لقوله تعالى:" وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ " [298]. ولقوله أيضا:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ " [299]. بل كما قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم:" إِقَامَةُ حَدٍّ بِأَرْضٍ خَيرٌ لِأَهْلِهَا مِنْ مَطَرٍ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا " [300]. ويقول ابن تيميّة :" وهذا لأنّ المعاصي سبب لنقص الرّزق والخوف من العدوّ، كما يدلّ عليه الكتاب والسّنّة، فإذا أقيمت الحدود وظهرت طاعة الله ونقصت معصية الله حصل الرّزق والنّصر " [301].

7 - الحوار في عمليّة إصلاح الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب: إنّ من المهمّ جدّا أن نبرز أنّ من أهمّ الوسائل التي اعتمدها الشّيخ في حركته الإصلاحيّة الحوار، وهو ردّ صارخ على من يفتري على الشّيخ ويتّهمه بالانغلاق والسّطحيّة وبأنّه شديد الولع بسحب القضايا الفقهيّة الفرعيّة إلى السّاحة العقديّة الأصوليّة، والحقّ أنّ الشّيخ بيّن ما يسوغ فيه الخلاف وما لا يسوغ، فما كان ما كان أمراً معلوماً من الدّين بالضّرورة فلا يسوغ مخالفته مطلقاً، قال رحمه الله تعالى:" واستدلّ العلماء على وجوب إخلاص الدّعوة لله والنّهي عمّا اشتهر في زمنهم من دعاء الأموات بأدلّة كثيرة، و بعضهم يحكي الإجماع على ذلك، فإن كانت المسألة إجماعاً فلا كلام، وإن كانت مسألة اجتهاد فمعلوم أنّه لا إنكار في مسائل الاجتهاد، فمن عمل بمذهبه في محلّ ولايته لا ينكر عليه "[302].

ومن دلائل طبيعة الشّيخ ابن عبد الوهّاب الحواريّة:

ـ كتبه الحواريّة: ومن كتب الحوارات التي رسمها الشّيخ رحمه الله تعالى، كتابه المهمّ (كشف الشّبهات) وفيه جملة ردود مكثّفة على من ناوشه بالتّهم والشّبهات التي أثيرت حول

---

[298] البقرة 178.
[299] الأنفال 24.
[300] صحيح ابن حبّان بترتيب ابن بلبان. ط: 2. مؤسّسة الرّسالة. بيروت. سنة: 1414هـ - 1494 م. رقم: رقم 4397 و رقم: 4398. و الألباني. السّلسلة الصّحيحة. ط: 1. مكتبة المعارف. الرّياض.1415 هـ - 1995 م.(462/1).
[301] ابن تيميّة. السّياسة الشّرعيّة. تحقيق محمّد أيمن الشبراوي. ط:1. دار الكتب العلميّة. بيروت. س: 1421هـ - 2000 م. ص .68
[302] عثمان بن بشر. عنوان المجد في تاريخ نجد. ط: 1 وزارة المعارف. الرّياض. 1370هـ - 1950 م. ص 76.

آرائه في العقيدة التي ذكرها في محتويات (كتاب التّوحيد الذي هو حقّ الله على العبيد) وبالتّالي يمكن حسبان كتاب الشّبهات بمثابة (مذكّرة حواريّة) لكتاب التّوحيد.

ـ رسائله الحواريّة التي بعث بها إلى كلّ العالم الإسلامي تقريبا، والتي أحصاها طلبته وقد بلغت إحدى وخمسين [303].

ـ لم يدّع ابن عبد الوهّاب العصمة، ولذلك دعا إلى التّثبّت في أقواله قبل الإنكار عليه، وكان يقول:" ومتى لم يتبيّن لكم المسألة لم يحلّ لكم الإنكار على من أفتى أو عمل، حتّى يتبيّن لكم خطؤه، بل الواجب السّكون والتّوقّف، فإذا تحقّقتم الخطأ بيّنتموه، ولم تهدروا جميع المحاسن لأجل مسألة أو مئة أو مائتين أخطأت فيهنّ، فإنّي لا أدّعي العصمة " [304].

ـ تواضع الشّيخ للحقّ وإنصافه وتجرّده له وقبوله من أيّ كان، واستعداده للتّراجع عن رأيه دون تردّد إذا تبيّن له أنّ الحقّ بخلافه، ذكر ذلك في مناسبات كثيرة، منها " فأنا ولله الحمد لم آت الذي أتيت بجهالة، وأشهد الله وملائكته: إن أتاني منه، أو ممّن دونه في هذا الأمر كلمة من الحقّ لأقبلنّها على العين والرّأس، وأترك كلّ إمام اقتديت به، حاشا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فإنّه لا يفارق الحقّ "[305]. وقال أيضا: " ... فإنّ الذي أنا عليه وأدعوكم إليه هو في الحقيقة الاقتداء بأهل العلم، فإنّهم قد وصّوا النّاس بذلك، ومن أشهرهم كلامًا في ذلك إمامكم الشّافعي، قال: لا بُدَّ أن تجدوا عندي ما يخالف الحديث، فكلُّ ما خالفه فأُشهِدكم أنّي قد رجعت عنه " [306].

ـ لا يدعو النّاس إلى تقليده، بل إنّه يدعوهم إلى يدعوهم اتّباع الكتاب والسّنّة، ففي رسالة له أرسلها إلى رئيس بادية الشّام قال:" إنّي أذكر لمن خالفني: أنّ الواجب على النّاس

---

[303] انظر إلى صفحة 52 وما بعدها.

[304] أحمد بن عبد الرّحمن الصّويان. الوهّابية دعوة للفهم والدّراسة. شبكة الألوكة الثّقافيّة. http://www.alukah.net/Culture/10387/10028/

[305] محمّد بن عبد الوهّاب. الرّسائل الشّخصيّة ضمن مجموعة مؤلّفات الشّيخ الإمام محمّد بن عبد الوهّاب. المجلّد الخامس. جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة. الرّياض 1398هـ - 1987 م. ص 145.

[306] الدّرر السّنّيّة في الأجوبة النّجديّة .تحقيق: عبد الرّحمن بن محمّد بن قاسم. تأليف: علماء نجد الأعلام. ط: 6. س: 1417هـ - 1996م. (1/ 44).

اتّباع ما وصى به النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أمّته، وأقول لهم: الكتب عندكم، انظروا فيها، ولا تأخذوا من كلامي شيئاً، لكن إذا عرفتم كلام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في كتبكم فاتّبعوه، ولو خالفه أكثر النّاس... ثمّ قال: لا تطيعوني، ولا تطيعوا إلاّ أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الذي في كتبكم " [307].

فالمقصود أنّ ابن عبد الوهّاب ـ رحمه الله ـ كان من أكثر النّاس دعوة للحوار، سواء عبر دعواته للمناظرات أو عبر بثّه الرّسائل الدّعويّة والتّوضيحيّة في الآفاق. وكان بدء الحوار بأبيه وأخيه، وشيوخه وجمهور النّاس من نجد، والحجاز وغيرها. وأحسب أنّه ورث هذه المرونة الفكريّة من إماميه أحمد بن حنبل و ابن تيميّة في حواراتهما مع الجهميّة والمعتزلة والرّافضة وأقطاب المذاهب الفكريّة والعقائديّة الكبرى في عصرهما[308].

---

[307] نفسه (1/ 89).

[308] انظر إلى كتب ابن تيميّة: (درء تعارض العقل والنّقل)، و(مجموع الفتاوى) التي خصّص فيه فصولا في نقده لمقالات محي الدّين بن عربي. و(منهاج السّنّة النّبويّة) (الجواب الصّحيح لمن بدّل دين المسيح)، (الرّدّ على المنطقيين). (الرّدّ على من قال بفناء الجنّة والنّار)،(الصّارم المسلول على شاتم الرّسول) (بغية المرتاد في الرّدّ على المتفلسفة والقرامطة والباطنيّة)، (بيان تلبيس الجهميّة في تأسيس بدعهم الكلاميّة).

بين إصلاح الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب والفكر الغربي

قضى العمل الإصلاحي الذي قام به الشّيخ ابن عبد الوهّاب على الكثير من المفاهيم الغربيّة وأطاح بها من أساسها، وبدا ذلك في هذه المسائل:

أ . في بدعة فصل الدّين عن السّياسة: كانت حركة " الموحّدين " التي أسّسها الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب، والتي حكمت الحجاز وسيلة شريفة خادمة للإنسان ولِمُثل الدّين العليا، إذ عالجت تلك الحركة مشكلات حقيقيّة وعميقة لاقتها الحركة في عصرها، ووجدت لها الحلول داخل ثقافة الأمّة. فكانت بحقّ حركة تصحيحيّة تجديديّة إصلاحيّة على منهج السّلف الصّالح.

ب . أصلح ابن عبد الوهّاب السّياسيّ بالعقيدة، فوضع حدّا للحكم المطلق المميت للإدراكات والهمم والفعاليّات و المضطهد للشّعوب والمدمّر للحضارات. و " نموذج " ابن عبد الوهاب يطرح سؤالا مركزيّا ملحّا في مسألة الإصلاح أجاب عليه حركته، وهو: نظام الحكم إصلاح أم تغيير، هل الإصلاح بالنّخبة أم بالعلماء؟ هل بالدّين أم بغير الدّين؟ هل يجتمع السّلطان بالقرآن؟ هل الإسلام يصلح أن يحكم؟.

ت . بيان أنّ الشّيخ محمّد ابن عبد الوهّاب قد أطاح بكلّ مشروع يكون وسيطا بينه وبين الإسلام، فكما أطاح الشّيخ بمشروعه مفهوم الوسيط بين العبد وربّه في العبوديّة، فهو كذلك يقرّر أن لا يُقرأ ديننا أو يُتناول من خلال " الوسيط ". وهذا ردّ قويّ وتحدّي صارخ للعلمانيّين الذين يقرؤون الإسلام من خلال " الوسيط " الغربي الثّائر على دينه وعقائده. ثمّ هو أيضا توجيه مباشر لكلّ باحث منصف أنّه لا بدّ من تسليط المنهجيّة التّاريخيّة والاستقرائيّة للفكر الإصلاحي الأوروبي الذي عاش ظروفا تختلف كلّيّا وجوهريّا على ظروف الفترة التّاريخيّة التي عاش فيها المصلحون المسلمون، ذلك أنّ عمليّة الإصلاح في الغرب انطلقت بالأساس بمصلحين دينيّين تمرّدوا عن تأويل الكنيسة للدّين، ثمّ بفلاسفة ملحدين

ثمّ تطـوّرت إلى ثـورة سياسـيّة ثمّ اقتصـاديّة في انجلـترا. فالخيـار التّـاريخي الأوروبي أفـرز ثـورة علمانيّـة ضـدّ طـاغوت الكنيسـة تزعّمهـا فلاسـفة الأنـوار جلّهـم ملحـدون لأنّ الكنيسـة رفضـت إصلاحا جوهريّا في داخلها، فجاءت الثّورة من خارجها وعليها.

ث . أظهـرتْ حركـة إصـلاح ابـن عبـد الوهّـاب أنّـه لـيس هنـاك خصـومة بـين النّظـام السّياسـي وبـين العقيـدة في الإسـلام، كمـا هـو الحـال في الغـرب، والـدّليل علـى ذلـك أنّ حركـات إصـلاح المسـلمين عـبر تـاريخهم كلّـه – منـذ الرّسـالة النّبويّـة – لم تـنجح إلاّ لمـا أحـدثت تغيـيراً في شـكل القيـادة والبنيـة السّياسـيّة، وتحـالف فيهـا الـدّيني بالسّياسـي وتمـازج السّياسـي بالـدّيني، وسـبق الإصـلاحُ العقـدي الإصـلاحَ السّياسـي، وإذا لم يتحقّـق ذلـك لـن تحصـد الأمّـة إلاّ المزيد من الفساد والكوارث.

ج . التّحـالف بـين الـدّين والسّياسـة: مـا وقـع مـن تحـالف بـين محمّـد بـن عبـد الوهّـاب ومحمّـد بـن سـعود مـا هـو إلاّ بيـان صـارخ لإمكانيّـة نجـاح حركـة إصـلاح دينيّ سياسـيّ تحقيقـا للتّصـوّر الإسـلامي في التّكامـل بـين الأمـرين، وتجسـيدا للمطلـب الإسـلامي في تحقيـق العـدل بالـدّين وتحقيـق الأمـن بالسّـلطان. وأنّ علـى المسـلمين إذا مـا أرادوا الإصـلاح فينبغـي علـيهم أن يتمسّكوا بالإسلام الأوّل، دون أن يأتوا بتفسير جديد للإسلام.

ح . إنّ الإصـلاح لا بـدّ أن يقـوم علـى أسـاس العقيـدة، وإنّ أيّـة عمليّـة إصـلاح قائمـة علـى غـير ذلـك، فهـي محاولـة طائشـة ورمـي في عمـى، لأنّهـا سـتبني محاولتهـا علـى وهـم وفـراغ و على أساس رخو هشّ ، وفوق تراكمات " جاهليّة " لم يجر رفعها وإزالتها.

خ . أنّ المرجعيّـة الثّقافيّـة للحركـة الإصـلاحيّة لمحمّـد بـن عبـد الوهّـاب كانـت مـن الجزيـرة لا مـن خارجهـا، ومـن داخـل الإسـلام لا مـن خـارج دائرتـه. ولـذلك يمكـن أن نقـول: إنّ أهـمّ حركـة إصـلاحيّة في العـالم الإسـلامي منـذ قـرون ـ بـل وأوّل حركـة إصـلاحيّة في التّـاريخ المعاصـر ـ لم تنطلـق متـأثّرة بـأجواء الصّـراع الـدّولي، فهـي حركـة إصـلاحيّة نشـأت وانطلقـت مـن داخـل المنطقـة، ومـن عقيـدة الأمّـة، فلـم تخضـع لأيّ تـأثير خـارجيّ، فكانـت بحـقّ حركـة " وطنيّـة " حرّة ومستقلّة.

د . أنّ حركة محمّد بن عبد الوهّاب لم تكن ردّ فعل على أوضاع سياسيّة لتأمين بديل سياسي قابل للتّطبيق، وإنّما كانت ردّة فعل على وضع دينيّ بالأساس، وهذا يبيّن بشكل صارخ أنّ التّفسير الدّيني لظهور تلك الدّعوة كان كافياً، وأنّه أيضا كان المبرّر الأبرز لنجاح ركته الإصلاحيّة، بخلاف ما يعتقده اللّيبراليّون بأنّ حركات الإصلاح ما هي إلاّ ردّ فعل على ظروف اجتماعية وسياسيّة لا دينيّة، وأنّ الصّراع ليس لأسباب دينيّة بل لأسباب اقتصاديّة بحتة، وأنّ السّبب الدّينيّ ومحاربة الشّرك لا يكون أبدا سببا لثورة أو حركة إصلاحيّة أو قيام دولة دينيّة.

ذ . " التّنوير " في إصلاح ابن عبد الوّهاب: أظهر الشّيخ أنّه ليس بالضّرورة أن تتحرّر من الدّين لتكون " تنويريّا "، لأنّه إذا كان من معاني التّنوير استرداد الفرد لكيانه الإنساني واستخدامه للعقل مناط التّكريم والتّكليف، والتّخلّص من ثقافة الخرافة والتّلبّس بحالات الوثنيّة، والتّصدّي لكلّ البدع التي شوّهت نقاوة المحجّة البيضاء، وحرّفته عن منابعه الأساسيّة القرآن والسّنّة، فابن عبد الوهّاب " تنويري " بامتياز. وإذا كان التّنوير يعني إصلاح جوهر الإنسان من داخله، فابن عبد الوهّاب أيضا هو " تنويري " باقتدار. وإذا كان التّنوير يعني انتصارا للعقل على الخرافة والأساطير، وإقالة العقل من عثرته وكسله وغيبوبته الحضاريّة فابن عبد الوهّاب تنويري بتفوّق. وإذا كان من معاني التّنوير القضاء على القباب والاعتقاد في الموتى فإنّ ابن عبد الوهّاب تنويري متقدّم، وإذا كان من معاني التّنوير الثّورة على التّخلّف المعرفي والجمود على التّقليد الأعمى الذي شلّ تفكير مجتمع ما وشوّه الدّين في حقائقه الجوهريّة، فابن عبد الوهّاب تنويري من الدّرجة الأولى، وإذا كان من معاني التّنوير توحيد الوطن الواحد الممزّق وتحقيق الأمن والتّنمية وبناء المؤسّسات، ومنها دولة قانون الشّارع، فابن عبد الوهّاب حقّق ذلك في الأرض لا شعارا. وإذا كان التّنوير في تصوّر المسلمين يعنى تحرير الإنسان من الآلهة المتعدّدة المتشاكسة، والأرباب الكثيرة الممزّقة للنّشاط البشري، والعمل على توحيد كلّ نشاطاته صوب الإله الواحد، فابن عبد الوهّاب هو أنور تنويري في هذا العصر، لأنّه ساهم في إخراج أقوام من الظّلمات إلى النّور، بإخراجهم من الشِّرك إلى التّوحيد، ومن عبودية الأصنام والآلهة المتعدّدة إلى عبوديّة الله الواحد الأحد، ومن

التّمــزّق والتّشــرذم إلى الائــتلاف والاجتمــاع. فــابن عبــد الوهّــاب إذن بكــلّ هــذه المعــاني والمقاييس " تنويري " بدون منازع !.

المبحث الثاني

الإصلاح عند الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور

إذا كان واقع نجد هو الذي جعل قضية (**العقيدة والنّصّ**) تُلحُّ على محمّد ابن عبد الوهّاب إلحاحا بيّنا، حتّى تكاد تُعتبر المحور المركزي الذي يدور حوله فكره وإصلاحه، فقد كانت قضيّة (**العقيدة والاجتهاد**) هما بوصلة الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور في عمليّة الإصلاح التي قام بها، فما هي العوامل التي ساهمت في تكوين فكره؟ وما هي إصلاحاته؟ وما هو العصر الذي نشأ فيه الشّيخ رحمه الله تعالى؟

أوّلا: تعريف موجز بالشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور:

هو العلاّمة المفسّر محمّد الطَّاهر ابن محمّد بن محمّد الطَّاهر ابن عاشور، ولد في تونس سنة 1296 هجري، الموافق 1879 ميلادي، وهو من أسرة علمية عريقة. برز في أصناف من العلوم ونبغ فيها، كعلوم الشّريعة واللّغة والأدب، وكان متقنا للُّغة الفرنسيّة، وعضوا مراسلاً في مجمع اللّغة العربيّة في دمشق والقاهرة، تولّى مناصب علميّة وإداريّة بارزة كالتّدريس، والقضاء والإفتاء وتمّ تعيينه شيخاً لجامع الزّيتونة.

ألّف رحمه الله تعالى في علوم التّفسير والحديث والأصول واللّغة والأدب وغيرها، منها تفسيره الضّخم " التّحرير والتّنوير "، و" مقاصد الشّريعة "، و"كشف المغطّى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطّأ "، و" أصول الإنشاء والخطابة "، و" النّظر الفسيح عند مضايق الأنظار في الجامع الصّحيح "، وغيرها من الكتب...

توفّي رحمه الله تعالى في تونس سنة 1394 هجري، الموافق 1973 ميلادي، عن عمر يناهز الـ 98 عاماً . قال عنه صديقه الشّيخ محمّد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر رحمه الله:" وللأستاذ فصاحةُ منطقٍ، وبراعةُ بيانٍ، ويضيف إلى غزارة العلم وقوّة النّظر: صفاءَ الذّوق، وسعة الاطّلاع في آداب اللّغة... كنت أرى فيه لساناً لهجته الصّدق... وهمَّةً طمَّاحة إلى

المعالي، وجِدّاً في العمل لا يَمَسّه كلل، ومحافظة على واجبات الدّين وآدابه ... وبالإجمال ليس إعجابي بوضاءة أخلاقه وسماحة آدابه بأقلّ من إعجابي بعبقريّته في العلم "[309].

ووصفه العلاّمة الشّيخ محمّد البشير الإبراهيمي قائلاً: " عَلَم من الأعلام الذين يعدّهم التّاريخ الحاضر من ذخائره، فهو إمام متبحِّر في العلوم الإسلاميّة، مستقلّ في الاستدلال، واسع الثّراء من كنوزها، فسيح الذّرع بتحمّلها، نافذ البصيرة في معقولها، وافر الاطّلاع على المنقول منها، أقْرَأ، وأفاد، وتخرَّجت عليه طبقات ممتازة في التّحقيق العلمي "[310].

ثانيا: البيئة الثّقافيّة وأثرها في تكوين فكر ابن عاشور ووجهته الإصلاحيّة: يعتبر الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور من العلماء الموسوعيّين، مثّل بحياته العلميّة أنموذجا يكاد يكون فريدا، بل نادرا وعزيزا في تاريخ تونس كلّها، فقد اجتمعت عناصر عديدة وعوامل ثريّة أثّرت وساهمت في بناء شخصيّة وفكر الرّجل حتّى بلغ تلك الدّرجة من العلم. ومن أهمّ تلك العوامل:

أ . **أسرته و عصره:** ينحدر الشّيخ من أسرة أندلسيّة رسخت فيها التّقاليد العلميّة والسّياسيّة إذ كان جدّه للأمّ الشّيخ محمّد العزيز بوعتور (1825 م / 1907 م) وزيرا. واتّسم عصر ابن عاشور بالتّقلّبات الثّقافيّة والسّياسيّة، وامتدّ به العمر ليجمع بين ثقافة القرن التّاسع عشر و مفاهيم القرن العشرين، حيث فرضت الثّقافة العصريّة وتحدّيات الفلسفات المشكّكة في الدّين نفسها، هذا فضلا عن تحدّيات ضخمة ومعقّدة فرضها المحتلّ الاستيطاني.

ب . **تأثّره ببعض أساتذته المباشرين** ممّن ينتسبون إلى الفكر الإصلاحي، وفي مقدّمتهم شيخه سالم بوحاجب (ت1342هـ/1924م) الذي كانت آراؤه تتمركز حول التّخلّص من الجمود السّائد، و الملاءمة بين مقاصد الشّريعة ومقتضيات العصر، والإعراض عن كثرة المنقول، وأيضا تأثّره بالشّيخ العلاّمة الأستاذ عمر بن الشّيخ (1239هـ ـ1329هـ

---

[309] محمّد محفوظ. تراجم المؤلّفين التّونسيّين. نشر دار الغرب الاسلامي. بيروت. ط:1. س:1402 هـ - 1982 م (306/3)

[310] الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور ومنهجه في توجيه القراءات من خلال تفسيره التّحرير والتّنوير. محمّد بن سعد بن عبد الله القرني. جامعة أمّ القرى. مكّة المكرّمة. ط: 1. س: 1427هـ - 2006 م. ص 19.

/1858م . 1912 م).

ت . وفرة العلماء والمصلحين شهدت تونس والمغرب والمشرق الإسلاميّين في فترته رحمه الله تعالى أسماء كبيرة جدّا من أهل العلم والفكر والإصلاح، من مثل الشّيخ محمّد بيرم الخامس(1840 م ـ1256 هـ / 1889 م ـ 1307 هـ) والشّيخ محمّد السّنوسي (ت:1318 هـ/1901م)، ومحمّد البشير صفر (ت 1856 هـ/ 1917 م) والشّيخ محمّد الخضر حسين (1293 هـ ـ 1876م/ 1377هـ ـ 1958م)، والشّيخ عبد العزيز الثّعالبي (1876 م / 1944 م)، والأستاذ محمّد كرد علي (1293 هـ ـ 1876 م / 1372 هـ ـ 1953 م) رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق، والشّيخ محمود شكري الآلوسي (1273 هـ ـ1856م / 1342 هـ ـ 1924 م) من كبار علماء العراق، والشّيخ محمّد بن الحسن بن العربي الحجري الفلالي المغربي، والمصلحان الجزائريّان الكبيران الشّيخ عبد الحميد بن باديس (1307 هـ ـ 1889م / 1358 هـ 1940م) والشّيخ محمّد البشير الإبراهيمي (1306 هـ ـ 1889 م/ 1385 هـ 1965 م).

ث . المرجعيّات الكثيرة والمختلفة: كان للمراجع الفكريّة العربيّة الإسلاميّة القديمة والأجنبيّة القديمة ومعرفة العلوم الحديثة الأثر الكبير والواضح في الإنتاج الفكريّ المتعدّد والمتنوّع للشّيخ في أكثر من مجال، وخاصّة في علم المقاصد كعلم جديد مستقلّ عن الأصول، مفاده القراءة المقاصديّة للنّصّ الدّيني. ورغم هذه المحاولات التّجديديّة " المستنيرة" التي قام بها الشّيخ ـ من أجل تعايش وإنجاح معادلة بين الأصالة والمعاصرة ـ فإنّها لم تجد القبول من " التّحديثيّين" التّونسيّين في تلك المرحلة، بل قوبلت بالتّشكيك والتّشويه، وباتّهامها بالمحاولات التّلفيقيّة اليائسة الفاشلة، وبأنّ التّحديث لا يكون أبدا بأيّ فكر ذي مرجعيّة إسلاميّة، بل ينبغي أن يتحقّق عبر المثال الغربي وحده.

ج . تأثّر الحركة الإصلاحيّة التّونسيّة بحركة الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب:

لا يمكن أن ننكر تأثّر الحركة الإصلاحيّة التّونسيّة بحركة الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب، وهذه شهادة خير الدّين الزّركلي الدّمشقي (المتوفى: 1396هـ) :" وكانت دعوته، وقد جهر بها سنة 1143 هـ (1730 م) الشّعلة الأولى لليقظة الحديثة في العالم الإسلامي كلّه: تأثّر بها

رجال الإصلاح في الهند ومصر والعراق والشّام وغيرها، فظهر الآلوسي الكبير في بغداد، وجمال الدّين الأفغاني بأفغانستان، ومحمّد عبده بمصر، وجمال الدّين القاسمي بالشّام، وخير الدّين التّونسي بتونس، وصديق حسن خان في بهوبال، وأمير علي في كلكتة، ولمعت أسماء آخرين ".[311]

ولا أظنّ أنّ الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور قد غابت عنه حادثة طمس باي تونس حمّودة باشا لمعلم وثنيّ بشاطئ بحر سيدي أبي سعيد المعروف بكرسيّ الصّلاح يمارس فيه النّاس عقائد وثنيّة صارخة، فأمر باي تونس وقتها المفتي أبي العبّاس أحمد البارودي بإصدار فتوى تكسّر ذلك المعلم، وحضر حمّودة باشا الباي بنفسه عمليّة الكسر تلك في يوم الثّلاثاء عاشر شعبان سنة 1227 هجري، 18 أوت 1812 م، وقد كان الجهّال يذبحون بتلك الصّخرة، ويلقون المذبوح في الماء.... [312]

ح . **السّبق التّونسي التّراكمي في عمليّة الإصلاح:** إنّ من العوامل التي حفزت الشّيخ ابن عاشور وقدحت فيه همّ الإصلاح، تعدّد تجارب ومحاولات الإصلاح التّعليميّة والاجتماعيّة والسّياسيّة والإداريّة والعسكريّة والاقتصاديّة التي اشتغل عليها المصلحون التّونسيّون منذ عبد الرّحمان ابن خلدون، (732 هـ . 808 هـ / 1332 م ـ 1406م)، ثمّ امتدّ وتعزّز وتواصل في النّصف الثّاني من القرن 18 من طرف محمود قبادو (1288هـ)، ثمّ تلميذه الوزير خير الدّين التّونسي (ت1307هـ /1890م) صاحب كتاب " أقوم المسالك " الذي ذكر فيه سياسته الإصلاحيّة عبر وضع المؤسّسات وتجديد التّعليم. و من المشايخ المصلحين أيضا محمّد السّنوسي والشّيخ سالم بوحاجب صديق خير الدّين وصاحبه في مذهب التّجديد ومناصره الذي شاركه في تحرير " أقوم المسالك " [313].

ولا شكّ أنّ الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور قد اطّلع على عهد الأمان الذي دعا إلى الالتزام بالشّرع، ووضع حدّا للحكم المطلق ولظلم البايات وعسف عمّالهم والتّنصيص على تحقيق العدل بين الرّعيّة والمساواة أمام القانون، وضمان الأمن للسّكّان وبالمساواة

---

[311] الأعلام الزّركلي الدّمشقي. النّاشر: دار العلم للملايين. ط: الخامسة عشرة. ربيع الأوّل 1423 هـ - أيار / مايو 2002 م. (257/6).

[312] أحمد بن أبي الضّياف. إتحاف أهل الزّمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان. نشر كتابة الدّولة للشّؤون الثّقافيّة والأخبار. ط: 1. س: 1403 هـ - 1963م. ص59.

[313] الشّيخ محمّد الفاضل ابن عاشور. أركان النّهضة الأدبيّة بتونس. مكتبة النّجاح. تونس 1381هـ - 1961م. ص17.

بينهم دون تمييز في الدّين واللّغة واللّون. وأيضا لا نظنّ أنّه لم يطّلع على عهد محمّد الصّادق باي (1859 م . 1882 م) وقد أصدر أوّل دستور تونسي ينصّ على تنظيم الحياة السياسيّة والفصل بين السّلط الثّلاث والحدّ من سلطة الباي.

خ . معاصرته لحركة ما يُسمّى التيّار" التّنويري " وهو تيّار حديث النّشأة، لأنّه تأسّس في أواخر الدّولة العثمانيّة، وفي زمن الاستعمار ويسمّى أحيانا بـ " التيّار العصراني"، أو "التيّار الإصلاحي"، أو "التيّار العقلاني"، ومرجعيّته التّوفيق بين الحضارة الغربيّة ومنتجاتها الفكريّة، والمنهج الإسلامي، كما يستأنس بمنهج الفرق الكلاميّة القديمة خصوصاً.

د . تأثّره بالشّيخ محمّد عبده الذي التقى به في زيارته الثّانية لتونس في سبتمبر 1903 ميلادي، وابن عاشور يومئذ هو شابّ في الرّابعة والعشرين من عمره.

ذ . تأثّره بالمجلاّت الواردة من الشّرق، وخاصّة منها مجلّة المنار التي أصدرها محمّد رشيد رضا سنة 1319 هجري 1898 ميلادي، حتّى أنّه بلغ من شغف التّونسيّين بتلك المجلّة أن طلبوا من صاحبها عدم مهاجمة سياسة الحكومة التّونسيّة خشية منعها من دخول تراب الإيالة. ونقرأ من أحد أعدادها (جاء من تونس أنّ الجزء الواحد من المنار يدار على عشرات من النّاس) [314].

ر . التّأثر بمنهج مقاصد الشّريعة الإسلاميّة: كتب ابن عاشور مصنّفه " مقاصد الشّريعة الإسلاميّة " سنة 1947 بعد خمس وأربعين سنة من شروعه في تأليف " أليس الصّبح بقريب ؟ " سنة 1902 ميلادي. وكتاب " المقاصد " وهو عمل علمي تأصيليّ ضخم ومعتبر يولي اعتبار المِصالح مناطاً للأحكام الشّرعيّة تميّز به الشّيخ محمّد الطّاهر، ويدرج هذا العمل ضمن جهد إصلاحيّ سهر عليه حوالي نصف قرن.

ز . احتلال الاستعمار لأرض تونس: عاش ابن عاشور لحظة الاحتكاك الأولى بأوروبا المسْتَعْمِرة، وبدأ المسلمون يخسرون مادّيا ومعنويّا، ويتراجعون علميّا ومدنيّا وعسكريّا، ممّا ترك آثارا معنويّة بالغة وتحدّيا خطيرا كابده ابن عاشور حقبة طويلة في تدافعات فكريّة

---

[314] مجلّة المنار. المجلّد الخامس. (22/ 880).

ضخمة، وتحوّلات سياسيّة قاسية بعد ما يسمّى بـ"الاستقلال"، فرضها التّحدي الغربيّ الفكريّ والإكراه السّياسيّ العلماني البورقيبي.

س . صراعه مع بورقيبة: ظلّ الشّيخ فترة طويلة حريصاً على المشروع الإسلامي الذي كان يمثّله، في مقابل ما كان يحمله الحبيب بورقيبة من شقاء تخلّيه عن الإسلام، بل محاربته له بضراوة والأخذ بما عند الغرب للّحاق بركب ما يدّعيه الحداثة، يقول بورقيبة: " إنّ مستقبلنا مرتبط بمستقبل الغرب عموما ومتضامن مع مستقبل فرنسا خاصّة... إنّني مدين لفرنسا بكلّ شيء... إنّني أنا الذي تزعّمت الحركة المنادية بالفرنكفونيّة" [315]. وقال:" لقد كافحت لأمتّع بلادي بالحرّيّة والكرامة لكنّ حبّي لفرنسا ووفائي لها لن ينقطع أبدا " [316].

لقد تجلّت محاربة بورقيبة للإسلام في أصوله وعقائده وشرائعه وشعائره على كلّ صعيد وفي كلّ مجالات الأسرة و التّربية والتّعليم والإعلام والثّقافة والقضاء و التّشريع، ولهذا فقد أصدر مجلّة الأحوال الشّخصيّة في 13 أوت 1956 على عجل إثر إعلان " الاستقلال " في 20 مارس 1956 وقبل كتابة الدّستور ثمّ ألغى القضاء الشّرعي في 25 سبتمبر 1956 تحت دعوى توحيد القضاء ثمّ ألغى التّعليم بجامع الزّيتونة عام 1961 وحلّ الأوقاف وأمّمها وغير ذلك... **و أمام هذا الهيجان البورقيبي، عمل شيخنا ابن عاشور ــ "فقيه السّياسة الشّرعيّة " ــ بصمت و حرص بذكاء وقّاد أن لا يخوض (معركة الشّريعة) في مجابهة سياسيّة مع نظام بورقيبة، ولكنّه خاضها في معركة فكريّة عبر إسقاط الأساس الفكري الذي انطلق بورقيبة يفرضه على شعبنا المسلم،** فأخذ ابن عاشور بمنهج التّوفيق بين الإسلام وثقافته العصريّة، محاولا تحقيق تعايش سلميّ هادئ، ربّما استجاب لضغوط العصر الذي عايشه، لذلك نجنح إلى التّرجيح بأنّ السّياق الاجتماعي والضّغوط السّياسيّة التي كان يكابدها الشّيخ لم تكن تسمح بأكثر ممّا قدّم، لأنّ مواقفه لا يمكن إخراجها من ذلك السّياق، غير أنّ المهمّ أنّه بالرّغم من ذلك التّأثّر، لم يذهل أمام المحتلّ ونائبه، ولم تنكسر

[315] جريدة العمل التّونسيّة عدد4141. الصّادرة في22 شوّال 1388 هـ / 11 يناير 1969م.
[316] نفسه. عدد4144. الصّادرة في26 شوّال 1388 هـ / 15 يناير 1969 م.

إرادة إصلاحاته أمام جبروته، ولم يستسلم له مثل من سبقه أو من جاء بعده من المنبهرين بفرنسا، الذين نادوا بتقليد الغرب والالتحاق به في كلّ كبير وصغير فصمد أمام تلك الفتنة العمياء. ووقف الموقف الوسط والمعتدل، فدعا إلى الاقتباس من" النّموذج الأوروبي" طالما لم يتعارض مع الشّرع، وانفتح على المختلف دينيّا وثقافيّا واجتماعيّا، واختار ثنائيّة " التّقليد والتّجديد "، أو ثنائيّة " الحداثة المؤصّلة " أو الانفتاح المؤصّل، أو معادلة معايشة العصر بأصوله، رافضا الجمود على القديم، والاندماج الكّلّي في قيم الآخر بدون تحفّظ. وهذا ما يلاحظه كلّ من تأمّل حركته الإصلاحيّة كلّها، سواء في عنوان تفسيره أو في مقاصده، أو من خلال دعواته لضرورة مواكبة الزّيتونة لمقتضيات العصر. ففي خطاب له بمناسبة اختتام سنة دراسيّة يقول رحمه الله تعالى:" ونحن اليوم في عصر صار فيه المجتمع الإنساني بمنزلة ما عليه مجتمع القطر الخاص وتغلغلت حاجات الأمم ومصالحها بعضها في بعض، فأصبح تقارب الثّقافة بينهم ضربة لازب وصار ما كان يعدّ تكملة موضوعا الآن في عداد الواجب. فلذلك كلّه لم يغن التّلميذ الزّيتوني عن أن يضرب مع أمم عصره بسهم صائب " [317]. وبهذا يمكن أن نقرّر ـ رغم أنّ الشّيخ لم يزر الغرب ـ فقد واكب واستوعب الثّقافة المعاصرة والفكر الغربي بعين ناقدة وعقل واع بالمعادلة الحضاريّة الصّعبة التي يعيشها (المسلم المعاصر)، أو بعبارة أخرى أعاد تفسير إسلام يواكب قرنا يتحكّم فيه الكافر، غير أنّنا نقرّر أيضا أنّ الفكرة تسرّبت إليه من خلال تأثّره بزعماء رجال الإصلاح في المشرق خاصّة، وردّ فعل على المنادين بأخذ كلّ ما لدى الغربيّ من معارف وقيم وتخلّي عن عقائدنا ودِيننا.

ولست أدري هل اطّلع الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور على مخطّطات أعداء الإسلام والمسلمين في حرب المسلمين عبر محاربة الأفكار أم لا، إلاّ أنّي وجدت الشّيخ صاحب وعي سبّاق لما يُخطّط ضدّ الأمّة.

فإصلاح الفكر الذي دعا إليه الشّيخ انطلق في تفعيله الأمريكان منذ مطلع القرن الماضي في " مراكز التّفكير " أو " مختبرات الأفكار " و " نوادي التّأمّل " و " ورشات عمل "، مراكز صنع القرار . فجمعت فيها أبرز مثقّفيها وباحثيها من فضاءات معرفية

---

[317] ابن عاشور (محمّد الفاضل). الحركة الأدبيّة والفكريّة بتونس. ط: الدّار التّونسيّة للنّشر. تونس. س: 1392 هـ - 1972 م. ص 429.

مختلفة ومتنوّعة لوضع خطط مستقبليّة وبرامج استراتيجيّة، ثمّ لحقتها الصّين وأوروبا في تنافس مستميت على مركز الرّيادة لتفرض بها رؤيتها الثّقافيّة وهيمنتها الإقتصاديّة والعسكريّة على العالم، حتّى فاق " عدد هذه المراكز الخمسة آلاف مركز، معظمها في الولايات المتّحدة (1800) والصّين (425) وأوروبا (1200) "، يستخدمها الغرب والشّرق الأعجمي في حرب ناعمة، حيث " لم يعد سرّا مثلا أنّ اجتياح العراق لم يكن أصلا فكرة لصقور إدارة بوش، بل هو المشروع الذي روّج له لسنوات طويلة مركز فكري أميركي ذو توجّه محافظ يُدعى " بروجكت فور ذا نيو أميركان سانتوري " أو من أجل قرن أميركي جديد، وبأنّ أعضاءه من الخبراء والمحلّلين قد عرضوه أوّل مرة على الرّئيس كلينتون منذ 1998 من دون أن يلقى أيّ صدى، إلى أن تبنّاه بوش وفريقه، تماما كما كانت فكرة تقديم أوباما كأوّل مرشّح من أصول أفريقيّة هي لمركز فكري له ميول يساريّة يُدعى " سنتر أوف أميركا بروغراس " أو المركز الأميركيّ التّقدميّ، ومن قبله خطّة مارشال (1947) التي كانت فكرة مؤسّسة بروكينغز "[318]. ونشير في هذا السّياق أنّ الشّيخ ابن عاشور كان يمثّل بحقّ القمّة في رتبة علماء الزّيتونة في العصر الحديث، وهو أيضا يمثّل الرّمز الذي حمل لواء الإصلاح العلمي والتّربوي والاجتماعي التّونسي خصوصا. فالشّيخ ابن عاشور إذن لم يأت فجأة أو موهبة من فراغ، بل كان ضمن حلقة ذهبيّة في سلسلة سند تيّار كامل من أفضل ما خرّجت الزّيتونة من علماء وأئمّة، مثل محمّد النّخلي (1286 هـ -1869 م / 1343 هـ -1924م) وسالم بوحاجب وعمر بن الشّيخ ومحمّد النّجار ومحمّد الخضر حسين وشيخه جدّه للأمّ محمّد العزيز بن محمّد الحبيب بن محمّد الطّيّب ابن الوزير محمّد بن محمّد بوعتور ومحمّد بن يوسف و عمر بن عاشور(1824م/1911 م) وصالح الشّريف (1869م/ 1920 م) وغيرهم كثير من المصلحين المنظّرين الأفذاذ، رحمهم الله تعالى جميعا، وهؤلاء كانوا أيضا ثمرة لزعماء المدرسة الإصلاحيّة التّونسيّة مشايخ الإصلاح وهم إبراهيم الرّياحي (1180 هـ /1266 هـ) وإسماعيل التّميمي (1164 هـ / 1750 م) وتوفّي في جمادى الأولى عام 1248هـ/ أكتوبر 1832م)، ومحمود قبادو، والوزير خير الدّين باشا، وهو

[318] أنيسة مخالدي. « حرب الأفكار ».. أميركا رائدة من دون منازع. جريدة الشّرق الأوسط . الأحد 03 رمضان 1433 هـ / 22 - يوليو 2012 العدد 12290.

أيضا استمرار لإنتاج الحركة الإصلاحيّة المشرقيّة التي تأثّرت هي بدورهما بالجهد الإصلاحي لمحمّد بن عبد الوهّاب و الدّهلوي (1114 هـ ـ 1176 م /1703م ـ 1762م). كما كان للقاء الشّيخ ابن عاشور بمحمّد عبده شحنة بالغة في الدّفع نحو الإصلاح، كما اجتمع أيضا ببعض مفكّري الغرب، منهم المستشرق الألماني" أوبنهايم " [319] المعروف بمناهجه الفلسفيّة والدّينيّة ومقارنة الأديان والمذاهب وأصولها ومبادئها وآخرون. فكانت رؤاه الإصلاحيّة حلقة ضمن هذه المدارس الإصلاحيّة المنتشرة. فالمقصود أنّه بقدر ما ينبغي أن نرفع من جهود ابن عاشور الإصلاحيّة، فإنّه ينبغي أيضا أن لا نهمل جهود من سبقه في الميدان الإصلاحي ابتداء من ابن خلدون وانتهاء إلى مشايخه الذين عاصرهم في داخل تونس وخارجها. وهنا لابدّ من بيان أنّ أهمّ معلم رسم شخصيّة الشّيخ ابن عاشور ونحتها، شيخه محمّد النّخلي الذي ربّى فيه نبذ التّقليد وشيخه سالم بوحاجب الذي عمّق فيه الميل إلى التّجديد و الإصلاح وربط العلم بالأدب.

إنّ الحديث عن العلاّمة محمّد الطّاهر ابن عاشور لا ينبغي أن يُنسينا التّيّار الزّيتوني الإصلاحيّ الذي قدّم رؤى تجديديّة مؤسّسة على تعاليم الإسلام ومقاصده ومقتبسة من الدّورة التّاريخيّة والعصر الذي كان يعيش فيه المشايخ، فأحسنوا التّفاعل معه بمرونة و توازن. وهذا جانب مهمّ بخلاف ما كان عليه ابن عبد الوهّاب الذي لم تشهد بيئته هذا العدد الهائل من المصلحين فضلا عن الانفتاح على أوروبا، كما أنّ السّياق العلمي الذي وجد فيه ابن عاشور وتغذّى به كان مختلفا عن سياق العلمي والاجتماعي الذي عاش فيه ابن عبد الوهّاب رحمهما الله تعالى.

---

[319] ولد عام 1860 في مدينة كولون في ألمانيا. ألّف كتاب « البدو » في مجلّدات خمسة، صدرت ترجمته إلى العربيّة (دار الورّاق 2004 م) ، نتاج بحوث ودراسات معمّقة استغرقت أربعين عاماً قضاها المؤلّف في الشّرق الأوسط. شارك أوبنهايم في إنجاز موسوعته «ارش برونلش وفيرنر كاسل» وصدرت تباعاً باللّغة الألمانيّة في خمسة مجلّدات، ظهر الجزء الأوّل منها في لايبزغ عام 1939، والثّاني في 1943، والثّالث في 1952، والرّابع في 1967 والخامس في 1968.
المصدر: http://www.aljarida.com/news/print_news/237645

عرض موجز لأبرز آراء ابن عاشور الإصلاحيّة

تعدّدت مجال إصلاح الشّيخ فطالت العقيدة والفكر والتّربية والمجتمع والدّولة. وهذه هي أهمّ مجالات إصلاحاته:

1 ـ إصلاحه في المستوى العقدي: صلاح الخلق والدّنيا بإصلاح العقيدة:

يرى الشّيخ أنّ الخلق لا تصلح دنياهم إلاّ بإصلاح عقائدهم، فقال رحمه الله في مقدّمة تفسيره " التّحرير و التّنوير " مبيّنا مقاصد تنزيل القرآن:" المقاصد الأصليّة التي جاء القرآن لتبيانها فلنلمّ بها الآن بحسب ما بلغ إليه استقراؤنا ثمانية أمور:

ـ **أوّلها: إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصّحيح** وهذا أعظم سبب لإصلاح الخلق، لأنّه يزيل عن النّفس عادة الإذعان لغير ما قام عليه الدّليل، ويطهّر القلب من الأوهام النّاشئة عن الإشراك..." [320]، كما أكّد هذا المعنى في مناسبة أخرى فقال:" إنّ الغرض الأكبر للقرآن هو إصلاح الأمّة بأسرها. فإصلاح كفّارها بدعوتهم إلى الإيمان ونبذ العبادة الضّالّة واتباع الإيمان والإسلام، وإصلاح المؤمنين بتقويم أخلاقهم وتثبيتهم على هداهم وإرشادهم إلى طريق النّجاح وتزكية نفوسهم"[321]. وقال أيضا: " إنّ القرآن أُنزل هدى للنّاس وتبيانا للأحكام التي بها إصلاح النّاس في عاجلهم وآجلهم ومعاشهم ومعادهم ولمّا لم يكن لنفوس الأمّة اعتياد بذلك لزم أن يهيّأ المخاطبون بها إلى تلقّيها، ويعرف تهيّؤهم بإظهارهم استعداد النّفوس بالتّخلّي عن كلّ ما من شأنه أن يعوق عن الانتفاع بهاته التّعاليم النّافعة، وذلك بأن يجرّدوا نفوسهم عن العناد والمكابرة، وعن خلط معارفهم بالأغلاط الفاقرة، فلا مناص لها قبل استقبال تلك الحكمة والنّظر من الاتّسام بميسم الفضيلة والتّخلية

---

[320] ابن عاشور. المقدّمة الرّابعة التّحرير والتّنوير. الدّار التّونسيّة للنّشر. تونس. ط: سنة 1404 هـ ـ 1984 م.(1/ 39 – 41).
[321] نفس المصدر. المقدّمة الثّامنة.(1/ 81).

عن السّفاسف الرّذيلة "[322].

ثانيها: بسط العقيدة في سياسة الأمّة بالشّريعة وسيادة الأمّة وشهادتها على النّاس: كان شيخنا يدندن على كمال الشّريعة وتمامها وعلى أنّ القرآن الكريم إنّما هو قانون ودستور جامع لمصالح الدّنيا والدّين: قال في مفتتح تفسيره " التّحرير والتّنوير " :" الحمد لله على أن بيّن للمستهدين معالم مراده، ونصب لجحافل المستفتحين أعلام أمداده فأنزل القرآن قانونا عاما معصوما.... فقد كان أكبر أمنيّتي منذ أمد بعيد، تفسير الكتاب المجيد، الجامع لمصالح الدّنيا والدّين، وموثّق شديد العرى من الحقّ المتين، والحاوي لكلّيّات العلوم ومعاقد استنباطها " [323].

ثالثها: التّشريع: جعل ابن عاشور التّشريع هو المقصد الأصليّ الثّالث الذي جاء من أجله القرآن الكريم، فقال:" الثّالث وهو الأحكام خاصّة وعامّة. قال تعالى:" إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ "[324]،" وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ "[325]. ولقد جمع القرآن جميع الأحكام جمعا كلّيّا في الغالب، وجزئيّا في المهمّ، فقوله:" تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ "[326]، وقوله:" الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ "[327] المراد بهما إكمال الكلّيّات التي منها الأمر بالاستنباط والقياس" [328].

رابعها: سياسة الأمّة: ذكر رحمه الله تعالى أنّ المقصد الرّابع الذي من أجله أُنزل القرآن الكريم فقال:" سياسة الأمّة وهو باب عظيم في القرآن القصد منه صلاح الأمّة وحفظ نظامها كالإرشاد إلى تكوين الجامعة بقوله:" وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ

---

[322] ابن عاشور. المقدّمة الرّابعة التّحرير والتّنوير. الدّار التّونسيّة للنّشر. تونس. ط: سنة 1404 هـ - 1984 م.(1/ 153).

[323] نفس المصدر. مقدّمة المقدّمات. التّحرير والتّنوير. ط: الدّار التّونسيّة للنّشر. سنة: 1404 هـ - 1984 م. (1/ 5).

[324] النّساء 104

[325] المائدة 50.

[326] النّحل 89.

[327] المائدة 4.

[328] ابن عاشور. المقدّمة الرّابعة. التّحرير والتّنوير. ط: الدّار التّونسيّة للنّشر. سنة: 1404 هـ - 1984م.(1/ 40).

عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا "[329]، وقوله:" إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ "[330]، وقوله:" وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ "[331]، وقوله:" وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ "[332]. [333].

كما لم يفته . رحمه الله . وهو يُعدّد مميّزات قصص القرآن، فذكر" منها أنّ القصص بُثّت بأسلوب بديع إذ ساقها في مظانّ الاتّعاظ بها مع المحافظة على الغرض الأصليّ الذي جاء به القرآن من تشريع وتفريع" [334].

أمّا بقيّة المقاصد الأصليّة التي جاء القرآن لتبيانها فهي: " الخامس: القصص وأخبار الأمم السّالفة للتّأسّي بصالح أحوالهم.... السّادس: التّعليم بما يناسب حالة المخاطبين، وما يؤهّلهم إلى تلقّي الشّريعة ونشرها... السّابع: المواعظ والإنذار والتّحذير والتّبشير.... الثّامن الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالّة على صدق الرّسول....". [335].

2 . إصلاحاته في المستوى الفكري والعلمي:

برزت أهمّ معالم تجديد الشّيخ في هذا الباب على هذه الأصول:

أ ــ التّأصيل المقاصدي للشّريعة: يعدّ ابن عاشور نموذجا في اعتبار المقاصد الشرعيّة موضوعًا محوريًّا في إضافة نوعيّة للأصول التّشريعيّة، ووصفا أساسيّا للاستدلال على الأحكام الشّرعيّة في الفقه والأصول وتفسير القرآن وفهم السّنّة النّبويّة. وبهذا يكون الشّيخ الإمام محمّد الطّاهر بن عاشور ممثّلا لطليعة مدرسة تجديد الفكر الإسلامي الحديث الدّاعية إلى ضرورة الاجتهاد وبيان أهمّيته ونبذ الجمود والتّقليد لتحقيق مقاصد الشّريعة الإسلاميّة وأهدافها، والانتقال من الرّكون وحالة الكسل الذّهني والفتاوى الفقهيّة الجامدة إلى روح الشّريعة ومحوريّة العقل في فهم الأحكام والتّعامل مع النّصوص.

---

[329] آل عمران 103.
[330] الأنعام 160.
[331] الأنفال 47.
[332] الشّورى 35.
[333] ابن عاشور. المقدّمة الرّابعة. التّحرير والتّنوير. ط: الدّار التّونسيّة للنّشر. سنة 1404 هـ - 1984م. تونس.(1/ 40).
[334] نفسه. المقدّمة السّابعة.(1/ 65).
[335] نفسه. المقدّمة الرّابعة.(1/ 41).

ب ــ التّرجيح الفقهيّ بالاعتبار المقاصدي: وفي هذا الباب رأى من المصلحة عند الاضطرار إباحة نكاح المتعة، فقال في تفسير الآية 24 من سورة النّساء:" والذي استخلصناه في حكم نكاح المتعة أنّه جائز عند الضّرورة الدّاعية إلى تأجيل مدّة العصمة، مثل الغربة في سفر أو غزو إذا لم تكن مع الرّجل زوجه ". [336].

ت ــ تفعيله مقاصد الشّريعة في استنباط الأحكام، والانتقال من البحث الفروعي إلى البحث الكلّي، ومن البناء على الجزئيّات إلى البناء على الكلّيّات والتّوجّه إلى اعتبار المعاني والمقاصد والأعراف عند النّظر في النّصوص، والبعد عن التفسير الحرفي الذي يعارض كلّيّات من القواعد الشّرعيّة: ومثال ذلك تعليله ما ورد في السّنّة من أنواع التّجمّل للنّساء كالوصل والنّمص والتّفلّج ... بأنّ " تلك الأحوال كانت في العرب أمارات رقّة حصانة المرأة، فالنّهي عنها نهي عن الباعث عليها أو عن التّعرّض لهتك العرض بسببها " [337]. ويقول:" وأنا أجزم بأنّ ما ورد عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا كان كذلك ورد عنه إنّما أراد به ما كان من ذلك شعاراً لرقّة عفاف نساء معلومات" [338]. فالشّيخ يستند بذلك إلى ما عليه الفقهاء من التّفريق بين الأوصاف المقصودة للتّشريع وبين الأوصاف المقارنة لها التي لا يتعلّق بها غرض الشّارع، وأمّا تغيير الخلق فيكون إثماً إذا ما كان فيه حظّ من طاعة الشّيطان بأن يجعل لنحلة شيطانيّة [339]. وَهذا غيرُ صحيح لأنّه يؤدّي إلى ردّ النّصوص بتأويلات بعيدة.

ث ــ التّفسير المقاصدي للقرآن الكريم: قام الشّيخ بإضافة نوعيّة لم يسبقه فيها مفسّر، حين ضبط مقاصد أصليّة قصدها القرآن، وجعلها ثمانية، ذكرنا ذلك في عنصر إصلاح الشّيخ في المستوى العقدي [340].

ج ــ التّعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين، وما يؤهّلهم إلى تلقّي الشّريعة

---

[336] الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور. تفسير التّحرير والتّنوير. ط: س1404 هـ - 1984 م. الدّار التّونسيّة للنّشر.تونس.(11/5).

[337] الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور. مقاصد الشّريعة. طّ: 1. الشّركة التّونسيّة للتّوزيع. س: صفر 1398 هـ - جانفي 1978 م. تونس. ص 96.

[338] نفسه. ص: 111- 112.

[339] محمّد الطّاهر ابن عاشور.تفسير التّحرير والتّنوير. ط: س1404 هـ - 1984م. الدّار التّونسيّة للنّشر.تونس.(5 /205).

[340] انظر أعلاه ص 42 - 44.

ونشرها، وذلك علم الشّرائع وعلم الأخبار وكان ذلك مبلغ علم مخالطي العرب من أهل الكتاب..."[341].

ح . اعتماده على منهج النّقد واعتباره ميزانا علمياً مهمّا: لأنّ كلمة التّوحيد " لا إله إلاّ الله "، تفيد نفيا وإثباتا، فهي تدعو إلى نقد الواقع ونقض الفاسد منه، ولذلك لا يثبت توحيد إلاّ بنقض نقيضه، قال تعالى:" فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا " [342]، فالنّقد والنّقض ساهما في تحريك الوعي وبالتّالي في تحريك التّاريخ. وعلى هذا المنهج سار ابن عاشور، فتميّز منهجه الإصلاحي بالحسّ النقديّ للموروث الفكري والفقهي والأصولي، وفي بعض الأحيان يكون لاذعا، فقد أعاد قراءة الذين سبقوه في سائر العلوم والمدارس.

ومن بين الذين إنتقدهم شيخنا:

أوّلا: الأشاعرة: راجع شيخنا ابن عاشور الأشاعرة في مسائل كثيرة منها:

ــ انتقادهم في باب الصّفات: سلك العلاّمة الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور اعتقاد الأشاعرة في نصوص الصّفات، تأويلا أو تفويضا من حيث الأصل، وكلاهما مخالف لمذهب القرون المفضّلة الأولى، بل والقرون الخمسة الأولى في تونس، حيث يثبتونها على ما يعرف من معناها في لغة العرب من غير تأويل أو تشبيه أو تمثيل [343]. إلاّ أنّ الشّيخ خالف الأشاعرة في بعض المسائل ففي تفسير قول الله تعالى:" إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ " [344]. ذكر أنّ السّلف كانوا يأبون تأويلها ويتلقّونها وأمثالها بلا بحثٍ ولا سؤال لأنّهم علموا المقصود الإجمالي منها فاقتنعوا بالمعنى مجملاً، ثمّ يردّ على تأويلات الأشاعرة فيقول:" قد تأوّله المتأخّرون من الأشاعرة

---

[341] محمّد الطّاهر ابن عاشور.تفسير التّحرير والتّنوير. ط: س1404 هـ - 1984م. الدّار التّونسيّة للنّشر.تونس. المقدّمة الرّابعة. بتصرّف . ص 40 - 41.

342) البقرة :.254

[343] انظر في ذلك تفسيره لمجيء الله تعالى (284/2) والاستواء (187/16) واليدين (302/23).

[344] الأعراف 53.

تـأويلات، أحسـنها: مـا جـنح إليـه إمـام الحـرمين أنّ المـراد بالاسـتواء الاسـتيلاء بقرينـة تعديتـه بحـرف علـى" ثمّ يعلّـق الشّـيخ علـى ذلـك قـائلا:" ... وأُراه بعيـداً، لأنّ العـرش مـا هـو إلاّ مـن مخلوقاته فلا وجه للإخبار باستيلائه عليه " [345].

ـ **انتقـدهم في مسـألة كـلام الله تعـالى،** ففـي تفسـيره للآيـة 164 مـن سـورة النّسـاء:" وَكَلَّـمَ اللَّهُ مُوسَـى تَكْلِيمًـا " [346] يـورد كلامـا كثـيرا، ومباحـث حـول الآيـة، ويـذكر خـلاف المتكلّمـين حـول صـفة الكـلام، ثمّ يقـول:" ولـذلك فاحتجـاج كثـير مـن الأشـاعرة بهـذه الآيـة علـى كـون الكـلام الَّـذي سمعـه موسـى الصّـفة الذّاتيّـة القائمـة بـالله تعـالى احتجـاج ضـعيف " [347].هـذا، إضـافة إلى انتقـادهم في مسـألة "وجـوب النّظـر" وأنّـه لم يـر جوابـا للأشـاعرة عـن بعـض مـا اعترض عليهم به[348].

ـ **انتقـدهم في نفـي " الحكمـة والتّعليـل "** فراجـع الشّـيخ أصـحابه الأشـاعرة ونقـدهم في تقريرهم نفي "الحكمة والتّعليل" عن أفعال الله تعالى [349].

ثانيـا: نقـده الشّـرك وأشـكاله، والكفـر وضـروبه: فحـذّر مـن البدعـة ونفّـرهم منهـا، و شـنّع علـى المبتدعـة وأهـل الضّـلال، ونقـض أصـول الزّنادقـة وأقبرهـا، وبـيّن أمـر مـن فسـدت معتقداتهم، ومن هؤلاء:

ـ **القبوريّـون:** حـذّر الشّـيخ ابـن عاشـور اتّخـاذ القبـور مسـاجد. قـال رحمـه الله تعـالى:" وقـد كـان اتّخـاذ المسـاجد علـى قبـور الصّـالحين مـن سـنّة النّصـارى، ونهـى عنـه النّـبيء صـلّى الله عليـه وسـلّم كمـا في الحـديث يـوم وفـاة رسـول الله صـلّى الله عليـه وسـلّم حيـث قالـت عائشـة رضـي الله عنهـا: ولـولا ذلـك لأبـرز قـبره، أي لأبـرز في المسـجد النّبـوي، ولم يجعـل وراء جـدار الحجـرة. واتّخـاذ المسـاجد علـى القبـور، والصّـلاة فيهـا منهـي عنـه، لأنّ ذلـك ذريعـة إلى عبـادة صـاحب القـبر أو شـبيه بفعـل مـن يعبـدون صـالحي ملّـتهم، وإنّمـا كانـت الذّريعـة مخصوصـة

---

[345] انظـر تأويلـه قولـه تعـالى:" إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّـذِي خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِـي سِـتَّةِ أَيَّـامٍ ثُـمَّ اسْـتَوَىٰ عَلَـى الْعَـرْشِ ". الآيـة 53 مـن سـورة الأعراف. التّحرير والتّنوير. دار سحنون للنّشر والتّوزيع . تونس. 1417 هـ - 1997 م. (9/ 164).

[346] النّساء 163.

[347] ابن عاشور. التّحرير والتّنوير. دار سحنون للنّشر والتّوزيع. تونس. 1417 هـ- 1997 م.(6/ 39).

[348] نفس المصدر. (6/ 42).

[349] نفس المصدر. (1/ 380).

بـالأموات، لأنّ مـا يعـرض لأصـحابهم مـن الأسـف علـى فقـدانهم يبعـثهم علـى الإفـراط فيمـا يحسبون أنّـه إكـرام لهـم بعـد مـوتهم، ثمّ يتناسـى الأمـر، ويظـنّ النّـاس أنّ ذلـك لخاصّـيّة في ذلـك الميّـت، وكـان بنـاء المسـاجد علـى القبـور سنّة لأهـل النّصـرانيّة، فـإن كـان شـرعا لهـم فقـد نسـخه الإسلام، وإن كان بدعة منهم في دينهم فأجدر" [350].

نقـده للمعتزلـة في أكثـر مـن موضـع في تفسـيره، وأذكـر مـا جـاء في مقدّمـة تفسـيره خشـية الإطالة:

الموضـــع الأوّل: في مقدّمـــة تفسـيره في المقدّمـــة الثّالثـــة في صـــحّة التّفسـير بغـير المـأثور ومعـنى التّفسـير بـالرّأي ونحـوه، فيقـول رحمـه الله تعـالى:" ... كـذلك تفسـير المعتزلـة قولـه:" إِلَى رَبِّهَـا نَـاظِرَةٌ " [351]، بمعـنى أنّهـا تنتظـر نعمـة ربّهـا علـى أنّ " إلى " واحـد الآلاء مـع مـا في ذلـك مـن الخروج عن الظّاهر وعن المأثور وعن المقصود من الآية.

الموضـع الثّـاني: المقدّمـة الرّابعـة فيمـا يحـقّ أن يكـون غـرض المفسّـر فقـال:" فمـراد الله مـن كتابـه هـو بيـان تصـاريف مـا يرجـع إلى حفـظ مقاصـد الـدّين، وقـد أودع ذلـك في ألفـاظ القـرآن الـتي خاطبنـا بهـا خطابـا بيّنـا وتعبّـدنا بمعرفـة مـراده والاطّـلاع عليـه فقـال "كِتَـابٌ أَنْزَلْنَـاهُ إِلَيْـكَ مُبَـارَكٌ لِيَـدَّبَّرُوا آيَاتِـهِ وَلِيَتَـذَكَّرَ أُولُـو الْأَلْبَـابِ "[352] سـواء قلنـا إنّـه يمكـن الاطّـلاع علـى تمـام مـراد الله تعـالى وهـو قـول علمائنـا والمشـائخي والسّـكّاكي وهمـا مـن المعتزلـة، أم قـال قائـل بقـول بقيّـة المعتزلـة أنّ الاطّـلاع علـى تمـام مـراد الله تعـالى غـير ممكـن، وهـو خـلاف لا طائـل تحتـه إذ القصـد هـو الإمكـان الوقـوعي لا العقلـي، فـلا مـانع مـن التّكليـف باستقصـاء البحـث عنـه بحسـب الطّاقة، ومبلغ العلم مع تعذّر الاطّلاع على تمامه " [353].

الموضـــع الثّالـــث: ذكـــر في المقدّمـــة السّادســـة تحـــت عنـــوان " مراتـــب القـــراءات الصّـــحيحة والتّرجـيح بينهـا"، فقـال رحمـه الله تعـالى:" وأمـا وجـوه الإعـراب في القـرآن فأكثرهـا متـواتر إلا مـا سـاغ فيـه إعرابـان مـع اتحـاد المعـاني نحـو (وَلاَتَ حِـينَ مَنَـاصٍ) [354] بنصـب حـين ورفعـه،

---

[350] ابن عاشور. التّحرير والتّنوير. ط: دار سحنون للنّشر والتّوزيع. تونس.س: 1417 هـ - 1997 م. (1/ 290).
[351] سورة القيامة 22.
[352] سورة ص 28.
[353] الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور. تفسير التّحرير والتّنوير. ط: الدّار التّونسيّة للنّشر.تونس. س: 1404هـ - 1984 م.(39/1).
[354] سورة ص 2.

ونحو (وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ)[355] بنصب (يقول) ورفعه، ألا ترى أنّ الأمّة أجمعت على رفع اسم الجلالة في قوله تعالى(وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا)[356] وقرأه بعض المعتزلة بنصب اسم الجلالة لئلا يثبتوا لله كلاما "[357].

الموضع الرابع: جاء هذا أيضا في المقدّمة السّادسة تحت عنوان "مراتب القراءات الصّحيحة والتّرجيح بينها "، فقال رحمه الله تعالى:" وأمّا ما خالف الوجوه الصّحيحة في العربيّة ففيه نظر قويّ لأنّا لا ثقة لنا بانحصار فصيح كلام العرب فيما صار إلى نحاة البصرة والكوفة ، وبهذا نبطل كثيرا مما زيّفه الزّمخشري من القراءات المتواترة بعلّة أنّها جرت على وجوه ضعيفة في العربيّة لا سيما ما كان منه في قراءة مشهورة كقراءة عبد الله بن عامر ... " [358].

الموضع الخامس: في المقدّمة السّادسة في القراءات، يردّ على قول أحد أئمّة المعتزلة في بدعة القول بصحّة مصاحف أخرى ثبتت عندهم تخالف مصحف الإمام عثمان بن عفّان رضي الله عنه، فيقول رحمه الله تعالى:" ومع ذلك فقد شذّت مصاحف بقيت مغفولا عنها بأيدي أصحابها، منها ما ذكره الزّمخشري في الكشّاف في سورة الفتح أنّ الحارث بن سويد صاحب عبد الله بن مسعود كان له مصحف دفنه في مدّة الحجّاج، قال في الكشّاف لأنّه كان مخالفا للمصحف الإمام، وقد أفرط الزّمخشري في توهين بعض القراءات لمخالفتها لما اصطلح عليه النّحاة وذلك من إعراضه عن معرفة الأسانيد. من أجل ذلك اتّفق علماء القراءات والفقهاء على أنّ كلّ قراءة وافقت وجها في العربيّة ووافقت خطّ المصحف أي مصحف عثمان وصحّ سند راويها، فهي قراءة صحيحة لا يجوز ردّها "[359].

كما تعرّض للمعتزلة في كلّ كتبه إلى درجة أنّه قال:" هل لهؤلاء المعتزلة عقول؟ " [360].

ثالثا: نقده لغلاة الشّيعة كالرّافضة والبيانيّة والمنصوريّة في تفسيره في مناسبات عديدة

---

[355] البقرة 212.
[356] النّساء 163.
[357] الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور. تفسير التّحرير والتّنوير. ط: الدّار التّونسيّة للنّشر. تونس. س: 1404 هـ - 1984م. (61/1).
[358] نفس المرجع (61/1).
[359] نفسه (1/ 53).
[360] الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور. " أليس الصّبح بقريب؟ ". ط: 3. دار سحنون للنّشر والتّوزيع ودار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة. س: 1431 هـ - 2010 م. ص 59.

وكان ردّه عليهم قاسيا، نذكر بعضها:

أوّلا: نقضه لهرطقات الرّافضة: خاصم شيخنا ابن عاشور الرّافضة في عشر مواضع وهي:

الموضع الأوّل: عند كلامه على القراءات في المقدّمة السّادسة: فقال رحمه الله تعالى:" وقرأ بعض الرّافضة: " وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً " [361] بصيغة التّثنية وفسّروها بأبي بكر وعمر حاشاهما، وقاتلهم الله " [362].

الموضع الثّاني: وهو يردّ على الرّافضة الذين يدّعون أنّ القرآن هو جِمْلُ جَمَل عند الإمام المعصوم المنتظر. ففي معرض كلامه عن (البسملة) وخلاف أهل العلم في كونها آية من كلّ سورة. قال رحمه الله تعالى: " قال الباقلاّني: لو كانت التّسمية من القرآن لكان طريق إثباتها إمّا التّواتر أو الآحاد، والأوّل باطل، لأنّه لو ثبت بالتّواتر كونها من القرآن لحصل العلم الضّروري بذلك، ولآمتنع وقوع الخلاف فيه بين الأمّة، والثّاني أيضًا باطل، لأنّ خبر الواحد لا يفيد إلاّ الظّنّ، فلو جعلناه طريقًا إلى إثبات القرآن لخرج القرآن عن كونه حجّة يقينيّة، ولصار ذلك ظنّيًا، ولو جاز ذلك لجاز ادّعاء الرّوافض أنّ القرآن دخله الزّيادة والنّقصان والتّغيير والتّحريف..." إلى أن قال رحمه الله " في نقل كلامٍ للباقلاّني إنّ رسول الله بيّن القرآن بيانا واحدا متساويا ولم تكن عادته في بيانه مختلفة بالظّهور والخفاء حتّى يختصّ به الواحد والاثنان ولذلك قطعنا بمنع أن يكون شيء من القرآن لم ينقل إلينا، وأبطلنا قول الرّافضة إنّ القرآن جِمْلُ جَمَلٍ عند الإمام المعصوم المنتظر، فلو كانت البسملة من الحمد لبيّنها رسول الله بيانًا شافيًا " [363].

الموضع الثّالث: حيث كفّر غُلاة الإسماعيليّة عند تفسير قوله تعالى:" يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا

---

[361] سورة الكهف 50.
[362] الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور. تفسير التّحرير والتّنوير. ط: الدّار التّونسيّة للنّشر. تونس. س: 1404 هـ - 1984 م (1/ 61).
[363] نفس المرجع (139/1).

كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ" [364] فكان ممّا قال: " قال مالك: إنَّما هذه لأهل القبلة. يعني أنّها ليست للّذين تفرّقوا واختلفوا من الأمم قبلنا، بدليل قوله: " أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ "، ورواه أبو غسّان مالك الهروي عن مالك عن ابن عمر، وروي مثل هذا عن ابن عبّاس، وعلى هذا الوجه: فالمراد الذين أحدثوا بعد إيمانهم كفرًا بالرّدّة أو بشنيع الأقوال التي تفضي إلى الكفر ونقض الشّريعة، مثل الغرابيّة من الشّيعة الذين قالوا بأنّ النّبوّة لعليّ، ومثل غلاة الإسماعيليّة أتباع حمزة بن علي، وأتباع الحاكم العبيدي..." [365].

الموضع الرّابع: وهو يُنكر على الرّافضة ادّعاءهم أنّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم قد خصّ آل البيت علما لم يُبلّغه إلى غيرهم، وادّعاءهم أيضا أنّ القرآن هو أكثر ممّا هو في مصحف عثمان، ففي تأويل الآية 69 من سورة المائدة، وهي قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)[366] . قال رحمه الله تعالى:" دلّت الآية على أنّ الرّسول مأمور بتبليغ ما أنزل إليه كلّه، بحيث لا يتوهّم أحد أنّ رسول الله قد أبقى شيئا من الوحي لم يبلغه، لأنّه لو ترك شيئا منه لم يبلّغه لكان ذلك ممّا أنزل إليه ولم يقع تبليغه. وإذ قد كانت هذه الآية من آخر ما نزل من القرآن، علمنا أنّ من أهمّ مقاصدها أنّ الله أراد قطع تخرّص من قد يزعمون أنّ الرّسول قد استبقى شيئًا لم يبلّغه، أو أنّه قد خصّ بعض النّاس بإبلاغ شيء من الوحي لم يبلّغه للنّاس عامّة. فهي أقطع آية لإبطال قول الرّافضة بأنّ القرآن أكثر ممّا هو في المصحف الذي جمعه أبو بكر ونسخه عثمان، وأنّ رسول الله اختصّ بكثير من القرآن عليّ بن أبي طالب، وأنّه أورثه أبناءه، وأنّه يبلغ وقر بعير، وأنّه اليوم مختزن عند الإمام المعصوم الذي يلقّبه بعض الشّيعة بالمهدي المنتظر وبالوصي، وكانت هذه الأوهام ألَمَّتْ بأنفس بعض المتشيّعين إلى عليّ رضي الله عنه في مدّة حياته، فدعا ذلك بعض النّاس إلى سؤاله عن ذلك. روى البخاري أنّ أبا جُحَيْفة سأل عليّاً: هل عندكم شيء ما ليس في القرآن وما ليس عند النّاس؟ فقال: " لا،

---

[364] آل عمران 106.
[365] الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور. تفسير التّحرير والتّنوير. ط: الدّار التّونسيّة للنّشر. تونس. س: 1404 هـ - 1984م. (3/ 46).
[366] الأنعام 69.

والّذي فلق الحبّة وبرأ النّسمة ما عندنا إلاّ ما في القرآن إلاّ فهما يُعطَى رجل في كتاب الله وما في الصّحيفة، قلت: وما في الصّحيفة، قال: العقل، وفَكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر " [367].

الموضع الخامس: وهو يُثبت طهارة نسب الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بالرّغم من كفر آزر، لأنّ الكفر لا ينافي خلوص النّسب النّبوي خلوصًا جبليًّا. وذلك في تأويل قوله تعالى:" وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ "[368]، قال الشّيخ رحمه الله تعالى:" قال الفخر: وقالت الشّيعة: لا يكون أحد من آباء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأجداده كافرًا. وأنكروا أنّ آزر أب لإبراهيم وإنّما كان عمّه. وأمّا أصحابنا فلم يلتزموا ذلك. قلت: هو كما قال الفخر من عدم التزام هذا، وقد بيّنتُ في رسالة لي في طهارة نسب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّ الكفر لا ينافي خلوص النّسب النّبوي خلوصًا جبليًّا، لأنّ الخلوص المبحوث عنه هو الخلوص ممّا يتعيّر به في العادة " [369].

الموضع السّادس: وهو يُثبت أنّ كلّ نساء النّبيّ هُنّ المقصودات بأهل البيت، ولا فاطمة وعليّا وابنيهما فحسب كما يدّعي الرّافضة، ففي الآية 33 من سورة الأحزاب عند تفسير قوله تعالى:(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً)[370]. قال رحمه الله تعالى:" والتّعريف في (الْبَيْتِ) تعريف العهد وهو بيت النّبيء صلّى الله عليه وسلّم وبيوت النّبيء صلّى الله عليه وسلّم كثيرة فالمراد هنا بالبيت هنا بيت كلّ واحدة من أزواج النبيء صلّى الله عليه وسلّم وكلّ بيت من تلك البيوت أهله النّبيء صلّى الله عليه وسلّم وزوجه صاحبة ذلك ولذلك جاء بعده قوله:(وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ) [371]، وضميرا الخطاب موجّهان إلى نساء النّبيء صلّى الله عليه وسلّم على سنن الضّمائر التي تقدّمت. وإنّما جيء بالضّميرين بصيغة جمع المذكّر على طريقة التّغليب لاعتبار النّبيء صلّى الله

---

[367] الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور. تفسير التّحرير والتّنوير. ط: الدّار التّونسيّة للنّشر. تونس. س: 1404 هـ - 1984م. (4 /260).

[368] الأنعام: 74.

[369] الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور. تفسير التّحرير والتّنوير. ط: الدّار التّونسيّة للنّشر. س: 1404 هـ - 1984 م. (22/ 14).

[370] الأحزاب: 33.

[371] الأحزاب: 34.

عليه وسلّم في هذا الخطاب لأنّ ربّ كلّ بيت من بيوتهنّ وهو حاضر الخطاب إذ هو مبلغه. وفي هذا التّغليب إيماء إلى أنّ هذا التّطهير لهنّ لأجل مقام النّبيء صلّى الله عليه وسلّم لتكون قريناته مشابهات له في الزّكاء والكمال، كما قال تعالى: (وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ)[372]، يعني أزواج للنّبيء صلّى الله عليه وسلّم، وهو نظير قوله في قصّة إبراهيم: (رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ)[373]، والمخاطب زوج إبراهيم وهو معها "[374]. ثمّ يقول رحمه الله تعالى:".. و " أَهْلَ الْبَيْتِ ": أزواج النّبيء صلّى الله عليه وسلّم والخطاب موجّه إليهنّ وكذلك ما قبله وما بعده لا يخالط أحدا شكّ في ذلك ولم يفهم منها أصحاب النّبيء صلّى الله عليه وسلّم و التّابعون إلاّ أنّ أزواج النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام هنّ المراد بذلك وأنّ النّزول في شأنهنّ...." [375]. ثمّ يردّ على الرّافضة الذين اختطفوا حديث الكساء ووظّفوه توظيفا مذهبيّا سيّئا، فقال:"... وقد تلقّف الشّيعة حديث الكساء، فغصبوا وصف أهل البيت وقصروه على فاطمة وزوجها وابنيهما عليهم الرّضوان، وزعموا أنّ أزواج النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لسن من أهل البيت. وهذه مصادمة للقرآن بجعل هذه الآية حشوًا بين ما خوطب به أزواج النّبيّ. وليس في لفظ حديث الكساء ما يقتضي قصر هذا الوصف على أهل الكساء؛ إذ ليس في قوله: (هؤلاء أهل بيتي) صيغة قصر، وهو كقوله تعالى:(إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي)[376]، ليس معناه ليس لي ضيف غيرهم، وهو يقتضي أن تكون هذه الآية مبتورة عمّا قبلها وما بعدها. ويظهر أنّ هذا التّوهّم من زمن عصر التّابعين وأنّ منشأه قراءة هذه الآية على الألسن دون اتّصال بينها وبين ما قبلها وما بعدها، ويدلّ لذلك ما رواه المفسّرون عن عكرمة أنّه قال: من شاء باهلته أنّها نزلت في أزواج النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وأنه قال أيضًا: ليس بالذي تذهبون إليه، إنّما هو نساء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وأنّه كان يصرخ بذلك في السّوق. وحديث عمر بن أبي سلمة صريح في أنّ الآية نزلت قبل أن يدعو النّبيّ الدّعوة لأهل الكساء، وأنّها نزلت في بيت أمّ سلمة " [377].

---

[372] النّور: 26.
[373] هود: 72
[374] الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور. التّحرير والتّنوير. ط: الدّار التّونسيّة للنّشر. س: 1404 هـ - 1984 م. (22/ 14).
[375] الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور. التّحرير والتّنوير. ط: الدّار التّونسيّة للنّشر. س: 1404 هـ - 1984 م. (22/ 15).
[376] الحجر: 68.
[377] الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور. تفسير التّحرير والتّنوير. ط: الدّار التّونسيّة للنّشر.س: 1404 هـ - 1984م. (45/22).

الموضع السّابع: وهو ينقض قول غلاة الشّيعة في إثبات النّبوّة بعد محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وذلك عند تفسير قوله تعالى:(مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً) [378] فيقول رحمه الله تعالى:" والآية نصّ في أنّ محمّداً صلّى الله عليه وسلّم خاتم النّبيّين وأنّه لا نبيّ بعده في البشر لأنّ النّبيّين عام فخاتم النّبيّين هو خاتمهم في صفة النّبوءة. ولا يعكر على نصّيّة الآية أنّ العموم دلالتُه على الأفراد ظنّية لأنّ ذلك لاحتمال وجود مخصّص. وقد تحقّقنا عدم المخصّص بالاستقراء. وقد أجمع الصّحابة على أنّ محمّداً صلّى الله عليه وسلّم خاتم الرّسل والأنبياء وعُرف ذلك وتواتر بينهم وفي الأجيال من بعدهم ولذلك لم يتردّدوا في تكفير مسيلمة والأسود العَنْسِي فصار معلوماً من الدّين بالضّرورة فمن أنكره فهو كافر خارج عن الإسلام ولو كان معترفاً بأن محمّداً صلّى الله عليه وسلّم رسول الله للناس كلّهم. وهذا النوع من الإجماع موجب العلم الضروري كما أشار إليه جميع علمائنا ... ثمّ يكفّر غلاة الرّافضة الذين يقولون بخلاف ذلك ـ فيقول رحمه الله تعالى:"... ولذلك لا يتردّد مسلم في تكفير من يثبت نبوّة لأحد بعد محمّد صلّى الله عليه وسلّم وفي إخراجه من حظيرة الإسلام، ولا تعرف طائفة من المسلمين أقدمت على ذلك إلاّ البابيّة والبهائيّة وهما نحلتان مشتقّة ثانيتهما من الأولى. وكان ظهور الفرقة الأولى في بلاد فارس في حدود سنة مائتين وألف وتسرّبت إلى العراق، وكان القائم بها رجلًا من أهل شيراز يدعوه أتباعه السّيّد علي محمّد، كذا اشتهر اسمه، كان في أوّل أمره من غلاة الشّيعة الإماميّة... فالبهائيّة أو البابيّة قالوا بمجيء رسول من بعد محمّد صلّى الله عليه وسلّم، أمّا الغرابيّة من الشّيعة فرغم إثباتهم النّبوّة لمحمّد صلّى الله عليه وسلّم، إلاّ أنّهم أيضا اثبتوا النّبوّة لعلي، وزعموا أنّ محمّدا غير معَين من عند الله وقالوا: إنّ جبريل أرسل إلى عليّ ولكنه شُبِّه له محمّد بعلي، إذ كان أحدهما أشبه بالآخر من الغراب بالغراب ـ وكذبوا ـ " [379].

الموضع الثّامن: وهو يردّ على الشّيعة الذين يَخُصّون عليّا وفاطمة وآلهما بالتّسليم وذلك في تفسير قوله تعالى:(إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ

---

[378] الأحزاب 40.

[379] الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور. تفسير التّحرير والتّنوير. ط: الدّار التّونسيّة للنّشر. تونس. س.: 1404 هـ - 1984م.(22/ 46 - 47).

وَسَـلِّمُوا تَسْـلِيماً)[380] فقـال رحمـه الله تعـالى:" ... وقـد استحسـن أيمّـة السّـلف أن يجعـل الـدّعاء بالصّـلاة مخصوصـاً بـالنّبيّ صـلّى الله عليـه وسـلّم. وعـن مالـك: لا يُصـلّى علـى غـير نبيئنـا مـن الأنبيـاء. يريـد أنّ تلـك هـي السّـنّة، وروي مثلـه عـن ابـن عبّـاس، وروي عـن عمـر بـن عبـد العزيـز: أنّ الصّـلاة خاصّـة بـالنّبيئين كلّهـم. وأمّـا التّسـليم في الغيبـة فمقصـور عليـه وعلـى الأنبيـاء والملائكـة لا يشـركهم فيـه غـيرهم مـن عبـاد الله الصّـالحين لقولـه تعـالى: (سَـلامٌ عَلَـى نُـوحٍ فِي الْعَـالَمِينَ) [381]، وقولـه: (سَـلامٌ عَلَـى آل يَاسِـينَ) [382]، (سَـلامٌ عَلَـى مُوسَـى وَهَـارُونَ) [383] ، (سَـلامٌ عَلَـى إِبْـرَاهِيمَ) [384]. وأنّـه يجـوز إتّبـاع آلهـم وأصـحابهم وصـالحي المـؤمنين إيّـاهم في ذلـك دون اسـتقلال. هـذا الـذي اسـتقرّ عليـه اصـطلاح أهـل السّـنّة ولم يقصـدوا بـذلك تحريمـاً ولكنّـه اصـطلاح وتمييـز لمراتـب رجـال الـدّين، كمـا قصـروا الرّضـى علـى الأصـحاب وأيمّـة الـدّين، وقصـروا كلمـات الإجـلال نحـو: تبـارك وتعـالى، وجـلّ جلالـه، علـى الخـالق دون الأنبيـاء والرّسـل. وأمّـا الشّـيعة فـإنّهم يـذكرون التّسـليم علـى عليّ وفاطمـة وآلهمـا، وهـو مخـالف لعمل السّلف فلا ينبغي اتّباعهم فيه لأنّهم قصدوا به الغضّ من الخلفاء والصّحابة " [385].

الموضـع التّاسـع: وهـو يـنقض زعـم الرّافضـة أنّ القـرآن الكـريم قـد تلاشـى منـه كثـير، ففـي أوّل مقدّمـة تفسـير سـورة الأحـزاب. فقـال رحمـه الله تعـالى:" وكـون القـرآن قـد تلاشـى منـه كثـير هـو أصـل مـن أصـول الـرّوافض ليطعنـوا بـه في الخلفـاء الثّلاثـة، والرّافضـة يزعمـون أنّ القـرآن مسـتودع عنـد الإمـام المنتظـر فهـو الـذي يـأتي بـالقرآن وقـر بعـير . وقـد اسـتوعب قـولهم واسـتوفى إبطالـه أبو بكر بن العربي في كتاب العواصم من القواصم " [386].

الموضـع العاشـر: وهـو يسـخر مـن خفّـة عقـول الرّافضـة عنـد تفسـير قولـه تعـالى:(ثُمَّ كُلِـي مِـنْ كُـلِّ الثَّمَـرَاتِ فَاسْـلُكِي سُـبُلَ رَبِّـكِ ذُلُـلاً يَخْـرُجُ مِـنْ بُطُونِهَـا شَـرَابٌ مُخْتَلِـفٌ أَلْوَانُـهُ فِيـهِ شِـفَاءٌ لِلنَّـاسِ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لآيَـةً لِقَـوْمٍ يَتَفَكَّـرُونَ)[387]. فقـال رحمـه الله تعـالى في شـكل اسـتهزاء:" ومـن

---

[380] الأحزاب : 56.
[381] الصّافّات : 79.
[382] الصّافّات : 130.
[383] الصّافّات : 120.
[384] الصّافّات : 109.
[385] الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور. تفسير التّحرير والتّنوير. ط: الدّار التّونسيّة للنّشر. تونس. س: 1404 هـ - 1984.(103/22).
[386] نفس المصدر. (247/21).
[387] النّحل : 66.

لطيف النّوادر ما في «الكشّاف»: أنّ من تأويلات الرّوافض أنّ المراد بالنّحل في الآية عليّ وآله. وعن بعضهم أنّه قال عند المهدي: إنّما النّحل بنو هاشم يخرج من بطونهم العلم، فقال له رجل: جعَل الله طعامك وشرابك ممّا يخرج من بطون بني هاشم، فضحك المهدي وحدّث به المنصور فاتّخذوه أضحوكة من أضاحيكهم. قلت: الرّجل الذي أجاب الرّافضي هو بَشّار بن برد. وهذه القصّة مذكورة في أخبار بشّار [388]." [389].

ثانيا: نقده لفرقة البيانيّة [390]: في مقدّمة تفسيره في مناسبتين:

زعم بيان بن سمعان أنّ روح الإله حلّ في الأنبياء ثمّ في عليّ وبعده في محمّد ابن الحنفيّة في ابنه أبي هاشم عبد الله بن محمّد ثمّ حلّ بعد أبي هاشم في بيان بن سمعان يعني نفسه لعنه الله "[391]. وفي المناسبة الثّانية قال ابن عاشور: " وقالت البيانيّة في قوله تعالى:(هَذَا بَيَان لِلنَّاسِ)[392] : إنّه بيان بن سمعان كبير مذهبهم. وكانت المنصوريّة أصحاب أبي منصور الكسف يزعمون أنّ المراد من قوله تعالى:(وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ) [393] أنّ الكسف إمامهم نازل من السّماء، وهذا إن صحّ عنهم ولم يكن من ملصقات أضدادهم فهو تبديل للقرآن ومروق عن الدّين " [394].

ثالثا: إنكاره على ما يفعله الشّيعة يوم عاشوراء:

قال رحمه الله تعالى: " وفي الصّحيح: " لَيْسَ مِنَّا مَن شقَّ الجُيوبَ وَلَطَمَ الخُدُودَ ودعا بِدَعْوَى الجاهليّةِ " [395]، ولذلك كان إثم من يجدّد الحزن لأهل الميّت شديداً مثل اللاّئي يسعفن نساء الميّت بالنّياحة

ويذكر محاسنة وتعظيم رزيّته، ويعكس ذلك من خفّف عن أهل الميّت مصيبتهم. ففي سنن التّرمذي وابن ماجة عن ابن مسعود مرفوعاً: " مَنْ عَزَّى مُصَاباً فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ " [396]وهذا الحديث غريب، تفرّد

---

[388] الإمام محمد الطّاهر ابن عاشور. تفسير التّحرير والتّنوير. ط : الدّار التّونسيّة للنّشر. تونس. س: 1404هـ - 1984م. (1/ 31).

[389] انظر خالد بن أحمد الشّامي. موقف ابن عاشور من الشّيعة في كتابه التّحرير والتّنوير من خلال كتابه العظيم التّحرير والتّنوير. نشر: مركز المغرب العربي للدّراسات والتّدريب. ط: 1. س: 1431 هـ - 2010 م. الدّار البيضاء. المغرب. بتصرّف من ص (170 إلى ص 337).

[390] البيانيّة هي فرقة من أتباع بيان بن سمعان النّهدي التّميمي. ادّعى النّبوّة والإلهيّة لنفسه، قتله خالد القسري عام 126 هـ - 705 م.. وقيل: قبل ذلك.

[391] الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور. تفسير التّحرير والتّنوير. ط: الدّار التّونسيّة للنّشر. تونس. س: 1404 هـ - 1984م. (1/ 31).

[392] آل عمران 138.

[393] الطّور42.

[394] الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور. تفسير التّحرير والتّنوير. ط: الدّار التّونسيّة للنّشر. تونس. س: 1404 هـ - 1984 م. (210/7).

[395] صحيح البخاري. تحقيق محبّ الدّين الخطيب. ط: 1. المكتبة السّلفيّة. القاهرة. س: 1400 هـ - 1980 م. رقم 1294. و صحيح مسلم. تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي ط: 1. دار إحياء الكتب العربيّة. دمشق. س: 1374هـ - 1952 م. رقم 103. وغيرهما.

[396] الحافظ محمّد بن عمرو العقيلي المكّي (ت: 365 هجري). " الضّعفاء الكبير ". ط: 1. دار الكتب العلميّة. بيروت. س: 1404 هـ - 1984 م. (247/3). وقال:" [فيه] علي بن عاصم قال يحيى ليس بشيء ولم يتابعه عليه ثقة ". و الحافظ أبو أحمد بن عديّ الجرجاني المشهور بابن عدي (ت: 365 هجري) . " الكامل في ضعفاء الرّجال". ط: 1. دار الكتب العلميّة. بيروت. س: 1418 هـ - 1997 م. (249/7). وقال:" المتن بهذا الإسناد غريب ". و البيهقي (ت: 458 هجري) " شعب الإيمان ". ط: 1. دار الفكر. بيروت. س: 1424هـ - 2003م. (3064/7). و عبد الرحمن

به عاصم عن محمّد بن سوقة. قال التّرمذي وقد نقم على علي بن عاصم وتكلّم فيه لجل هذا الحديث وفي سنن ابن ماجة والتّرمذي عن محمّد بن عمرو بن حزم مرفوعاً: " مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يُعَزِّي أَخَاهُ بِمُصِيبَةٍ إِلَّا كَسَاهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ حُلَلِ الْكَرَامَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ "[397]، وفي هذا التّشريع حكمة أخرى عائدة إلى الخلق وهي الارتياض على تلقّي المكاره برباطة جأش وجلادة، حتّى لا تذهب حلول المصائب بلبّ المسلم ولا تملك سائر قلبه، فلا يهتدي للخلاص منها سبيلاً ، فذلك من سموّ الأخلاق. ولما كان الغالب في الجاهليّة ظهور الحزن في النّساء، خصّ النّساء بالنّهي عن ذلك في أحاديث كثيرة لا رخصة في شيء منها لشيء من مظاهر الحزن المتعلّقة بالذّات من فعل وقول سوى البكاء بلا صوت. وفيها رخصة قليلة لما يتعلّق باللّباس في حديث النّهي عن أضعف هذه الأحوال، وهو لبس السّواد، وترك الزّينة، وهو ما روي في الموطّأ وغيره " لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ تُحِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ إِلَّا عَلَى زَوْجٍ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا "[398]. أي إذا كانت عدّتها بالأشهر، وأمّا الحامل فتحدّ مدّة الحمل، لأنّ عدّتها وضع حملها، وذلك لسدّ ذريعة التّزويج في العدّة حفظاً لحقّ الميّت في إثبات نسبه، ورخّص النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في البكاء بلا موت مدّة ثلاثة أيّام، في كتاب أبي داود عن عبد الله بن جعفر أنّ رسول الله أمهل آل جعفر بن أبي طالب ثلاثاً أن يأتيهم ثمّ أتاهم، فقال : " لاَ تَبْكُوا عَلَى أَخِي بَعْدَ اليَوْمِ " [399] وروي أنّ الخنساء جاءت المدينة حاجة ، فدخلت على عائشة رضي الله عنها وعلى الخنساء صدار من شعر أسود، وهي حليقة الرّأس، فقالت لها عائشة: أخُنّاسُ. قالت: لبّيك يا أمّاه. قالت: أتلبسين الصّدار وقد نُهي عنه في الإسلام؟ فقالت: "لم أعلم بنهيه "[400]. وبهذا يُعلم أنّ جميع ما يفعله بعض النّاس من تجديد ذكر الأحزان على الأموات

بن علي ابن الجوزي (ت: 597 هجري) في" كتاب الموضوعات من الأحاديث المرفوعات ". ط: 1. أضواء السّلف. القاهرة. س: 1418 هـ - 1998 م. (526/3). و قال:" حديث لا يصحّ ". وغيرهم.

[397] الألباني. صحيح سنن ابن ماجه. ط: 1. مكتب التّربية العربي لدول الخليج. س: 1407هـ - 1987 م. الرّياض. رقم 1311 وقال: حديث حسن. و عمر بن علي ابن الملقن (ت: 804 هجري) في " تحفة المحتاج إلى أدلّة المنهاج ". ط: 1. دار حراء . مكّة المكرّمة. س: 1406هـ - 1986 م. (615/1). وقال:" إسناده كلّ رجاله ثقات ". و الشّوكاني (ت: 1250 هجري). في " نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار ". ط: 2. س: 1403 هـ - 1983 م. (371/1). وقال:" كلّ رجاله ثقات إلاّ قيسا أبا عمارة ففيه لين ". وغيرهم.

[398] صحيح البخاري. تحقيق: محبّ الدّين الخطيب. ط:1. المكتبة السّلفيّة. القاهرة. س: 1400 هـ - 1980 م. رقم: 5334. وصحيح ابن حبّان بترتيب ابن بلبان. ط: 2. مؤسّسة الرّسالة. بيروت. س: 1414هـ - 1494 م. رقم 4304. وغيرهما.

[399] الألباني. أحكام الجنائز وبدعها. ط:1. مكتبة المعارف. الرّياض. س: 1412هـ - 1992م. رقم 32. سنن أبي داود. ط: . دار الكتب العلميّة. بيروت. س: 1389هـ - 1980 م. حديث رقم 4192. و الشّوكاني في " نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار ".ط: 2. دار الفكر. س: 1403هـ - 1983 م. (155/1). والألباني. صحيح سنن النّسائي. ط: 1. مكتب التّربية العربي لدول الخليج. الرّياض. س: 1409هـ - 1989 م. رقم 5242. سنن أبي داود. ط: 1. مكتب التّربية العربي لدول الخليج. الرّياض. س: 1409هـ - 1989 م. رقم 4192. وغيرهم.

[400] أبو العباس محمّد بن يزيد بن عبد الأكبر الثّمالى الأزدي، المعروف بالمبرد (المُتوفّى: 285هـ 899 م) كتاب " التّعازي والمراثي والمواعظ والوصايا ". تقديم وتحقيق: إبراهيم محمد حسن الجمل. مراجعة: محمود سالم. النّاشر: نهضة مصر للطّباعة والنّشر والتّوزيع. (1/ 79 - 80).

والتّجمّع للبكاء في الأعياد ونحوها من المحرّمات شرعاً، وكذلك الحزن الذي يزعمه العامّة في يوم عاشوراء وما يليه حداداً على الحسين بن علي "[401].

ـ **نقد ابن عاشور للمفسّرين:** ففي التّفسير تصدّى للمفسّرين ونقد أساليبهم، واتّهمهم" بضعف كفاية البعض لهذا العمل العلمي الجليل " وحمّل العلماء مسؤوليّة السّكوت على ذلك، وقدّم التّحرير والتّنوير بديلا، وقال أيضا:" والتّفاسير وإن كانت كثيرة فإنّك لا تجد الكثير منها إلاّ عالة على كلام سابق بحيث لا حظّ لمؤلّفه إلاّ الجمع على تفاوت بين اختصار وتطويل " [402].

ـ **نقده للمؤلّفين في أسباب النّزول:** وانتقد أيضا الذين ألّفوا في أسباب النّزول:" لا أعذر أساطين المفسّرين الذين تلقّفوا الرّوايات الضّعيفة فأثبتوها في كتبهم ولم ينتبهوا على مراتبها قوّة وضعفا حتّى أوهموا كثيرا من النّاس أنّ القرآن لا تتنزّل آياته إلاّ لأجل حوادث تدعو إليها، وبئس هذا الوهم"[403].

ـ **نقده في خلط المفسّرين بين دلائل الإعجاز وبلاغة القرآن:** كما لم يتردّد ابن عاشور في نقد المفسّرين القدامى الذين ـ حسب رأيه ـ خلّطوا بين دلائل الإعجاز في الآيات والسّور وبلاغة القرآن فقال:" يخلطون هذين الغرضين خلطا وربما أهملوا معظم الفنّ الثّاني " [404]. وعليه فلا بدّ للمفسّر من الدّراية بخصائص بلاغة القرآن حتّى لا يكون " بمنزلة المفسّر " [405].

ـ **نقده لأصول الفقه:** أدرك الشّيخ بسعة اطّلاعه أنّ الفكر الإسلامي يعاني من أمر خطير ينبغي تشخيصه وتوفير دوائه، فوجده في تفرّق أهل العلم وشدّة اختلافهم، فقدّر أنّ علاجه يكمن في إصلاح الأصول عبر إنعاش المقاصد والتّأسيس عليها.

ولذلك واجه أصول الفقه ونعته بـ " الضّيّق الظّنّيّ " واقترح البديل " الرّحب القطعي "، وهو المقاصد. ولذلك كان التّوجّه المقاصدي الذي انتهجه ابن عاشور" ينطوي على وعي نقدي للأسس التي انبنى

---

[401] انظر: جمع وتحقيق: محمّد بن ابراهيم بوزغيبة. فتاوى الشّيخ الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور. ط: 1. مركز جمعة الماجد للثّقافة والتّراث. دبيّ. سنة 1425 هـ - 2004 م. ص: 156 - 161.

[402] الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور. تفسير التّحرير والتّنوير. ط: الدّار التّونسيّة للنّشر. تونس. س:1404 هـ - 1984 م. (7/1).

[403] نفس المصدر (46/1).

[404] نفس المصدر (101/1).

[405] نفس المصدر (102/1).

عليها العقل الفقهي القديم " [406].

ـ **نقده للفقهاء وهو يتحدّث عن أسباب تأخّر الفقه** فيعزيها إلى أسباب ثمانية، **السّبب الأوّل**: التعصّب للمذاهب والعكوف على كلام إمام المذهب. **السّبب الثّاني**: إبطال النّظر في التّرجيح والتّعليل ورمي من يسلك ذلك بأنّه يريد إحداث مذهب جديد. **السّبب الثّالث**: عدم العناية بجميع النّظائر والقواعد للفروع المتّحدة بذكر الحكم الجامع بينها. **السّبب الرّابع**: إهمال النّظر إلى مقاصد الشّريعة من أحكامها. **السّبب الخامس**: ضعف الفقهاء في علوم يؤثّر الضّعف فيها قصورا عند الاستنباط. **السّبب السّادس**: الإعراض عن التّأليف المفيدة المهذّبة الواضحة العبارات. **السّبب السّابع**: الاختلاف في أصول الاستنباط، فتجد لكلّ مذهب أصولا خاصّة وهذا الذي تعسر عليه المراجعة. **السّبب الثّامن** صرفهم جلّ هممهم إلى العبادات وتقصيرهم في فقه المعاملات. كما فصّل ـ رحمه الله تعالى ـ السّبب الخامس، وعدّد مجالات ضعف الفقهاء فجعلها أربعة: أوّلها ضعفهم في الحديث، ثانيها الضّعف في اللّغة، ثالثها الضّعف في أصول الفقه، وقال: وهي المصيبة التي عمّت متأخّري المغاربة والمصريّين، وآخرها الضّعف في علوم الاجتماع وحاجات الأمّة..."[407].

ـ **نقده لمقلّدة المذهب**: انتقد الشّيخ مقلّدة المذهب الذين يصير الدّين عندهم هو المذهب الذي يعقد عليه الولاء والبراء، قال رحمه الله تعالى:" يأتي الواحد منهم (العلماء القدامى) بمقالة تخالف العلم أو أصول الدّين نشأت عن قصور في النّظر أو سوء فهم... فيعتبرها أتباعهم دينا " [408].

إنّ الشّيخ ابن عاشور كان مالكي المذهب، يستمدّ فتاويه من أئمّة المالكيّة كمالك بن أنس وابن القاسم وأبي بكر بن العربي، وغيرهم من أصحاب المذهب، لكنّه لم يكن دائماً

---

[406] انظر دراسة جمال الدّين دراويل. في ورقة بعنوان: " الاتّجاه المقاصدي لدى الأستاذ الإمام ابن عاشور: دلالاته واستحقاقاته ". قدّمها في المؤتمر العلمي الدّولي تحت إشراف المعهد العالمي للفكر الإسلامي بالتّعاون مع شعبة الدّراسات الإسلاميّة بكلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بجامعة محمّد الخامس في الرّباط . المملكة المغربيّة. 6- 7 جمادى الأولى 1430هـ - 2- 3 مايو 2009م.

[407] محمّد الطّاهر ابن عاشور أليس الصّبح بقريب؟ نشر مشترك دار سحنون للنّشر والتّوزيع. دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة. ط: 3.س: 1431 هـ - 2010 م. بتصرّف ص(175- 179).

[408] نقلا عن جمال الدّين دراويل في محاضرة " المغايرة وحقّ الاختلاف في تفكير الشّيخ ابن عاشور". انظر كتاب التّنوير عند علماء المسلمين في النّصف الأوّل من القرن العشرين. ط: 1. شركة المطبعة الفنّيّة. تونس. س: 1431 هـ - 2010 م. ص 140.

حبيسه، فعرف باستقلاله عنه، فلم يتعصّب لمذهبه، إذ كان أحياناً يرجح مذهباً آخر عندما تثبت لديه الأدلّة القويّة الرّاجحة لدى غير المالكيّة، ومن ذلك ترجيحه مذهب الإمام أبي حنيفة في طهارة جلد الميتة بالدّبغ ما عدا الخنزير، لأنّه محرّم العين، قال: وقول أبي حنيفة أرجح للحديث الصّحيح أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم رأى شاة ميتة كانت لميمونة أمّ المؤمنين فقال " هَلاَّ أَخَذْتُمْ إِهَابَهَا فَدَبَغْتُمُوهُ فَانْتَفَعْتُمْ بِهِ "[409] ولما جاء في الحديث الآخر من قوله: " أيُّما إهَابٍ دُبغَ فقد طَهُر " [410] ثمّ ذكره [411].

هذا ولقد ردّ الشّيخ على مخالفي مذهبه المالكي ولكنّ ردوده كانت علميّة خالية من التّجريح.

ـ **نقده للتّأويل الصّوفيّ المنحرف**: قال رحمه الله:"... ومنهم من جاء بأقوال غثّة وأفهام رثّة كفي تفسير قوله تعالى:(رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ) [412] بأنّه العشق الذي ادّعاه الصّوفيّة "[413]. كما جعل ـ رحمه الله تعالى ـ التّصوّف ـ الذي انتشر وتوسّع في قومه . من أبرز أسباب تخلّف العلوم، فقال: " انصباغ سائر المسلمين بالطّرائق الصّوفيّة بحيث قلّ أن تجد مُسلما غير منتسب لطريقة منها، وذلك بثّ في نفوسهم الرّضا بالموجود وألهى النّاس بها وأصبحت غاية العلم، لأنّهم احتقروا سائر العلوم إلاّ علوم المعرفة بالله (الذي هو التّصوّف عندهم) وعوّد النفوس على قبول ما لا يفهم والاقتناع به، لأنّ في كتب التّصوّف رموزا ومغلقات ودعاوى لا دليل عليها، تعلّم النّاس سماع ما لا يفهم والاقتناع بكلّ ما يُسمع، وأنّ من علوّ العلم أن لا يفهمه الإنسان، وأنّ ذلك من قصور في العقول لا في العلوم. وصارت هاته أخلاقا ثابتة في المسلمين، لا تنمحي منهم إلاّ بعد طول سنين، ودوام نصح المرشدين "[414].

ـ **نقده لمحترفة الكلام دون العمل**: طرح الشّيخ رؤية متكاملة في إصلاح المجتمع، عبر

---

[409] صحيح مسلم بشرح النّووي. كتاب الحيض. رقم (363). ط: 1. دار الكتب العلميّة. بيروت. 1415 هـ ـ 1995 م.(179/16) . والألباني. صحيح سنن النّسائي. ط: 1. مكتب التّربية العربي لدول الخليج. الرّياض. س: 1409 هـ ـ 1989 م. رقم 4249. و الألباني. صحيح الجامع الصغير وزيادته. ط: 3. المكتب الإسلامي. بيروت. س: 1408 هـ - 1988 م. رقم 7041.

[410] صحيح ابن حبّان بترتيب ابن بلبان. ط: 2. مؤسّسة الرّسالة. بيروت. سنة: 1414هـ ـ 1494 م. رقم:(1287 و 1288). وسنن الدّارقطني. تحقيق: علي محمّد معوّض و عادل أحمد عبد الموجود. ط: 1. دار المعرفة. بيروت. س: 1422 هـ ـ 2001 م.(127/1). والمجموع شرح المهذب النووي. ط: 1. دار الفكر. بيروت. س:1418 هـ - 1997م (1 /214). وغيرها.

[411] انظر تفسير التّحرير والتّنوير. تفسير قوله تعالى:" إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ.." من سورة البقرة الآية 172.

[412] البقرة جزء من آية 285 .

[413] محمّد الطّاهر ابن عاشور " أليس الصّبح بقريب؟ " ط: 3. س: 1431 هـ - 2010 م. نشر مشترك دار سحنون للنّشر والتّوزيع. دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة. تونس. بتصرّف ص 189.

[414] نفسه. ص 161.

إصلاح تفكير الفرد، وأنّ هذا التّفكير لا يصلح إلاّ بإصلاح عقيدته، ثمّ بيّن رحمه الله تعالى أنّ من أهمّ أسباب تخلّف المسلمين اشتغالهم بـ " احتراف الكلام " وزهدهم عن العمل، فقال:" فمدار أمر النّجاة على التّقوى، ولذلك تكرّر التّرغيب في التّقوى في القرآن. قال أبو بكر ابن العربي: لم يتكرّر لفظ في القرآن مثلما تكرّر لفظ التّقوى، وقد بيّن الغزالي في " الإحياء " الفرق بين مقام الرّجاء ومقام الطّمع، وقد كانت ملاحظة هذا المعنى من أكبر أسباب فلاح المسلمين الأوّلين حتّى إذا احترفوا الكلام، وتعلّقوا بالأوهام، وتطلّبوا المسبّبات من غير أسبابها، وأتوا البيوت من ظهورها لا من أبوابها، صاروا إلى ما ترى، وحقّ عليهم معنى البيت الذي به المثل:

ترجو النّجاة ولم تسلك مسالكها إنّ السّفينة لا تجري على اليبس [415]

ـ نقده للمشايخ في تعلّقهم بالمظاهر والتصنّع في مشيهم وكلامهم ولباسهم: قال ـ رحمه الله تعالى ـ :" وشاع من تقاليد الفئة العلميّة قلّة المشي الهوينا وقلّة الحركة وإلاّ عُدّ ذلك من خطل الرّأي وسوء السّيرة الأدبيّة حتّى إذا ترقّوا في الخطط العلميّة عكفوا في بيوتهم، لا أصل بكم إلى أهل الخطط الشّرعيّة والمرشّحين أنفسهم لها " [416]. ويشتدّ عليهم ساخرا بحدّة:" ومن العار الكبير أن نرى كثيرا ممّن ينتصب لتعليم النّشأة تعجبك أجسامهم، وتبهجك بزّتهم وتعظم صورهم، ولكن ما أن تحاكّهم وتعاشرهم أو تجادلهم، فترى تلك الهياكل العظيمة فارغة من الفضيلة ومكارم الأخلاق والمروءة"[417].

ـ نقده لضبط مدلول مفهوم العلم: قال رحمه الله تعالى:" أنّ العلم ليس رموزا تحلّ ولا كلمات تحفظ ولا انقباضا وتكلّفا، ولكنّه نور العقل و اعتداله... فالعلوم تخدم غرضين ارتقاء العقل لإدراك الحقائق واقتدار صاحبه على إفادة غيره " [418].

ـ دعوة الشّيخ إلى تربية الأمّة على النّقد: ولأنّ النّقد والنّظر لدى الشّيخ هو منهج علميّ سليم لتجاوز التّخلّف، دعا أن تتربّي عليه الأمّة منذ الطّفولة، فقال:"... أن يشبّ

---

[415] محمّد الطّاهر ابن عاشور. أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام. نشر مشترك دار سحنون للنّشر والتّوزيع. دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة. ط . 3 . سنة 1431 هـ - 2010 م. تونس. ص (54 – 55).

[416] محمّد الطّاهر ابن عاشور " أليس الصّبح بقريب؟ " نشر مشترك دار سحنون للنّشر والتّوزيع. دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة. تونس. ط 3. 1431 هـ - 2010 م. بتصرّف ص 130.

[417] نفسه ص 124.

[418] محمّد الطّاهر ابن عاشور " أليس الصّبح بقريب ". ط 1. الدّار التّونسيّة للنّشر. س: 1967 . تونس. ص : 239.

أفراده على احترام الآراء وقبول الرّأي المخالف " [419]. وخاطب النّاشئة يحرّضهم على انتهاج النّقد كسبيل للمعرفة قائلا:" هذا أيّها النّاشئون على النّقد، والباحثون عن الحكمة، نبراس مبين، أقمناه بين أيديكم، ليضيء لكم مستقبلا نيّرا، وعسى إن اهتديتم بضيائه (...) أن تسلكوا به طريق العقلاء (...) والله يضيء آراءكم بالحكمة " [420].

واعتبارا لكلّ ما سبق بيانه، ننتهي إلى خلاصتين اثنتين:

الخلاصة الأولى: أنّ التّوجّه الإصلاحي للشّيخ ابن عاشور . رحمه الله . قد انصبّ نحو صدّ الهجوم الكاسح للتّحدّيات الأوروبيّة في الفكر والعلم، فلم يقدّم إجابات عاجلة مسكّنة، بل أبرز الحاجة إلى ضرورة إعادة النّظر في أسس الثّقافة الفقهيّة السّائدة ليقدّم حلولا جذريّة صحيحة. فجعل من النّقد والمراجعات منهجا علميّا وإصلاحيّا تجديديّا، ولقد مارس هو بنفسه هذا المنهج، فراجع مناهج سائر علماء المسلمين وانتقدهم، مبيّنا أنّ من أسباب تخلّف المسلمين تأخّرهم في تلك العلوم سواء كانت في علوم الشّريعة (من تفسير وفقه وأصول وكلام) أم في علوم اللّغة العربيّة (من نحو وصرف وإنشاء وبلاغة) أم علوم أخرى (من منطق وتاريخ وفلسفة ورياضيّات). كما قرّر رحمه الله أنّ من أسباب تأخّر علومهم (سلب حرّيّة النّقد الصّحيح) [421]. (وسلب الحرّيّة عن العلوم بسبب قصر العلم على نقل كلام السّلف وانحصار التّآليف في نقل ما مضى من غير بحث، وهذا من صنيع شيع متعصّبين) [422].

الخلاصة الثّانية: لا ينبغي أن يُفهم أنّ الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور بمنهج نقده للقديم الفقهي والتّفسيري والأصولي ومناهج التّعليم، أنّه يريد أن ينسف ثوابت الأصول التي وضعها سلف الأمّة، بل كان كلّ همّه أن ينتشل الأمّة من كبواتها عبر معالجة الانحرافات التي طالت تلك العلوم ليطوّرها دون الخروج عن أدب الالتزام بمناهج القدماء من سلف الأمّة،

---

419) من مقال له - وهو ابن خمس وعشرين عاما - تحت عنوان " احترام الأفكار " منذ 1904. مجلّة " السّعادة العظمى ". العدد 18 المجلّد الأوّل 1322هـ - 1904 م. ص 273.

420) نفسه.

421) محمّد الطّاهر ابن عاشور " أليس الصّبح بقريب ". ط 1. الدّار التّونسيّة للنّشر. تونس. س:1386 هـ 1967 م . ص : .125

422) نفسه. ص : 125.

فقال رحمه الله تعالى:" وإنّ أطوار العلوم في الأمّة تشبه أطوارها في الأفراد ذلك أنّ العلم في الأمّة كما هو في الفرد له أربعة أطوار: طور الحفظ والتّقليد والقبول للمسائل كما هي من غير انتساب بعضها من بعض ولا تفكّر في غايتها بل لقصد العمل. وطور انتساب بعضها من بعض وتنويعها والانتفاع ببعضها في بعض. وطور البحث في عللها وأسرارها وغاياتها. وأخيرا الحكم عليها باعتبار تلك العلل بالتّصحيح والنّقد وهو طور التّضلّع والتّحرير "[423].

[423] نفسه. ص180.

قوادح الفكر المقاصدي في ذهن ابن عاشور

إنّ من أهمّ المصادر التي شكّلت فكر الاستنباط المقاصدي في ذهن الشّيخ ابن عاشور، مصادر ستّة:

أوّلها: تشبّعه بمذهب الإمام مالك بن أنس: الذي راعى المصلحة واعتبر النّظر في المقاصد الشّرعيّة في أصوله، واشتهر عنه ذلك، حتّى عُدَّ مذهبُه من أكثر المذاهب مراعاة للمصالح والمقاصد، نظرا لتميّز المذهب بقاعدة سدّ الذّرائع، وجعله أصلا من أصول الاستنباط الفقهي المهمّة عند المالكيّة. وهذا من أخصّ ما امتاز به فقه المالكيّة مذهبا وشيوخا (مالك والشّاطبي والقاضي عياض وابن رشد وآخرهم شيخه سالم بوحاجب)، وهذا عندهم أظهر منه عند غيرهم، بل هو من عمدة فقه الرّأي عندهم، حيث اتّخذوه أصلا مستقلاّ للاستنباط. والمتتبّع لفقهاء المالكيّة وبالأخصّ القدماء منهم، ينتبه إلى أثر المصالح والمقاصد واضحا في تعليلاتهم في الفروع، وأنّهم يبنون عليها أحكامهم وفتاواهم ويجعلون تلك المقاصد أصولا بنفسها ويقيسون عليها. ثمّ إنّ مراعاة المصلحة في المذهب المالكي ليس هو مجرّد الأخذ بالمصلحة المرسلة حيث لا نصّ ولا قياس فحسب، بل هو استحضار المصلحة عند فهم النّصّ وعند إجراء القياس، فضلا عن حالات إعمال المصلحة المرسلة " [424]. ولهذا قرّر الإمام القاضي عياض حقيقة أنّ أحد الاعتبارات المرجّحة لمذهب مالك هو النّظر المصلحي القائم على مقاصد الشّريعة وقواعدها، فيقول:"... الاعتبار الثّالث يحتاج إلى تأمّل شديد، وقلب سليم من التّعصّب سديد، وهو الالتفات إلى قواعد الشّريعة ومجامعها، وفهم الحكمة المقصودة بها من شارعها "[425]. وقال صاحب بداية المجتهد:" كما أنّ الاستحسان عند مالك ليس إلاّ الالتفات إلى المصلحة والعدل "[426]. ولرعاية المقاصد

---

[424] نظريّة المقاصد عند الإمام الشّاطبي.أحمد الرّيسوني. ط: 4. سنة:1415 هـ - 1995م. الدّار العالميّة للكتاب الإسلامي. الرّياض. ص: 64.

[425] القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك. ط: وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة. المغرب. س: 1401 هـ - 1981 م (1/ 92).

[426] بداية المجتهد ونهاية المقتصد. أبو الوليد بن رشد. الطّبعة العاشرة: 1408هـ - 1988م. دار الكتب العلميّة. بيروت. (2 /185).

الشّـرعيّة والمصـالح المشـروعة، حكّـم مالـك قاعـدة سـدّ الـذّرائع في أكثـر أبـواب الفقـه، وبهـذا كـان العمـل بالمصـلحة المرسـلة أصـلا مسـتقلاّ مـن أصـول التّشـريع عنـده، ولـيس سـدّ الـذّرائع إلاّ تطبيقـا عمليّـا مـن تطبيقـات العمـل بالمصـلحة، ولـذلك عـدّوه ضـمن أصـولهم وأعملـوه في استنباطاتهم وتخريجاتهم في جميع أبواب الفقه، وفي كثير من المسائل العلميّة، وبالغوا في ذلك حتّى عدّ بعض الفقهاء سدّ الذّرائع من خصوصيّات مذهب إمام دار الهجرة " [427].

ثانيهـا: صـحّة أصـول مـذهب أهـل المدينـة: لقـد سـاهمت صـحّة أصـول مـذهب أهـل المدينـة في الـوعي بالمقاصـد لـدى الشّـخ ابـن عاشـور. و لقـد سُـئِل شـيخ الإسـلام ابـن تيميّـة رحمـه الله تعـالى عـن صـحّة أصـول مـذهب أهـل المدينـة ومنزلـة مالـك المنسـوب إليـه مـذهبهم في الإمامـة والدّيانـة، وضـبطه علـوم الشّـريعة عنـد أئمّـة علمـاء الأمصـار وأهـل الثّقـة والخـبرة مـن سـائر الأعصـار؟ فأجـاب رحمـه الله تعـالى: " مـذهب أهـل المدينـة النّبويّـة – دار السّـنّة ودار الهجـرة ودار النّصـرة إذ فيهـا سـنّ الله لرسـوله محمّـد صـلّى الله عليـه وسـلّم سـنن الإسـلام وشـرائعه وإليهـا هـاجر المهـاجرون إلى الله ورسـوله وبهـا كـان الأنصـار الـذين تبـوّءوا الـدّار والإيمـان مـن قـبلهم – مـذهبهم في زمـن الصّـحابة والتّـابعين وتـابعيهم أصـحّ مـذاهب أهـل المـدائن الإسـلاميّة شـرقا وغربـا، في الأصـول والفـروع. وهـذه الأعصـار الثّلاثـة هـي أعصـار القـرون الثّلاثـة المفضّـلة، الـتي قـال فيهـا النّـبيّ صـلّى الله عليـه وسـلّم في الحـديث الصّـحيح مـن وجـوه: (خـير القـرون القـرن الـذي بعثـت فـيهم، ثمّ الـذين يلـونهم، ثمّ الـذين يلـونهم) وفى القـرون الـتي أثـنى عليهـا رسـول الله صـلّى الله عليـه وسـلّم، كـان مـذهب أهـل المدينـة أصـحّ مـذاهب أهـل المـدائن، فـإنّهم كـانوا يتأسّـون بـأثر رسـول الله صـلّى الله عليـه وسـلّم أكثـر مـن سـائر الأمصـار، وكـان غـيرهم مـن أهـل الأمصـار دونهـم في العلـم بالسّـنّة النّبويّـة واتّباعهـا، حـتّى إنّهـم لا يفتقـرون إلى نـوع مـن سياسـة الملـوك، وأنّ افتقـار العلمـاء ومقاصـد العبـاد، أكثـر مـن افتقـار أهـل المدينـة حيـث كـانوا أغـنى مـن غـيرهم عـن ذلـك كلّـه، بمـا كـان عنـدهم مـن الآثـار النّبويّـة الـتي يفتقـر إلى العلـم بهـا واتباعهـا كـلّ أحـد، ولهـذا لم يـذهب أحـد مـن علمـاء المسـلمين إلى أنّ إجمـاع أهـل مدينـة مـن المـدائن حجّـة يجـب اتّباعهـا غـير المدينـة، لا في تلـك الأعصـار ولا فيمـا بعـدها، لا إجمـاع أهـل مكّـة

[427] محمّد هشام البرهاني: سدّ الذّرائع في الشّريعة الإسلاميّة. مطبعة الرّيحاني. ط: 1. 1406هـ - 1986 م. بيروت. ص 615.

ولا الشّام ولا العراق ولا غير ذلك من أمصار المسلمين ". ثمّ ذكر أنّ إجماع أهل المدينة . دون غيرهم . حجّة يجب اتباعها على كلّ مسلم. وأنّ الأعصار الثّلاثة المفضّلة لم يكن فيها بالمدينة النّبويّة بدعة ظاهرة البتّة، ولا خرج منها بدعة في أصول الدّين البتّة، كما خرج من سائر الأمصار، فإنّ الأمصار الكبار التي سكنها أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وخرج منها العلم والإيمان خمسة: الحرمان، والعراقان، والشّام، منها خرج القرآن والحديث والفقه والعبادة، وما يتبع ذلك من أمور الإسلام، وخرج من هذه الأمصار بدع أصوليّة غير المدينة النّبويّة. وبقيت المدينة مُحافظة على صحّة تلك الأصول إلى أوائل المائة السّادسة حين ظهر فيها الرّفض، فإنّه قدم إليها من رافضة المشرق من أهل قاشان، وغيرهم من أفسد مذهب كثير منهم لا سيما المنتسبون منهم إلى العترة النّبويّة، وقدم عليهم بكتب أهل البدع المخالفة للكتاب والسّنّة، وبذل لهم أموالاً كثيرة، فكثرت البدعة فيها من حينئذ. فالكوفة خرج منها التّشيّع والإرجاء، وانتشر بعد ذلك في غيرها. والبصرة خرج منها القدر، والاعتزال، والنّسك الفاسد، وانتشر بعد ذلك في غيرها. والشّام كان بها النّصب والقدر. وأمّا التّجهّم فإنّما ظهر من ناحية خراسان، وهو شر البدع. وكان ظهور البدع بحسب البعد عن الدّار النّبويّة ... ". [428] ثمّ فصّل الإمام في ذلك الأمر تفصيلا جيّدا ومُتميّزا ليُقرّر أنّ أصول مالك وأهل المدينة وقواعدهما الشّريعة هي أصحّ الأصول والقواعد الشّرعيّة، سواء كانت في صحّة النّقول أو في القواعد المتعلّقة بالنّجاسات من مياه وطهارة وأشربة وملابس وموازين ومكاييل وكسب حلال وبيوع و أحكام الأراضي من مساقاة ومزارعة ومضاربة وغيرها. و أيضا في المناكح والعقوبات والأحكام والعقود والدّيات والسّياسات، هذا فضلا عن العبادات...

ثالثها: " مقاصديّة" المنهج العمرانيّ الخلدونيّ: [429] نظرا لأنّ العلوم سبيل إلى الحقّ، ولأنّ الحقّ واحد لا يتعدّد، فلا نعجب من وجود تفاعل إيجابي حاصل بين العلوم في الحضارة الإسلاميّة. ولذلك لا تجد علوم المقاصد في علوم أصول الفقه فحسب، بل تجده في علم العمران البشري أيضا، ذلك أنّ علوم المقاصد علوم تنبع من منطق العقل العمليّ

---

[428] تقي الدّين ابن تيميّة. مجموع فتاوى ابن تيميّة. ط: مجمع الملك فهد. سنة: 1416هـ 1995م. من ص(392 إلى ص645).
[429] نسبة إلى عبد الرّحمن بن محمّد بن خلدون الحضرمي واضع علم العمران البشري. (1332 هـ - 1382 م).

ولـيس النّظـري الخـالص، إذ أنّ موضـوعها الممارسـة الإنسـانيّة الاجتماعيّـة أو الفرديّـة " طبـائع العمران البشريّ والضّروريّات والحاجيّات والكماليّات الفرديّة والجماعيّة " [430].

إنّ البعـد المقاصـدي عنـد ابـن خلـدون أخـذ صـبغة مبـادئ وقـوانين تسـعف المـؤرّخ كمرجعيّـة اسـتنباط في فهـم التّحـوّلات الاجتماعيّـة والإنسـانيّة للعمـران البشـري. ولـذلك وجـدنا في " مقدّمـة " مؤلّفـه ربطـا وثيقـا بـين مـنهج العمـران البشـريّ ومـنهج المقاصـد الشّـرعيّة، فقـال رحمـه الله تعـالى:" وهـذا الفـنّ الـذي لاح لنـا النّظـر فيـه ـ يقصـد المقاصـد ـ نجـد منـه مسـائل تجـري بـالعرض لأهـل العلـوم في بـراهين علـومهم، وهـي مـن جـنس مسـائله بالموضـوع والطّلـب: مثـل مـا يـذكره الحكمـاء والعلمـاء في إثبـات النّبـوّة مـن أنّ البشـر متعـاونون في وجـودهم فيحتـاجون فيـه إلى الحـاكم والـوازع. ومثـل مـا يـذكر في أصـول الفقـه في بـاب إثبـات اللّغـة، أنّ النّـاس محتـاجون إلى العبـارة عـن المقاصـد بطبيعـة التّعـاون والاجتمـاع. ومثـل مـا يـذكره الفقهـاء في تعليـل الأحكـام الشّـرعيّة بالمقاصـد في أنّ الزّنـا مخلّـط للأنسـاب مفسـد للنّـوع، وأنّ القتـل أيضـا مفسـد للنّـوع، وأنّ الظّلـم مـؤذن بخـراب العمـران المفضـي لفسـاد النّـوع... وغـير ذلـك مـن سـائر المقاصـد الشّـرعيّة في الأحكـام، فإنّهـا كلّهـا مبنيّـة علـى المحافظـة علـى العمـران " [431].

فـالملاحظ أنّ هـذا الكـلام مطـابق تمامـا لقـول ابـن عاشـور مـن أنّ " مقصـد الشّـريعة الإصـلاح وإزالـة الفسـاد".[432] وفي نفـس الصّـدد يضـبط ابـن خلـدون مراتـب المقاصـد الشّـرعيّة في: الضّـرورية والحاجيّـة والكماليّـة، ويؤصّـل بهـا ترتيـب فصـول كتابـه:" وقـد قـدّمت العمـران البـدويّ لأنّـه سـابق علـى جميعهـا كمـا يتبـيّن لـك بعـد، وكـذا تقـديم الملـك علـى البلـدان والأمصـار، وأمّـا تقـديم المعـاش فـلأنّ المعـاش ضـروريّ طبيعـيّ وتعلّـم العلـم كمـاليّ أو حـاجيّ، والطّبيعـة أقـدم مـن الكماليّ " [433].

رابعهـا: كثـرة اخـتلاف الفقهـاء وتعصّـب أتبـاعهم: كـان الشّـيخ ابـن عاشـور يـرى أنّ ممّـا سـاهم في تـأخّر الأمّـة وتخلّفهـا مـا أصـاب الفقـه الإسـلامي مـن تعقيـد و كثـرة اخـتلاف الفقهـاء، فعمـل رحمـه الله تعـالى علـى بعـث هيكـل جديـد يسـهم في حـلّ هـذه

---

[430] مصدق الجليدي. روّاد الإصلاح التّربويّ في تونس. دار سحر للنّشر. تونس. شوّال 1430 هـ ـ أكتوبر2009. ص.119

[431] السّاعاتي حسن: علم الاجتماع الخلدوني. قواعد المنهج. دار النّهضة العربيّة. بيروت. 1392 هـ ـ 1972 م. ص38.

[432] ابن عاشور محمّد الطّاهر. مقاصد الشّريعة الإسلاميّة. ط: الشّركة التّونسيّة للتّوزيع. تونس. س: 1398 هـ ـ 1978 م. ص63.

[433] ابن خلدون: المقدمة. دار إحياء التراث العربي. بيروت. ط:4. س 1404هـ ـ 1984 م. ص 71.

المعضلات، فألّف كتابه " مقاصد الشّريعة الإسلاميّة "، قال في أوّل مقدّمته:" هذا كتاب قصدت منه إلى إملاء مباحث جليلة من مقاصد الشّريعة الإسلاميّة والتّمثيل والاحتجاج لإثباتها لتكون نبراساً للمتفّقهين في الدّين ومرجعاً بينهم عند اختلاف الأنظار وتبدّل الأعصار، وتوسلاً إلى إقلال الاختلاف بين فقهاء الأمصار، ودربة لأتباعهم على الإنصاف في ترجيح بعض الأقوال على بعض عند تطاير شرر الخلاف حتّى يستتبّ بذلك ما أردناه غير مرّة من نبذ التّعصّب والفيئة إلى الحقّ إذا كان القصد إغاثة المسلمين ببُلالة [434] تشريع مصالحهم الطّارئة متى نزلت الحوادث واشتبكت النّوازل، وبفصلٍ من القول إذا شجرت حجج المذاهب وتبادت في مناظرتها تلكم المقانب[435] "[436].

خامسها: ولع التّونسيّين بمبحث المقاصد: كانت الطّبعة الأولى التّونسيّة لكتاب " الموافقات " في مطلع القرن الثّالث عشر الهجري سنة 1302 هـ- 1881م بمثابة الولادة الثّانية للشّاطبي في تونس والمشرق والمغرب الإسلاميّين. كما كانت أيضا منطلق ولادة فكر شيخنا هي البداية والانطلاقة للفكر المقاصدي الحديث والمعاصر. لقد كان الاحتفاء بـ " الموافقات " واضحا وأخذ منحى أكثر حيويّة وأسرع تأثيرا في وعي تونسيّ لم يُخف ولعه بمبحث المقاصد. ولذلك كان تجاوب علماء الزّيتونة مع " الموافقات "كبيرا جدّا، فدَرَسُوه وَدَرَّسُوه وأخذوا منه الشّيء الكثير. ولذلك ظهرت في تونس كتابات عديدة في العشرينيّات و الثّلاثينيات من القرن الميلادي الماضي، ومن أشهر من كتبوا في المقاصد الشّيخ عبد العزيز الثّعالبي وعبد العزيز جعيّط وسالم بوحاجب وابن أبي الضّياف. فبدأ هؤلاء وغيرهم يتكلّمون عن مقاصد الشّريعة وحكمتها وأهدافها، ويدعون إلى إعادة النّظر في الفقه الإسلامي، المتأخّر منه خاصّة، لتصحيح كثير ممّا فيه، ولتجاوز كثير ممّا فيه، و استجابة لمتطلّبات العصر والإجابة على الإشكالات والتّحدّيات التي دخلت فيها الأمّة. ففي هذه الأجواء من الاهتمام والاحتفاء بكتاب الشّاطبي و التّأثّر به نشأ وترعرع ابن عاشور.

---

[434] البُلالة: بالضّمّ من النّدُوّة وهو الماء وكلّ ما يُبَّل به الحلق، والبلة بالكسر: الخير والرّزق وجريان اللّسان وفصاحته. انظر: " القاموس المحيط ". مجد الدّين أبي طاهر محمّد بن يعقوب بن محمّد بن إبراهيم بن عمر الشّيرازي الفيروز آبادي. ص 1250.

[435] المقانب: جمع مِقْنَب وهو اسم لجماعة كثيرة من الفرسان أو الذّئاب الضّارية، وهو هنا مستعار لجماعات العلماء كما يستعار الفارس الضاري للعالم الفائق. نفسه . ص .163

[436] ابن عاشور محمّد الطّاهر. مقاصد الشّريعة الإسلاميّة. ط: الشّركة التّونسيّة للتّوزيع. تونس. س: 1398 هـ - 1978 م. ص 5.

كما نشأ الشّيخ في أجواء اليقظة ومحاولات النّهضة والتّجديد، التي كانت تنتشر يومئذ في العالم الإسلامي. ففي نفس تلك الحقبة التّاريخيّة ظهر علاّمة الهند الكبير شاه ولي الله الدّهلوي الذي كان له اهتمام بليغ بالمقاصد وألّف كتابه "حجّة الله البالغة ". كما ألّف العديد من علماء الأزهر وغيرهم عدّة مؤلّفات في حكمة التّشريع وتعليل أحكامها ، منها: " أسرار الشّريعة الإسلاميّة " لإبراهيم أبو علي، و" المسلك البديع في حكمة التّشريع " لعبد الرّحمن خلف، و" حكمة التّشريع وفلسفته " لعلي الجرجاوي، و" الأسرار الإلهيّة والحكم التّشريعيّة " لعبد الرّحمن راضي.

فهذه الحركيّة التي سبقت ورافقت ظهور الشّيخ ابن عاشور لا شكّ أنّها أفادته ويسّرت له مناخا عامّا من الاهتمام بمقاصد الشّريعة والتّطلّع إلى فائدتها وثمرتها، في إنعاش العلوم الإسلاميّة وتجديدها وتقويتها.

فالذي يمكن أن نقرّره: لئن كان الشّاطبي يمثّل حصيلة من سبقوه في علم المقاصد طيلة القرون المتقدّمة، فإنّ ابن عاشور يمثّل حصيلة هذه التّفاعلات مع " الموافقات " ومع التّحدّيات والتّطلّعات ونزعات التّجديد والبحث عن مخارج للوضعيّة الإسلاميّة.

سادسها: الاستئناس بحركة التّنوير: إذا كان من معاني التّنوير [437] الدّعوة إلى سيادة حرّيّة الرّأي واحترام آراء الآخرين، ورفض اضطهاد المخالف، والاطّلاع على فكر العصر وعلومه بغرض الاستئناس ما يفيد منه، واستعادة الفرد لمكانته المهدورة من أجل تكوين إنسان جديد مفعم بالإرادة والمسؤوليّة، مع الحفاظ والانطلاق من أصالته ـ فإنّ ابن عاشور بهذه المعاني يُعدّ تنويريّا بامتياز، بل كان الشّيخ من الرّوّاد المؤسّسين لذلك الأمر، وقد ساعده في ذلك احتكاكه بالمثقّفين الفرنسيّين، وكذلك تشبّعه بالرّصيد الإصلاحي لخير الدّين التّونسي الذي انبهر ـ هو بدوره أيضا ـ بالتّنوير الأوروبي وتأثّره بما شاهده في باريس وإعجابه بذلك، وقد ظهر ذلك واضحاً في دعوته الإصلاحيّة في التّركيز على بناء المؤسّسة

---

[437] يبيّن إيمانويل كَانْتْ (Emanuel Kant) مفهوم التّنوير في مقاله الشّهير: ما التّنوير؟ في مجلّة برلين عدد كانون الأوّل عام 1784 فقال: خروج الإنسان من قصوره الذي اقترفه في حقّ نفسه من خلال عدم استخدامه لعقله إلاّ بتوجيه من إنسان آخر. ويحصر كَانْتْ أسباب حالة القصور تلك في السّببين الأساسيّين التّاليين: الكسل والجبن! فتكاسل النّاس عن الاعتماد على أنفسهم في التّفكير أدّى من جهة إلى تخلّفهم، ومن جهة أخرى هيّأ الفرصة للآخرين لاستغلالهم، وذلك بسبب عامل الخوف فيهم. انظر الى " معجم الفلاسفة ". جورج طرابيشي. ط 1 دار الطّليعة. بيروت. ص:474.

والإدارة والتّفريق بين السّلط كشروط ضروريّة للتّقدّم والحرّيّة والعدالة. كما لا ننفي أنّ ضغوطات سياسيّة حادّة ومعادية للطّرح الإسلامي فرضت نفسها على المصلحين الإسلاميّين بعد خروج المحتلّ عسكريّا، كانت لها دور مهمّ في إحداث خصوصيّة في الفكر الإصلاحي للشّيخ ابن عاشور وطبعه بمسحة تنويريّة أصيلة ومعاصرة.

كلّ هذه العوامل التي أشرت إليها، أحدثت زلزالا قويّا في كيان الشّيخ ابن عاشور وقدحا عظيما في فكره، فألحّت عليه لأخذ زمام مبادرة " التّغيير "، أضف إلى ذلك اكتشاف الشّيخ الأسباب الرّئيسيّة لضعف العالم الإسلامي، حين رأى نفسه أمام غرب رفيع التّمدّن، قويّا عسكرياً، قائما على المؤسّسات، " مقدّسا " للعدالة و الحرّيّات، فكان ذلك التّحدّي الحضاري بمثابة " المستفزّ " الأكبر والقادح الأضخم لطرح أسئلة النّهضة ووضع الشّروط الموضوعيّة للتّقدّم الحقيقي، ممّا ساهم بشكل كبير في تعميق تأسيسه للفكر المقاصدي في وعيه ووجدانه. فحاول ابن عاشور إيجاد صيغة توافقيّة من الانسجام بين مبادئ الإسلام وأفكار التّنوير التّي تأثّر بها.

ولأنّ كلّ ما تحدثه المدنيّة الحديثة من صور المعاملات لا يضيق عنه الفقه الإسلامي، فقد استعمل ابن عاشور مصطلحات جديدة اقتبسها من الأوروبي كتوقير العدل والمساواة وحبّ الحرّيّة، كما تواتر في مقدّمات تفسير " التّحرير والتّنوير " مصطلحات " الاستدلال " و " العقل " و" النّظر " بشدّة. يقول رحمه الله تعالى:" وسمّيته تحرير المعنى السّديد، وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد واختصرت هذا الاسم باسم " التّحرير والتّنوير من التّفسير "[438]. كما أنّ إدراج ابن عاشور مصطلح الميثولوجيا في مقدّمة تفسيره، ممّا يدلّ على سعة ثقافة ابن عاشور وإلمامه بالمعارف المتواترة في العصر الحديث وتفتّحه على سائر الثّقافات. قال الشّيخ في مقدّمة تفسيره عن علاقة العلوم بالقرآن على أربع مراتب "علوم لا علاقة لها به إما لبطلانها كالزّجر ـ التّطيّر أو التّكهّن ـ والعياقة ـ التّطيّر ـ والميثولوجيا..." [439]. ومن المصطلحات التي انتشرت في كتبه: " إصلاح النّفوس وإكمال الأخلاق وتقويم المجتمع المدني وتبيين الحقوق " [440]، كما أشار في أوّل محاضرة له عنوانها " أصول التّقدّم والمدنيّة

---

[438] محمّد الطّاهر ابن عاشور. التّحرير والتّنوير. الدّار التّونسيّة للنّشر. تونس. س:1404 هـ - 1984 م. (1/ 8 - 9).
[439] نفسه (45/1).
[440] نفسه (13 - 253).

في الإسلام" ألقاها ابن عاشور أمام قدماء الصّادقيّة [441] أشار إلى أفلاطون (427-428 ق.م / 347-348 ق.م) وأرسطو (322 ق.م - 384 ق.م)، وابن سينا (370هـ 980 م/ 427 هـ،1037 م) ممّا يدلّ على اهتمامه بالفكر الفلسفي وضرورة الاقتباس من حِكَمِهم [442].

ونشير في هذا السّياق أنّ تفاعل ابن عاشور مع الحضارة الغربيّة لم يدفع به إلى المناداة بالأخذ بكلّ ما في تلك الحضارة في جميع جوانبها الماديّة والرّوحيّة، فابن عاشور بقراءته لأعمال فلاسفة التّنوير الغربي العلماني، قد ميَّز بين الفلسفة الوضعيّة التي أثمرتها فلسفة التّنوير بوقوفها في سبيل المعرفة عند العقل والتّجريب رافضة الوحي والشّرع، وبين علوم التّمدّن المدني الطّبيعيّة، فقبل الثّانية بوصفها إرثاً إنسانيًّا مشتركاً، ورفض الأولى، داعياً إلى ضرورة الاعتماد على الشّرع مع العقل والتّجريب.

[441] جمعيّة تأسّست في البلاد التّونسيّة عام: 1325هـ - 1905 م. نشاطها ثقافي ووادي أساسا.
[442] جريدة " حبيب الأمّة ". السّنة الأولى. العدد 12. سنة 1326 هـ - 1906 م.

إصلاح ابن عاشور على المستوى الاجتماعي

بـيّن الشّـيخ في كتابـه (أصـول النّظـام الاجتمـاعيّ في الإسـلام) أنّ العقيـدة هـي أسـاس إصـلاح الأمّة وإسعادها، فلا يصلح الفرد والمجتمع جميعا إلاّ بذلك.

أمّـا الفـرد فبإصـلاح عقيدتـه وإصـلاح فكـره وإصـلاح عملـه. وأمّـا إصـلاح المجتمـع فيكـون عـبر إيجـاد الجامعـة الإسـلاميّة المتطبّعـة بـأخلاق الأخـوّة والمسـاواة وحـبّ الحرّيّـة والعـدل، والمحافظـة على ثروتها الاقتصاديّة، والمدافعة عن حوزتها، والمتسامحة مع مخالفيها في العقيدة الدّينيّة.

ومـن المهـمّ جـداً هنـا أن يسـجّل كـلّ متأمّـل بعمـق أنّ أهـمّ مقـوّم تأسّـس عليـه تفكـير الشّـيخ محمّـد الطّـاهر في الإصـلاح الاجتمـاعي أنّـه كـان شـديد التّـأثّر بمـنهج النّمـوذج النّبـويّ في هـذه الخطّـة الإصـلاحيّة، حيـث جعـل الفـترة المكّيّـة للإصـلاح الفـردي العقـدي ومـن الفـترة المدنيّـة نموذجـا لـه في الجامعـة القائمـة علـى العقـد الاجتمـاعي الأخـويّ بـين المسـلمين، والمتسـامحة مـع غيرهم.

أ ــ المسـألة الأخلاقيّـة: أشـار ابـن عاشـور إلى أنّ مـن أعظـم أسـباب تخلّـف المسـلمين:" انحطـاط الأخـلاق الدّينيّـة وضـعف تنافسـهم في الصّـالحات " [443]. وأنّـه لا سـبيل إلى تجـاوز التّخلّف واستعادة المسلمين مكانتهم المرموقة التي كانوا عليها إلاّ بأمرين اثنين وهما:

ــ تطبيق ما نادت به الشّريعة في إطار الاتّحاد والتّكتّل على أساس الدّين.

ــ اعتمـاد الـوازع النّفسـي لمـا لهـذا الـوازع الأثـر المباشـر في الإصـلاح الاجتمـاعي فضـلا عـن أثـره في إصلاح الفرد الذي بصلاحه يصلح كامل المجتمع.

ب . إصلاح وضع المرأة: نظر العلاّمة ابن عاشور إلى المرأة من زوايا متعدّدة، من أهمّها:

ــ دور المـرأة في الإصـلاح: للمـرأة في فكـر الشّـيخ ركيـزة أساسـيّة مـن أهـمّ ركـائز الإصـلاح: قال رحمه الله تعالى:" دين الإسلام حريّ بالعناية بإصلاح شأن المرأة، وكيف لا وهي نصف

---

[443] جريدة " حبيب الأمّة ". السّنة الأولى. العدد 12. سنة 1326 هـ - 1906 م.

النّـوع الإنسـاني والمربّيـة الأولى الـتي تفـيض التّربيـة السّـالكة إلى النّفـوس قبـل غيرهـا والـتي تصـادف عقـولا لم تمسّـها وسـائل الشّـرّ وقلوبـا لم تنفـذ إليهـا خـراطيم الشّـيطان. فـإذا كانـت تلـك التّربيـة خـيرا وصـدقا وصـوابا وحقّـا، كانـت أوّل مـا ينـتقش في تلـك الجـواهر الكريمـة وأسـبق مـا يمتـزج بتلـك الفطـر السّـليمة، فهيّـأت لأمثالهـا مـن خـواطر الخـير منـزِلا رحبـا ولم تغـادر لأغيارهـا مـن الشّـرور كرامـة ولا حبّـا " [444]. وهـذا مـا جعـل الشّـيخ يسـتدلّ في التّحريـر بنحـو 2682 من أبيات الشّعر وأنصاف الأبيات "كلّها تتحدّث عن المرأة [445].

ـــ **تعليمهـا**: دافـع الشّـيخ عـن حـقّ المـرأة في التّعليـم مثلهـا مثـل الرّجـل، فقـال رحمـه الله تعـالى:" بقـاء المـرأة منحطّـة الفكـر غارقـة في الجهـل إبقـاء لهـا في حالـة منحطّـة، وذلـك يسـلُب منهـا الأهليّـة لتربيـة أولادهـا تربيـة كاملـة، وسياسـة بيتهـا علـى الوجـه الأكمـل ويسـلُب الأمّـة الانتفـاعَ بنصـف كامـل مـن البشـر"[446]. ولـذلك لمـا آل الأمـر إليـه إدارة الزّيتونـة، وفي إطـار إصـلاحه التّعليم الزّيتوني، أسّس فرعين زيتونيّين خاصّين بالفتيات في تونس وصفاقس.

ـــ **حرّيّـة تصـرّفها في أموالهـا**: دافـع ابـن عاشـور عـن حريّـة النّسـاء في التّصـرّف في أمـوالهنّ مثـل الرّجال بحسب ما تسمح به حالتهنّ من انتفاء المفاسد.

ـــ **المســاواة**:" والمسـاواة عنـده لا تعـني دحـض الفـروق الذاتيّـة والمميّـزات النّفسـيّة والمواهـب المختلفـة وقـد انتقـد تصـوّر الشّـيوعيّين للمسـاواة، مـن دون نقـد مفهـوم المسـاواة في الفكـر اللّيبراليّ الفرنسي على الخصوص، والذي ظلّ الشّيخ معجباً به إلى أبعد الحدود "[447].

ـــ تجميـد أحكـام فقهيّـة لمـن لا يحسـن وضـع العقوبـات الشّـرعيّة مكانهـا كضـرب النّاشـز: ففـي الآيـة المتعلّقـة بضـرب المـرأة النّاشـز الـوارد في الآيـة الكريمـة:" وَالـلاَّتِي تَخَـافُونَ نُشُـوزَهُنَّ فَعِظُـوهُنَّ وَاهْجُـرُوهُنَّ فِي الْمَضَـاجِعِ وَاضْـرِبُوهُنَّ ..." [448]. تـراه ينـافح عـن المـرأة حيـث ذهـب إلى عـدم ضـرب الـزّوج امرأتـه إذا نشـزت، بـل نـادى بمعاقبتـه إذا فعـل ذلـك، بنـاء علـى أنّ الأمـر في

---

[444] التّحرير. ط: 1404 هـ. (401/2) وراجع أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام. ط : 3. س: 1431 هـ . تونس. ص.97

[445] الشّـابي علـي. " صـورة المـرأة فـي آثـار العلاّمـة الشّـيخ محمّد الطّـاهر ابـن عاشـور. " العلاّمـة الشّـيخ محمّد الطّـاهر ابـن عاشـور وإسـهامه في تجديد الفكر الدّيني". سلسلة آفاق إسلاميّة. 23 صفر 1417 هـ - 9 جويلة 1996 م.

[446] نفسه.

[447] محمّد همّام. " نقد مفهوم الحرّيّة في الفكر الإسلامي: " الطّاهر ابن عاشور نموذجاً ". موقع الفكر المعاصر: http://afkarmoassira.com/news26.html#_ftn25

[448] النّساء 34.

الآيـة أمـر إباحـة. وربـط هـذه المسـألة بأصـل قواعـد الشّـريعة الـتي لا تسـمح بـأن يقضـي أحـد لنفسـه لـولا الضّـرورة، علمـا بـأنّ الحـدّ الفاصـل في الضّـرب بـين الإصـلاح والإهانـة لا يكـاد يبـين، ومـن ثمّ انتهـى إلى أنّ لـوليّ الأمـر أن يُعاقـب مـن ضـرب امرأتـه كـي لا يتفـاقم أمـر الإضـرار بـالأزواج، فقـال:" يجـوز لـولاّة الأمـور إذا علمـوا أنّ الأزواج لا يحسـنون وضـع العقوبـات الشّـرعيّة مواضـعَها، ولا الوقـوفَ عنـد حـدودها أن يضـربوا علـى أيـديهم اسـتعمال هـذه العقوبـة، ويعلنـوا لهـم أنّ مـن ضـرب امرأتـه عوقـب، كـيلا يتفـاقم أمـر الإضـرار بـين الأزواج، لا سيما عند ضعف الوازع " [449].

ـ **شـهادتها:** يـرى ابـن عاشـور في تفسـيره لقولـه تعـالى:" وَاسْتَشْـهِدُوا شَـهِيدَيْنِ مِـنْ رِجَـالِكُمْ فَـإِنْ لَمْ يَكُونَـا رَجُلَـيْنِ فَرَجُـلٌ وَامْرَأَتَـانِ مِمَّـنْ تَرْضَـوْنَ مِـنَ الشُّـهَدَاءِ أَنْ تَضِـلَّ إِحْـدَاهُمَا فَتُـذَكِّرَ إِحْـدَاهُمَا الْأُخْـرَى" [450] أنّ الغـرض الأساسـي مـن حضـور امـرأتين في الشّـهادة علـى الـدّين تشـريك المـرأة الـتي كانـت معزولـة عـن الأنشـطة الـتي اختـصّ بهـا الرّجـال ولم يجعـل سـبب مقـام امـرأتين رجـلا واحـدا لـنقص في خلقهـا أو عقلهـا كمـا يحـاول خصـوم أدعيـاء حقوقهـا إثباتـه، قـال الشّـيخ:" وجـيء في الآيـة بـ (كـان) النّاقصـة مـع الـتمكّن مـن أن يقـال فـإن لم يكـنْ رجـلان لـئلاّ يتـوهّم منـه أنّ شـهادة المـرأتين لا تقبـل إلاّ عنـد تعـذّر الـرّجلين كمـا توهّمـه قـوم، وهـو خـلاف قـول الجمهـور لأنّ مقصـود الشّـارع التّوسـعة علـى المتعـاملين. وفيـه مرمـى آخـر وهـو تعويـدهم بإدخـال المـرأة في شـؤون الحيـاة إذ كانـت في الجاهليّـة لا تشـترك في هـذه الشّـؤون، فجعـل الله المـرأتين مقـام الرّجـل الواحـد وعلّـل ذلـك بقولـه:" أَنْ تَضِـلَّ إِحْـدَاهُمَا فَتُـذَكِّرَ إِحْـدَاهُمَا الْأُخْـرَى"[451]، وهـذه حيطـة أخـرى مـن تحريـف الشّـهادة وهـي خشـية الاشـتباه والنّسـيانِ لأنّ المرأة أضعف من الرّجل بأصل الجبلّة بحسب الغالب، والضّلال هنا بمعنى النّسيان " [452].

ـ اعتبـاره جمـال المـرأة وخلقهـا مـن وسـائل رزقهـا: اعتـبر الشّـيخ ابـن عاشـور جمـال المـرأة مـن وسـائل رزقهـا، لـذلك جـوّز لهـا أن تُغلـي في مهرهـا، فقـال رحمـه الله تعـالى:" جمـال المـرأة ومحامـدها نعمـة مـن الله ... للمـرأة حـقّ في أن يكـون صـداقها مناسـبا لنفاسـتها لأنّ جمـال

---

[449] محمّد همّام. " نقد مفهوم الحرّيّة في الفكر الإسلامي: " الطّاهر ابن عاشور نموذجاً ". موقع الفكر المعاصر. نفسه.
[450] البقرة 281.
[451] البقرة 281.
[452] الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور. التّحرير والتّنوير. دار سحنون للنّشر والتّوزيع. تونس. 1418 هـ - 1997 م. تونس. (2 / 108 - 109).

المرأة وخلقها من وسائل رزقها " [453].

وممّا ساهم في تغذية مناصرة الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور للمرأة زيادة على حياته النّاعمة، الوضع البائس الذي تردّت فيه المرأة في عهده، وخميرة فقه مذهب الإمام مالك المنتصرة للمرأة، والتي منها أنّه لا يلزم المرأة الشّريفة إرضاع ولدها. ولربّما كان للشّيخ أن يكون أكثر قابليّة على الانفتاح على "المثال" الغربي في تحقيق أكثر "مكاسب" للحرّيّة والمساواة في مسألة المرأة خاصّة، لولا السّقف الزّماني والمكاني المحدود، والسّياج الاجتماعي الضّاغط وتربّص الفقهاء المتحفّزين، لكان الشّيخ أكثر حرّيّة وأكثر دفاعا عن المرأة، ولكنّ مجهوده الانفتاحي في سياقه التّاريخي لم يسمح له أكثر ممّا جاد به.

[453] محمّد الطّاهر ابن عاشور. مقاصد الشّريعة الإسلاميّة. ط:1. الشّركة التّونسيّة للتّوزيع. س:1398 هـ - 1978 م. ص159.

إصلاح ابن عاشور على المستوى التّربوي

قام المشروع الإصلاحي التّربوي للشّيخ على نقد التّعليم التّقليدي القائم على الحفظ والتّلقين، ومعاملة الصّبية بالقسوة، مستعملا نفس المنهج النّقدي التّربوي الذي اعتمده ابن خلدون في رفضه لطرق التّعليم الدّينيّة التّقليديّة.

ولقد شمل الإصلاح التّربوي للشّيخ ابن عاشور في التّعليم والتّكوين بمختلف مراحله واختصاصاته، وقامت هذه الرّؤية الإصلاحية في هذا الباب على هذه الأصول الآتي ذكرها:

أ ـ التّعليم هو أساس كلّ إصلاح وتغيير مجتمعي: العلم هو من أهمّ الأسباب الذي يحقّق خيريّة أمّة الإسلام وعزّتها، وبإصلاح التّعليم يصلح به المجتمع، أو قل بإصلاح الوسيلة (التّعليم) بإصلاح الهدف (المجتمع) وبالتالي يحقّق أهداف الأمّة وعزّتها. وهذا يعكس وعيه بأنّ العلم هو عامل أساسي لإخراج كلّ مجتمع من حالة التّخلّف. من أجل ذلك انطلق الشّيخ في وضع خطّة إصلاح التّعليم مبكّرا وهو شابّ لم يتجاوز عمره الخمسة وعشرين سنة، فصنّف كتابا خاصّا بالمسألة وسمّاه بـ " أليس الصّبح بقريب؟ " وذلك سنة 1910 ولم يُطبع إلاّ سنة 1956، ممّا يدلّ على أنّ هذا الشّيخ أدرك منذ شبابه مكمن الدّاء في تخلّف الأمّة، وأنّ إصلاح حالها لا يكون إلاّ بإصلاح مناهج التّعليم الذي سقط في كبوة خطيرة. قال:" رأيت الذي يطمع في البحث عن موجبات تدلّي العلوم يرمي بنفسه إلى متّسع ربما لا يجد منه مخرجا في أمد غير طويل، وأيقنتُ أنّ لأسباب تأخّر المسلمين عموما رابطة وثيقة بأسباب تأخّر العلوم " [454].

ب ـ استقلال العلم و العلماء عن السّياسي: إنّ من أبرز مقرّرات ابن عاشور أنّ تغيير نظام الحياة في كلّ جزء من أنحاء العالم يتطلّب تبدّل الأفكار والقيم العقليّة، ولذلك يرى الشّيخ أنّ العلم هو شرط نظام البشريّة وسعادتها، بل جعله سبيل كلّ هداية، فقال في

[454] محمد الطاهر بن عاشور . أليس الصبح بقريب ؟. ص : 175.

تفسير سورة الفاتحة:" فإنَّ طلبَ الهدايةِ اعترافٌ بالاحتياج إلى العلم "[455]. ونظرا لما للعلوم والتّعليم من أهمّيّة وخطورة في حاضر الأمّة ومستقبلها، طالب الشّيخ السّاسة أن لا يتحكّموا في العلم من جهة، كما طالبهم أيضاً بأن يولّوا العلم اهتماما خاصّا ويعدّوا له إعدادا بما يوازي إعدادهم السّياسي والحربي أو يزيد، فيقول على لسان رئيس مجمع ترقية العلوم البريطاني نذكر تنويهه بقولة رئيس مجمع ترقية العلوم البريطاني سنة 1904:" يجب على الحكومة أن تنظّم جيوشها للسّلم كما تنظّم جيوشها للحرب. وغرض هذا تقوية البحث العلمي وتدريبه وتقريب الصّلات بين المشتغلين بالعلم، وتعميم الاهتمام بالمواضيع العلميّة، ونقض الحوائل السّياسيّة التي تقف على سبيل العلم، وهذا هو السّبب الحقيقي الذي يُضَعّف رجال العلم ولا يجعل لهم صوتا تسمعه الأمّة أو تبالي به الحكومة " [456].

فالشّيخ رحمه الله تعالى كان شديد الوعي بأن يكون أهل العلم أحرارا بعيدين عن تدخّل السّياسي في عملهم العلمي، وأن يرفع السّياسيّون قيودهم عن حرّيّة الأبحاث الأكاديميّة، فهو بالتّالي يرى ضرورة أن يَتْبعَ رجالُ السّياسة أهلَ العلم وليس العكس. ويعطينا الشّيخ مثالا رائعا ينتصر فيه إلى هذا المسعى، كما يكشف استدلاله بهذه الحادثة حسن متابعة ابن عاشور لما يحدث في أوروبا وانفتاحه على الأفكار الأجنبيّة بخصوص تطوير التّعليم. وفي هذا الصّدد نجد الشّيخ يؤصّل لاستقلاليّة العالم عن السّياسي وانتصار العلم على السّياسة بسابقة فرنسيّة حميدة دون نظر في سياقها الأجنبيّ عن عالمنا الإسلامي، فيستشهد لنا بها في مؤلّفه " الصّبح القريب " فيقول:" وقد حفظ التّاريخ العصري أوّل مرّة انتصر فيها العلم على الحكومة في فرنسا وذلك أنّ الحكومة طلبت من مجلس الأمّة هدم صرح (إيفل) الشّهير القائم في باريس لأنّ الذّوق الجديد استقبح منظره ولأنّه يشغل مكانا فسيحا قد كان ثمنه يفيد إدارة بلديّة المدينة فائدة جمّة فما كاد المجلس يصادق على ذلك حتّى قام بعض أعضاء جمعيّة العلوم وطلب بلسان علم الفلك إبقاء الصّرح الذي يفيد ارتفاعه الأرصاد الفلكيّة وبعد حروب لسانيّة انتصر العلم على السّياسة سنة 1906، ليت

---

[455] الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور. التّحرير والتّنوير. دار سحنون للنّشر والتّوزيع. س: 1418 هـ - 1997 م. تونس. (1/ 153).
[456] محمّد الطّاهر ابن عاشور " أليس الصّبح بقريب " نشر مشترك دار سحنون للنّشر والتّوزيع. دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة. تونس. ط 3. س: 1431 هـ - 2010 م. ص 18.

لنا ألسنة في سالف الزّمان تنادي بنصر العلم ولكن ما مضى فات " [457].

ت ــ البــديل التّعليمــي: كـرّس الشّـيخ حياتـه للنّهـوض بـالتّعليم وإصـلاح الخلـل والفسـاد اللـذين أصـابه، وتتمثّـل في فسـاد المعلّـم، وفسـاد المـادّة الدّراسـيّة، وفسـاد النّظـام العـام. فقـدّم البـديل الإصـلاحي، مراعيـا أولويّـة المـادّة، فأُلِّفـت كتـب دراسـيّة جديـدة ووضـع طـرق تـدريس حديثـة وأسّـس معاهـد التّعلـيم ليحقّـق هـذا الطّمـوح والأمـل. ولكنّـه قوبـل بعراقيـل ضـخمة وكثـيرة. وحـين تتأمّـل في معـنى عنـوان كتابـه " أليـس الصّـبح بقريـب؟ "، يتبـيّن لـك أنّ التّعلـيم ـ لـدى الشّـيخ ـ هـو الرّكيـزة الأهـمّ في بنـاء المجتمـع، وأن لا يشـرق صـباح المسـلمين إلاّ بـالعلم، وهـذا طبيعـيّ لشـاب نبيـه مثلـه، وهـو يتـابع بتأمّـل مـا تفعلـه فرنسـا في تـونس، وهـي تبـني مـدارس غربيّة و تجبر أبناءها الذّكور والإناث على التّعليم.

إنّ مشـروع الشّـيخ ابـن عاشـور الإصـلاحي التّربـوي الـذي عرضـه في كتابـه لإصـلاح التّعلـيم الزّيتـونيّ أساسـا مـع بيـان الأسـباب الـتي أدّت إلى ضـعفه وعـدم نفعـه، وقـد بـيّن في مقدّمـة هـذا الكتـاب أنّ كثـيرا مـن ذوي الألبـاب والعلمـاء، قـد طرحـوا نظـرات إصـلاحيّة نافعـة، ولكنّهـا كانـت متوقّفـة علـى هـذا المقصـد الجليـل المغفـول عنـه ـ وهـو مبـدأ إصـلاح التّعلـيم ـ و بـيّن أنّ هـذا الإصـلاح مـن مميّـزات الأمـم فهـو أصـل تفاضـلها و رقيّهـا، ولـذلك اعتـنى أسـاطين العلمـاء من المسلمين بتحسين أساليب التّعليم كابن العربي وابن خلدون " [458].

ث ــ تعلــيم الصّــبيان: اهـتمّ الشّـيخ بـالتّعليم الابتـدائي الأساسـي في مختلـف جوانبـه مبيّنـا تطوّرهـا وأسـاليبها مـوردا مختلـف الآراء فيهـا متعرّضـا إلى تعلـيم البنـت والتّجـاوز بتحفـيظ الصـبي القـرآن الكـريم إلى تحفيظـه الشـعر والحكـم والأدب وتعليمـه الكتابـة وتلقينـه مـا يناسـب عمـره مـن حـديث وفقـه تهيّئـه لـدخول الدّرجـة الثّانيـة وهـي التّعلـيم الـذي فـوق الابتـدائي والمتمثّـل في تلقّـي دروس العلـوم بـالفهم وشـرح المتـون ثمّ يرتقـي بالتّلميـذ في دراسـة كتـب العلـوم بشـروح وحـواش ينتقـل مـن انتهـاء كتـاب إلى أوسـع منـه مـن عملـه ببسـط شـرح وزيـادة مسـائل ويقـدّم

---

[457] محمّد الطّـاهر ابـن عاشـور " أليـس الصّـبح بقريـب " نشـر مشـترك دار سـحنون للنّشـر والتّوزيـع. دار السّـلام للطّباعـة والنّشـر والتّوزيع والتّرجمة. تونس. ط 3. س: 1431 هـ - 2010 م. ص 18.

[458] هشـام قريسـة، " مـن مظـاهر التّنـوير فـي فكـر الشّـيخ محمّد الطّـاهر ابـن عاشـور الإصـلاح التّعليمـي– نموذجـا ". مـن محاضـرة " التّنـوير عنـد علمـاء الزّيتونـة فـي النّصـف الأوّل مـن القـرن العشـرين ". ط: 1. شـركة المطبعـة الفنّيّـة. س: 1431 هـ - 2010 م. ص 142.

الشّيخ الطّرق الثّلاث المتوخّاة في ذلك. والتي يفصل القول فيها بما يشفي الغليل وبما فيه الكفاية والاستيعاب. فكان يعتقد أنّ الإصلاح ينطلق ابتداء من الطّفل بترسيخ تعليم اللّغة العربيّة وتثبيت قواعدها والغوص مع اشتقاقها وفنونها والاستمتاع بآدابها لتكون الأداة الطيّعة لفهم الدّين الإسلامي عقيدة وشريعة ومعاملة من مصادره الأساسيّة والإبحار في فسيح مقاصد الشّريعة وأصول التّشريع الإسلامي... يعني ترسيخ ثوابت " الهويّة " من اللّغة والدّين في مهجة الطّفل ثمّ العروج به إلى آفاق العلوم التّجريبيّة والصّحيحة بطرق بيداغوجيّة سليمة تُعطي كلّ شيء ما يستحقّ من الوقت والعناية سواء من طلاّب العلم أو رجال التّعليم.

لقد قام المشروع التّعليمي التّربوي الإصلاحي لابن عاشور على:

- تجاوز التّعليم التّقليدي القائم على الحفظ والتّلقين، ومعاملة الصّبية على القسوة.
- التدرّج بالمتعلّم من مرحلة " نشوئيّة " إلى أخرى، مراعاة لنموّ قدراته المعرفيّة المختلفة.
- التّرفّق بالمتعلّمين لإكسابهم الثّقة بأنفسهم وتهيئتهم نفسيّا لمرقى النّقد والابتكار والمساهمة في إنتاج المعرفة.
- إجراء عمليّات تطويع للمعرفة المختصّة حتّى تصبح في متناول المتعلّمين بحسب مراتبهم التّعليميّة (عمليّة النّقل التّعليمي).
- الاعتناء بالكيف وبتنمية قدرات المتعلّمين الذّهنيّة عوضا عن التّركيز على الكمّ وعلى إنهاك الذّاكرة بالحفظ الرّكيك.
- ضرورة إجراء إصلاحات في المعارف التّقليديّة، كجعل علم المقاصد مُستقلاّ ولا تحت نظر الفقه.
- إدخال العلوم الوضعيّة العقليّة والآداب في موادّ التّعليم، كعلوم اللّغة والحساب والعلوم الطبيعيّة والإنسانيّة.
- رفع القيود عن الحرّيات الأكاديميّة (حرّيّة البحث والنّشر العلمي والنّهي عن الظّلم المؤذن بخراب العمران جرّاء كسر شوكة أهل القلم لصالح عمّال السّيف، لدى ابن خلدون).

- القيام بإصلاحات في نظام التّقييم والمناظرات، بحيث لا يقع الاكتفاء بتقييم القدرة على التّكرار والاستظهار وإنّما إضافة امتحان المتعلّم في قدراته التّواصليّة والتّأليفيّة.
- الاهتمام بتكوين المدرسين ومدّهم بقواعد صناعة التّعليم الحديث.

إصلاح ابن عاشور على المستوى السّياسي

انطلق الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور من كون الإسلام دينا ودولة، وكان من الطّبيعي أن يكون له موقف من السّلطة و نظام الحكم و وسائل التّعبير المختلفة، كما زاوج في عمله الإصلاحي بين الفكر والعمل السّياسي الشّرعي، وتنوّع إسهاماته في ذلك الأمر.

كان الشّيخ ابن عاشور أقرب إلى المفكّر السّياسي الشّرعي منه إلى رجل السّياسة، فهو يميل إلى التّربية و الإصلاح، و جاءت الوظائف " العلميّة – السّياسيّة " في حياته عرضا أو ضرورة مكمّلة لفكرته الإصلاحيّة. فدخل معترك السّياسة من الدّين، ثمّ هجرها واعتزلها إقالة أو استقالة، واستمرّ في نهجه الإصلاحي التّربوي السّياسي، كما عبّر عن موقفه من السّياسة صراحة و نقده لها، لأنّها تضطهد الفكر والدّين والعلم فقال رحمه الله تعالى:" والبؤس العظيم للأمّة، أن تداخلت العوائد والعلوم ومُوِّهت بعض العوائد بطلاء الدّين أو الأصول.. وسلبت الحرّيّة عن العلوم.. وأصبح المبتكر عرضة للنّكاية أو الاضطهاد ناهيك بالمعترض على بعض المتقدّمين " [459] ويقول أيضا: " ولطالما كنت أقدّم رجلا وأؤخّر أخرى واعلم أنّ نور عقلي هو دون إضاءة هاته المجاهل التي صفدت عليها منافذ الأنوار والأهوية الخالصة فامتلأت بالحوامض الرّديئة منذ أزمان " [460].

أمام هذا الواقع المعقّد، لا يظنّ عاقل أنّ رجلا مثل العلاّمة ابن عاشور أنّه . بعد خروج المستعمر ـ لم يضع بسماته في وضع نظريّة إصلاحيّة للدّولة التّونسيّة. فقدّم رحمه الله تعالى مشروعه السّياسي الإصلاحي في إضافات نوعيّة، وأصّلها متّخذا من علم المقاصد سبيلا لأسلمتها. وقام هذا المشروع الإصلاحي على تحقيق هذه المسائل:

---

[459] ابن عاشور محمّد الطّاهر. أليس الصّبح بقريب؟ نشر مشترك: دار سحنون للنّشر والتّوزيع. دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة. ط: 3. 1431 هـ - 2010 م . تونس. ص 13.

[460] نفسه.

أ . **مسألة الحرّيات الأساسيّة** [461]: شكّل مبحث مقاصد شريعة ابن عاشور الإطار العام للبحث في الحقوق والحرّيات العامّة من منظورٍ إسلاميٍّ خارطة طريق من القيم لتنظيم حياتنا الاجتماعيّة والسّياسيّة على هدًى من الرّسالة الإساميّة. وكان مقصد الحرّيّة من المقاصد التي أضافها الإمام ابن عاشور التي لا نكاد نجد الأصوليّين عنوا بهذا المبحث، فذهب ابن عاشور إلى أنّ " الحرّية مبنيّة على مقصد المساواة، التي يلزم منها ويتفرّع استواء أفراد الأمّة في تصرّفهم في أنفسهم "[462]. بل إنّه مقصد أصلي من مقاصدها هذا، وإن كان الفقهاء قد أشاروا إلى أنّ" الشّرع متشوّف إلى الحرّيّة... استقراء الشّريعة التي دلّت على أنّ أهمّ مقاصدها إبطال العبوديّة، وتعميم الحرّيّة " [463]. ومن هذا الاستقراء" كثرة الأمر بعتق الرّقاب الذي دلّنا على أنّ مقصد الشّريعة حصول الحرّيّة [464]. وأكّد هذا بقوله:" فمن استقراء الشّريعة وتصرّفاتها حصل لنا العلم بأنّ الشّريعة قاصدة بثّ الحرّيّة " [465]. وعدّد أنواع الحرّيّة في: الحرّيّة في المعتقد، والتّعبير والعمل، وفي العلم والتّعليم، والتّأليف، والبحث، وذهب إلى أنّ العدوان على الحرّيّة من أنواع الظّلم:" واعلم أنّ الاعتداء على الحرّيّة نوع من أنواع الظّلم " [466].

وقد تنبّه الشّيخ ابن عاشور إلى ما يحدث في العالم من مظالم وحروب ناشئة وأوعزها إلى العدوان على حرّيّة النّاس، ولذلك قال:" من مقاصد الشّريعة رفع أسباب التّواثب والتّغالب " [467]. كما لمز إلى أنّ الإسلام وحده الذي جمع بين تحقيق الحرّيّة والأمن العالمي فقال:" الإسلام جمع بين مقصدين: نشر الحرّيّة، وحفظ نظام العالم "[468]. وهذا موقف فيه معنى من التّحدّي من جهة كما فيه تفوّق الإسلام في الحفاظ على أمن شعوب العالم كلّه. وهذا المعنى فيه أهمّيّة كبرى حيث يتحدّى شيخ الإسلام في تونس دول الإفرنج الذين رفعوا الحرّيّة

---

[461] بما هي حرّيّة اعتقاد وحرّيّة تفكير وحرّيّة قول وحرّيّة فعل وتنقّل. وأنّ السّيادة للشّعب والتّفريق بين السّلطات، هي من أهمّ مناط النّقدّم في المجتمع الحديث، وهذا ما دعا الشّيخ إلى تبنّي هذه الإصلاحات، لا لفائدة رجال الحكم، لأنّه لم يكن مواليا لهم، ولكنّه كان يستفزّ الحكم ليقيموا دولة "الشّعب" عوضا عن شعب الدّولة.

[462] مقاصد الشّريعة الإسلاميّة تحقيق محمّد الحبيب ابن الخوجة. بتصرّف.. ط: وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة. س: 1425هـ - 2004 م. دولة قطر. (3/372).

[463] نفسه. (3/373).

[464] نفسه. (3/ 61).

[465] نفسه. (3/ 379).

[466] نفسه. (3/ 383).

[467] مقاصد الشّريعة الإسلاميّة تحقيق محمّد الحبيب ابن الخوجة. بتصرّف. (3/ 410).

[468] نفسه. (3/ 320).

كشعار. وكأنّ لسان حاله يقول: الحُرّيّةُ بضاعتنا والدّفاع عن حقوق النّاس هو حقيقة ديننا، إذ الحرّيّة تعني في أبرز معانيها حقّ الشّعوب في الحرّيّة والأمن وتقرير مصيرها لا احتلالها.

إنّ الذي يُحسب للشّيخ ابن عاشور تفاعله مع مسألة " الحرّيّة " باعتبارها المادّة الخام التي انطلق منها السّؤال النّهضويّ لحركة الإصلاح في بداية القرن العشرين وفي خطوةٍ اجتهاديّةٍ غير مسبوقةٍ، دندن على اعتبار أنّها مقصد من مقاصد الشّريعة فأضافها إلى جملة مباحث المقاصد فعمّق مبحثها وركّز على دورها في تنمية الإنسان وتحقيق رسالته الاستخلافيّة.

ب . حفظ نظام العالم والمقصود به"البيئة": لأنّ الإنسان ـ كما سطّر القرآن ذلك ـ هو أكثر الكائنات الحيّة انحرافا بحكم تدخّل قانون الرّبح دون اعتبار للأخلاق والضّعاف من البشر، تنبّه الشّيخ إلى خطورة المخلّفات الصّناعيّة وآثارها الجانبيّة الضّارّة وتأثيرها على البيئة والصّحّة، فقال رحمه الله تعالى: " إنّ مقصد الشّريعة من التّشريع حفظ نظام العالم وضبط تصرّف النّاس فيه على وجه يعصم من التّفاسد والتّهالك "[469]. فالمقصود أنّ ابن عاشور لم يقتصر مشروعه صلاح النّاس في أحوالهم الاجتماعيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة وإنّما يمتدّ إلى صلاح كلّ كائن موجود في العالم. وهذه نظرة لا نجدها عند قدماء الفقهاء والفلاسفة، إلاّ ابن طفيل (581 هـ . 666 هـ /1100م . 1185م) الذي دعا إلى الحفاظ على الحياة في النّبات بأن لا ترمي بذور الفواكه حين استهلاكها، وإنّما يحتفظ بها، لأنّها أصول لهذه النّباتات والأشجار التي تلد ثمراتها وذلك في قصّة حي بن يقظان [470]، ويرى الإمام ابن عاشور أنّ" مصلحة نظام العالم في احترام بقاء النّفوس في كلّ حال (...) وتأمين له من التّساهل في خرم أصوله " [471].

---

[469] نفسه. (230/3).
[470] أسطورة تحكي قصّة شخص يدعى حيّ بن يقظان نشأ في جزيرة وحده، وترمز للإنسان وعلاقته بالكون والدّين.
[471] مقاصد الشّريعة الإسلاميّة. تحقيق محمّد الحبيب ابن خوجة. وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة. دولة قطر.1425هـ ـــ 2004 م. (3 /204).

ت . حفظ نظام العالم من خطورة العولمة [472]: لقد تنبّه ابن عاشور إلى خطورة العولمة وما تحدثه من الحدّ من السّلطات الوطنيّة وفتح الأبواب لتدخّلات الأسواق العالميّة والشّركات الكبرى والبنك وصندوق النّقد الدّوليّين، وما إلى ذلك، فحفظ نظام العالم واستدامة صلاحه فيما يرى يتوقّف على صلاح الإنسان في عقله وعمله:" وصلاح ما بين يديه من موجودات العالم الذي يعيش فيه" [473]. ويعطي الشّيخ العلاج والبديل الفطري لعمران العالم وحفظ نظامه، ذلك أنّ الله تعالى خلق الإنسان على أصول فطريّة " لعمران العالم وهي إذن صالحة لانتظام هذا العالم على أكمل وجه، وهي إذن ما تحوي عليه الإسلام الذي أراده الله لإصلاح العالم بعد اختلاله " [474].

6 ــ الإصلاح الاقتصادي: ومن معالم تجديد الشّيخ ابن عاشور في الإصلاح المالي، إضافته لمقاصد التّصرّفات الماليّة، وحفظ ثروة الأمّة لأنّ الشّريعة بالمال، وقصدُها إلى حفظه، وتنميته، وترويجه، وتوزيعه بالعدل "ما يُظنّ بشريعة جاءت لحفظ نظام الأمّة، وتقوية شوكتها وعزّتها، إلاّ أن يكون لثروة الأمّة في نظرها المكان السّامي من الاعتبار والاهتمام، وإذا استقرينا أدلّة الشّريعة من القرآن والسّنّة الدّالّة على العناية بمال الأمّة وثروتها، والمشيرة إلى أنّ به قوام أعمالها وقضاء نوائبها، نجد من ذلك أدلّة كثيرة تفيدنا كثرتها يقينا بأنّ للمال في نظر الشّريعة حظًّا لا يُستهان به " [475]. وحفظ المال وتوفيره وتنميته يكون بضبط طرق إدارته وتوزيعه والعناية بحفظه في تبادله مع الأمم الأخرى، ونبّه الشّيخ رحمه الله تعالى إلى أنّه من النّادر أن تجد علماء الشّريعة يبحثون في أمر الثّروة وفقهها الذي يسمّى اليوم الاقتصاد (79) ولذلك رأى أن يشبع القول في هذا الغرض الجليل، وعدّد خمسة أمور: فقال:" والمقصد الشّرعي في الأموال كلّها خمسة أمور: رواجها، ووضوحها، وحفظها، وثباتها والعدل فيها "[476]، وحدّد هذه المعاني والمقاصد تحديدا دقيقا وواضحا.

---

[472] هو اسم يطلق على حرب الاسلام في الحقيقة، ويُبدي في ظاهره على توحيد العالم وإخضاعه لقوانين مشتركة، ولكنّه في الحقيقة يعبّر عن مرحلة جديدة من مراحل الهيمنة والتّوسّع والاستعمار الجديد، ووضع حدّ لكلّ أنواع سيادة الشّعوب الضّعيفة.

[473] مقاصد الشّريعة الإسلاميّة. تحقيق محمّد الحبيب ابن خوجة. ط: وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة. 1425هـ - 2004 م دولة قطر. (194/3).

[474] محمّد سليم. دور المقاصد في التّشريعات المعاصرة. مركز دراسات مقاصد الشّريعة الإسلاميّة. (183/3).

[475] ابن عاشور، مقاصد الشّريعة الإسلاميّة. نشر: الشّركة التّونسيّة للتّوزيع. س:1398 هـ - 1978 م. ص 16.

[476] نفسه. ص 175.

و لعلّ الشّيخ هو أوّل من جعل حرّيّة التّصرّف في كتابه " أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام " من مقاصد الشّريعة الإسلاميّة وأصَّل لها، بحيث يتمكّن الفرد من التّصرّف دون معارض في نفسه وماله وسائر شؤونه في ضوء أحكام الشّرع. و قد أفرد لذلك باباً في كتابه تحت عنوان " مدى حرّيّة التّصرّف عند الشّريعة "، فصّل فيه معنى الحرّيّة التي يتشوّف إليها الشّارع، وقد جعلها أربعة وهي: حرّيّة الاعتقادات، و وحرّيّة الأقوال، وحرّيّة الأعمال، وحرّيّة التّصرّف. وأنّ إطلاق كلّ هذه الحرّيّات هو عين ما يحتاجه الاقتصاد المعاصر من أجل تبادل أوسع للمعارف، وكسر احتكار المعلومة، وفتح المجال للتّواصل والتّعبير الحرّ عن الآراء وبالتّالي الاشتراك والاندماج في النّظريّات والإسهامات العلميّة سواء الماليّة أو الاقتصاديّة منها.

المبحث الثّالث

جوانب الاتّفاق والاختلاف بين الشّيخين

إنّ المقارنة العلميّة بين الرّجلين في جهودهما الإصلاحيّة، تفرض مراعاة اختلاف الزّمان والمكان أي البيئة والظّروف الحضاريّة، واختلاف الوضع الثّقافي والاجتماعي والسّياسي، ونوع المواجهة مع " الجاهليّة " التي واجهها كلّ منهما.

كما لابدّ أن نقرّ أنّه لئن لم يكن للشّيخين نفس التّوجّه الفكري، ولا نفس التّصوّر والرّؤية لماهيّة الإصلاح الإسلاميّ في عصر ومكان مختلفين، فإنّهما ـ من خلال ما مرّ من نصوصهما ـ فقد اتّفقا من جهة في مسائل عديدة كما اختلفا أيضا في مسائل مُتعدّدة من جهة أخرى.

أوّلا: أبرز جوانب الاتّفاق:

1 ـ تعظيم الشّريعة والثّقة الكاملة بقدرة الإسلام على تمكين الأمّة من تجاوز حالة التّخلّف والتّأخّر التي وجدتْ نفسها فريسةً لها. فكان الدّين هو الدّافع والمحرّض لهما على ضرورة الإصلاح و إيقاف التّدهور الذي يعيشه المسلمون في جميع المجالات. قال ابن عاشور: " وتعين لتحقيق تنفيذ الشّريعة إيقاع حرمتها في نفوس الأمّة. وإنّ يقين الأمّة بسداد شريعتها تجعل طاعتها منبعثة عن اختيار. وأعظم الشّرائع في يقين أمّتها بسدادها شريعة الإسلام، إذ قامت الأدلّة القاطعة على أنّها معصومة لأنّها مستندة إلى الوحي "[477].

2 ــ تميّزت شخصيّة الرّجلين بإرادة قويّة وفاعلة وثائرة محتسبة، ممّا جعلهما يرفضان الاستسلام للأمر الواقع المناقض للإسلام، فواجهاه بالعقيدة نقدا وإضافة، وقدّما نموذجا إصلاحيّا وتجديديّا لقيادة الأمّة.

---

[477] الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور. مقاصد الشّريعة الإسلاميّة. ص 194. ط: 1. نشر: الشّركة التّونسيّة للتّوزيع. سنة 1978. تونس.

3 ـ أنّهما عالمان كبيران على طِرَازِ المتقدّمين من العلماء بل إمامان في العلم والميدان، ومُجدّدان مناضلان تفاعلا مع القضايا المطروحة في بلادهما يومئذ ـ كما هي اليوم ـ محلّ صراع وجدال كإصلاح التّعليم والحدّ من اختلاف الفقهاء والتّعصّب للرّجال.

4 ـ أنّهما أيضا من روّاد الإصلاح، نشأ الاثنان في بيئة علميّة من عائلة علم ووجاهة ممّا كان له الأثر البالغ العظيم فيهما لردّ الإصلاح كلّه إلى الدّين، ولتحمّل أمانة الاجتهاد والتّجديد، فأصلحا بالطّرُق الشّرعيّة من داخل الإسلام وبوسائله، ولم يصلحا خارج دائرته. لقد فتح الله عليهما بالجمع بين العلم والعمل، وآمنا بضرورة الإصلاح وحتميّته، ونقل واقع الأمّة من حالة التّخلّف والتّأخّر إلى مرحلة النّهوض والتّقدّم والإعمار، بتقويم حياتها بِقيَم الإسلام، كما اتّفقا أنّ إصلاح المجتمع متوقّف على إصلاح الأفراد.

5 ـ أنّ القوادح الدّافعة للإصلاح واحدة، فلقد ترعرع كلّ منهما في أمّة نخر جسمَها التخلّف والاستعمار واحتدّت الصّراعات والأزمات داخلها ومع أعدائها، وتشتّتت شظايا بعد طول وحدة وريادة، وغدت ـ برغم ما تملكه ـ مُداسة المقدّسات، مُحتلّة الأراضي، مهتوكة العرض، متخلّفة على المستويين الإنساني والمادّي، فاقدة كلّ إسهام أو إضافة إيجابيّة للإنسانيّة أو تكاد. وكان من نتيجة كلّ ذلك أن كبرت مسؤوليّتهما تجاه هذه الأمّة. فأجاب كلّ واحد منهما على الأسئلة التي طرحت على الأمّة بإلحاح: لماذا تقدّم الغرب وتأخّر المسلمون؟ أين الخلل؟ هل الخلل في ديننا أم في أنفسنا؟ هل هو في الإسلام أم في المسلمين؟ ما هو الحلّ؟ ما العمل؟ ومن أين نبدأ؟

6 ـ عالج الشّيخان قضايا ألحّت على بيئتهما، فانصبّ جهدهما على الإجابة على تلك التّحدّيات وغيرها، فأجاب ابن عبد الوهّاب على تحدّيات الجزيرة المثخنة بالجهل والخرافة والتّقسيم. كما أجاب ابن عاشور على تحدّيات داخليّة وخارجيّة. أمّا الدّاخليّة: فالجهل والتّخلّف والضّعف العسكري، أمّا الخارجيّة، فتحدّيات الاحتلال واستتباعاته المذلّة. فالمقصود أنّ الشّيخين عالجا تحدّيات مشاكل مجتمعه وحاول أن يصلحها عبر البحث في الأصول التي راعاها الإسلام لبناء نظام مجتمع جديد، وإن كانت هذه المعاني بدت أكثر وضوحا في فكر ابن عاشور، فقد ذكر أنّ الهدف من تأليف كتابه " أصول النّظام

الاجتماعي في الإسلام "،" بيان الأسباب التي أفادت نهوضا ساميا في بادئ أمرهم وما مهّده لهم الدّين القويم من أسباب الرّقيّ وانتشار العمران، ثمّ أتبعه بيان الأسباب التي رجعت بهم عن ذلك التّقدم الباهر ثمّ أعقبها بالبحث عن وسائل إصلاح أحوالهم حتّى يعودوا كما بدؤوا من كمال الارتقاء " [478]. فالمسلمون ارتقوا لما تمسّكوا بالدّين، وتخلّفوا لما تخلّوا عنه، والإصلاح لا بدّ أن يمرّ عبر العودة إلى الدّين والتّمسّك به مجدّدا. وهذا الرّأي من المقولات الثّابتة في فكر الشّيخين. كما قرّر ابن عاشور أنّ سبب تخلّف المسلمين يكمن في العجز العلمي فقال رحمه الله:" ننظر اليوم إلى التّقدّم الباهر الذي ناله أسلافنا في أوّل تدوين العلوم في نهضتهم، وننظر إلى بطء التّقدّم في العصور التي بعد القرن التّاسع (الهجري)، فلا نجد لذلك سببا إلاّ شجاعة الأوّلين وانطلاقهم، لأنّهم غير مسبوقين بما يوثق أفكارهم وأخلاقهم، وجمودنا وإمساكنا ممّا وقر فينا من وجوب المتابعة أبدا " [479].

7 – اشتراكهما في الدّعوة إلى العقيدة الخالصة، هذا وإن كان واضحا ومعلوما لدى ابن عبد الوهّاب فإنّي أُريد أن أُبرز هذا المعنى عند ابن عاشور، لأنّه من أهمّ ما وقع إهماله أو تجاهله أو إخفاؤه في البحوث العديدة التي تناولت فكر الشّيخ، قال رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى:" ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ " [480] : " والظّلم: الاعتداء على حقّ صاحب حقّ، والمراد به هنا إشراك غير الله مع الله في اعتقاد الإلهيّة وفي العبادة، قال تعالى:" إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ " [481] لأنّه أكبر الاعتداء، إذ هو اعتداء على المستحقّ المطلق العظيم، لأنّ من حقّه أن يفرد بالعبادة اعتقاداً وعملاً وقولاً لأنّ ذلك حقّه على مخلوقاته، ففي الحديث الشّريف" حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً [482] "[483]. وقرّر الشّيخ ذلك في أكثر من موقع منها عند تفسيره لقوله تعالى:" فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ "[484] فقال:"

---

[478] بوّب ابن عاشور كتاب أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام إلى قسمين: 1 أصول إصلاح الأفراد. 2- أصول إصلاح المجتمع.

[479] محمّد الطّاهر ابن عاشور. أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام. ط: 2. الشّركة التّونسيّة للتّوزيع والدّار العربيّة للكتاب. تونس. 1397 هـ - 1977م . ص : 5.

[480] الأنعام : 83.

[481] لقمان: 13.

[482] البخاري. شرح ابن حجر العسقلاني. " فتح الباري بشرح صحيح البخاري ". كتاب اللّباس. باب إرداف الرّجل خلف الرّجل. رقم (5967). دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع. بيروت. ط: 1. س: 1415 هـ ـ 1995 م. (11/ 600) ورقم (6500). (13/ 6500).

[483] الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور. التّحرير والتّنوير. الدّار التّونسيّة للنّشر. تونس . 1405 هـ - 1984م. (332/7).

[484] الأنعام : 49.

والمراد بالذين ظلموا المشركون، فإنّ الشّرك أعظم الظّلم، لأنّه اعتداء على حقّ الله تعالى على عباده في أن يعترفوا له بالرّبوبيّة وحده، وأنّ الشّرك يستتبع مظالم عدّة لأنّ أصحاب الشّرك لا يؤمنون بشرع يزع النّاس عن الظّلم "[485].

8 – اشتراكهما في أبرز شرط في عمليّة الإصلاح وهو البناء العقدي الواضح السّليم الذي لا لَبْسَ فيه. لئن كانت كلّ مؤلّفات ابن عبد الوهّاب تركّز بالأساس على مسألة واحدة وهي العقيدة، فإنّ ابن عاشور وضّح أنّه لا إصلاح لمجتمع ولا عمران له إلاّ بالعقيدة، فقال:" وَكَانَ إِصْلَاحُ الِاعْتِقَادِ أَهَمَّ مَا ابْتَدَأَ بِهِ الْإِسْلَامُ، وَأَكْثَرَ مَا تَعَرَّضَ لَهُ; وَذَلِكَ لِأَنَّ إِصْلَاحَ الْفِكْرَةِ هُوَ مَبْدَأُ كُلِّ إِصْلَاحٍ; وَلِأَنَّهُ لَا يُرْجَى صَلَاحٌ لِقَوْمٍ تَلَطَّخَتْ عُقُولُهُمْ بِالْعَقَائِدِ الضَّالَّةِ، وَخَسِئَتْ نُفُوسُهُمْ بِآثَارِ تِلْكَ الْعَقَائِدِ الْمُثِيرَةِ، خَوْفًا مِنْ لَا شَيْءٍ، وَطَمَعًا فِي غَيْرِ شَيْءٍ. وَإِذَا صَلُحَ الِاعْتِقَادُ أَمْكَنَ صَلَاحُ الْبَاقِي; لِأَنَّ الْمَرْءَ إِنْسَانٌ بِرُوحِهِ لَا بِجِسْمِهِ"[486]، وقال أيضًا:" والمراد: المماثلة في أصول الدّين ممّا يجب لله تعالى من الصّفات، وفي أصول الشّريعة من كلّيّات التّشريع، وأعظمُها توحيدُ الله، ثمّ ما بعده من الكلّيّات الخمس الضّروريات، ثمّ الحاجيّات التي لا يستقيم نظام البشر بدونها "[487]. وقال:"حفظ الأصل الأصيل للشّريعة أهمّ من حفظ الأصول المتفرّعة عليه، لأنّ مصلحة صلاح الاعتقاد هي أمّ المصالح التي بها صلاح الاجتماع، كما بيّنّاه في كتاب " أصول نظام الاجتماع الإسلامي "[488]. وهذا الذي ذكره ابن عاشور وجدتُ ما يشبهه تماما عند ابن عبد الوهّاب. ففي كتابه " التّوحيد " والشّيخ يستخرج مسائل من حديث بعث الرّسول صلّى الله عليه وسلّم معاذ بن جبل إلى اليمن، فقال: باب" الدّعاء إلى شهادة أن لا إله إلاّ الله "، فكان ممّا قال: المسألة السّادسة ـ وهي من أهمّها ـ إبعاد المسلم عن المشركين لئلاّ يصير منهم ولو لم يشرك "[489].

9 – كلّ منهما أعلن أنّه لا حياة للأمّة ولا نجاة لها إلاّ بعاملين اثنين: أحدهما تحقيق

---

[485] الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور. التّحرير والتّنوير. الدّار التّونسيّة للنّشر. تونس . 1405 هـ - 1984م. (331/7).
[486] الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور. التّحرير والتّنوير. (3/ 194). ط: الدّار التّونسيّة للنّشر. س:1404 هـ - 1984 م.
[487] الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور. التّحرير والتّنوير (50/25). الدّار التّونسيّة للنّشر س: 1984.
[488] الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور. التّحرير والتّنوير. دار سحنون للنّشر والتّوزيع. تونس .1418 هـ - 1997م. ص: (318 – 319).
[489] مجموعة التّوحيد النّجديّة. ط: 2. 1419 هـ - 1999 م. مكتبة الملك فهد الوطنيّة. الرّياض. ص 26.

" التّوحيد " أي العبوديّة الكاملة لله بمعانيها الثّلاثة: (النّسك والحاكميّة والولاء والبراء) وهو معنى الإسلام وحقيقة الإيمان، الذي طمسته عوامل عصور الانحطاط. وثانيهما: اجتماع الأمّة وتوحّدها، وأنّه لا بدّ من العودة إلى التّوحيد و إلى الاجتماع.

10- توافق الشّيخين في مسألة التّعبّد بالدّليل: اشترك الشّيخان في ضبط الاستدلال في مسائل العقيدة خاصة على الدّليل الشّرعي، قال الشّيخ ابن عبد الوهّاب في الأصول الثّلاثة: " اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِلَ، وذكر منها: المسألة الأُولَى: الْعِلْمُ: وَهُوَ مَعْرِفَةُ اللهِ، وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بالأَدِلَّةِ "[490].

أمّا ابن عاشور فقد قال:" إنّ الإسلام لم يسلك بالمسلمين في دعوته مسلك الأمر الملجئ بل دعاهم إلى صحّة الاعتقاد وإلى دليله"[491]. وقال أيضا:"ومن أجل ما قارن به القرآن العقائد الحقّة من الأدلّة، وما قارن به العقائد الباطلة من الرّدود، وما فهمه المسلمون من مقصده في ذلك، حدث بين علماء الأمّة في القرن الثّاني الخلاف في صحّة إيمان المقلّد البحت وعن الأشعري لا يصحّ إيمان المقلّد " [492].

11- بالرّغم من انخراط الشّيخين في العمل الحكومي لتطبيق أفكارهما الإصلاحيّة، إلاّ أنّهما حافظا على الاستقلال الفكري لرجال العلم المحترمين، وبقيا على الحياد الحزبي والولاء للسّلطان، وتجلّى هذا أكثر عند الشّيخ ابن عاشور، الذي حرص على قدر من حياد سياسي صعب، لآشتباكه مع واقع سياسي مستهدف للإسلام وعلمائه. فمع ما عرف عليه ابن عاشور من اعتدال، إلاّ أنّه كان شجاعا في إبداء آرائه وصلبا في مواقفه، ومن ذلك إعلانه موقفا صريحا قويّا في مسألة صوم رمضان التي أثيرت في بداية السّتّينات، فأحيل إلى التّقاعد و لزم بيته. وهذا ما جلب له الاحترام والإمامة في الدّين.

---

[490] محمّد بن عبد الوهاب. الأصول الثّلاثة. شرح محمّد بن صالح العثيمين. نشر: دار الإيمان. الاسكندريّة. مصر. 1422 هـ - 2001 م. من (19 إلى 25).

[491] أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام. ط: 3. نشر مشترك: دار سحنون للنّشر والتّوزيع و دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة. تونس. س:1431 هـ - 2010 م. تونس. ص 50.

[492] نفس المصدر. ص 50.

12 – اعتمد الشّيخان على سلاح النّقد الصّارم واعتباره ميزانا علمياً موضوعيّا: فإذا ذهب ابن عبد الوهّاب إلى أنّ توحيد مشركي زمانه ساوى شرك العرب زمن بعثة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، بل اعتبر شرك الأوّلين أخفّ من شرك زمانه لأمرين كما مرّ سابقا، فقد نقد ابن عاشور الذين سبقوه في سائر العلوم: تفسيرا وفقها وأصول فقه وتعليما، بل حتّى في مسائل من عقائد الأشاعرة. وحديثه عن المدينة الفاضلة إذ أورد أقوالا ونقولا كثيرة عن هرمس[493] والحكيم سولون (638 ق.م – 558 ق.م) [494] وديجينيوس [495] من فرقة السّاخرين، وبيتا قوس الحكيم وأفلاطون وغيرهم من الفلاسفة والحكماء وأهل العرفان، ممّن فشلوا في تحقيق المدينة الفاضلة التي نظروا لها وتخيّلوها. ولكن حقّقها النّبيّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم بنظره، في المدينة المنوّرة. وهذا مثال على ثقافته الواسعة وإطّلاعه على تراث اليونان القديم " [496].

13– اتّفق الإمامان على مسألة المؤسّسات: بمعنى أنّ الإصلاح الدّيني لا يمكن أن يتحقّق بمجرّد عمل هداية النّاس وتصحيح عقيدتهم وتصفيتها، وإرجاعهم إلى جادّة الصّواب فحسب، بل لا بدّ من بناء مؤسّسات قويّة تساهم في تحقيق تلك الأهداف في الأرض، كالتّعليم والقضاء والفتيا عند ابن عاشور، ومن حكم وإمارة عند ابن عبد الوهّاب، وإن برز التّركيز على الهيكلة للإصلاح أكثر وأجلى وضوحا عند ابن عاشور. فحين تتأمّل في معنى قوله في عنوان كتابه الإصلاحي في التّعليم " أليس الصّبح بقريب؟ "، وهو في ريعان شبابه أنّ التّعليم هو الرّكيزة الأهمّ في بناء المجتمع، وأنّه لا يشرق صباحه إلاّ بالمؤسّسة التّعليمية، وأنّ الطّوفان الجارف القادم من أوروبا لا يمكن مقاومته إلاّ بمؤسّسات العلم والفكر، ولا شكّ أنّ الرّجل يتابع ما تفعله فرنسا من بناء مدارس غربيّة وإجبار تعليم أبنائها. وهذا يكشف عن عمق تفكيره الاستراتيجيّ، وهو يرسم معالم طريق خلاص الأمّة

---

[493] فيلسوف يوناني، اعتقد الأقدمون من اليونانيين أن النبي إدريس هو هرمس، عُرف ب: " ثلاثي التّعليم " لأنّه كان يصف الله بثلاث صفات ذاتيّة هي الوجود والحكمة والحياة. انظر الى معجم الفلاسفة. جورج طرابيشي. ط: 1 . دار الطّليعة. بيروت. ص 648.

[494] شاعر ورجل قانون أثيني قام بسن مجموعة من القوانين الإصلاحيّة والتي تعارضت مع نظام الدّولة المتّبع آنذاك ورغم أن إصلاحاته فشلت فيما بعد، إلاّ أنّه يعتبر الممهّد لقيام ما تمّ تسميته لاحقا بالنّظام الأثيني الدّيمقراطي. بتصرّف من موقع العمامة، وهو مجلّة ثقافيّة اجتماعيّة أدبيّة مصوّرة تُعنى بشؤون الطّائفة الدّرزيّة.
http://www.al-amama.com/index.php?option=com_content&task=view&id=260

[495] فيلسوف يوناني.

[496] محمّد همام. نقد مفهوم الحرّيّة في الفكر الإسلامي، الطّاهر ابن عاشور نموذجا. موقع الفكر المعاصر:
http://afkarmoassira.com/news26.html#_ftn25

وقد ألّف كتابه ذاك في سنة 1910 وخرّجه سنة 1956، كما يكشف أيضا عن عمق وعي الشّيخ بوضع البلاد ودقّة المرحلة، وكيف يُنبّهنا إلى ترسيخ التّوحيد في العقول والأفهام أوّلا حتّى يتحقّق في الأرض تبعًا.

14 – أنّهما حاربا الشّرك وأشكاله، والكفر وضروبه، فحبّب الشّيخان المسلمين في السّنّة ورغّبا في التّمسك بها، وحذّرا من البدعة ونفّرا منها، كما شنّعا على المبتدعة وأهل الضّلال، وَنَقَضَا أصول الزّنادقة، وبيّنا أمر من فسدت معتقداتهم، وإن كان هذا أظهر في مؤلّفات الإمام محمّد بن عبد الوهّاب، إلاّ أنّ الإمام محمّد الطّاهر بن عاشور أيضا تعرّض في تفسيره خاصّة إلى هذه المسائل، وقد بيّنا من قبل موقفه من الرّافضة والقبوريّين والصّوفيّة المنحرفة وغيرهم.

15– العلم والتّواصي بالحقّ: قال الشّيخ ابن عبد الوهّاب:" اعلم رحمك الله أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل: الأولى: العلم، وهو معرفة الله، ومعرفة نبيّه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلّة. الثّانية: العمل به. الثّالثة: الدّعوة إليه. الرّابعة: الصّبر على الأذى فيه. والدّليل قوله تعالى بسم الله الرّحمن الرّحيم: (وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)[492]" [493]. أمّا الشّيخ ابن عاشور فقد قال:" هذا ما عرض لنا ممّا يتأكّد رعيه في إصلاح الحالة العلميّة التي يحفظ بها قوام حياتنا القوميّة وبقاء مميّزاتنا، وتلك آراء أوْضحتها لنا التّجربة وما تخلّصناه من الاستقراء لأحوال العلم وأهله، ولعلّ الله تعالى يمنح هاته الطّائفة المباركة روحا من عنده تجمع كلمتهم على رأب ثأي التّعليم، ولمّ شعثهم لمقاومة الخطر العظيم، وعساه أن يوقظ أعين أولي الأمر منهم إلى دعوة صالحة ويُلقي إليهم كلمة رابحة تحشر إليهم طوائف العلم فتلتفّ حواليهم وتصغي قلوبهم وأسماعهم إليهم ألا وهي كلمة التّواصي بالحقّ التي أهملها ناس كثير فهم بإهمالها يعذّبون وما يعذّبون في كبير"[494]. وقال أيضا:" النّهوض بأعباء الأمانة التي وكّلت إليهم وهي أمانة

---

[492] العصر:1- 3.

[493] محمّد بن عبد الوهّاب. الأصول الثّلاثة. شرح محمّد بن صالح العثيمين. نشر: دار الإيمان. الاسكندريّة. مصر. 1422 هـ - 2001 م. من (19 إلى 25).

[494] الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور. أليس الصّبح بقريب؟ نشر مشترك. دار سحنون للنّشر والتّوزيع. دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة. ط 3 1431 هـ - 2010 م. ص 215.

إصلاح التّفكير وإعلان الحقّ بين النّاس"[495].

16 – الشّيخان سلفيّان من جوانب عديدة، من أبرزها:

ـ أوّلا: تركيزهما على التّوحيد، قال ابن عاشور:" والمراد: المماثلة في أصول الدّين مما يجب لله تعالى من الصّفات، وفي أصول الشّريعة من كلّيّات التّشريع، وأعظمُها توحيدُ الله، ثمّ ما بعده من الكلّيّات الخمس الضّروريات ، ثمّ الحاجيّات التي لا يستقيم نظام البشر بدونها "[496].

ـ ثانيا: انتماؤهما لمذهبين من مذاهب أهل السّنّة، قال ابن عاشور يُبيّن سلفيّة المالكيّة:" فانشقّت الأمّة تفاريق العصا وكانوا على أربع طرائق الطّريقة الأولى التي رفضت البحث والفلسفة وتمسّكت بظواهر الشّريعة، وفي هاته الفرقة كثير من السّلف منهم المالكيّة والحنابلة والظّاهريّة " [497]. وقال يُبيّن هدفه الأساس:" وإنّ قوام عملنا هو تثقيف النّشأة الزّيتونيّة بعلوم شريعتها ولغتها وما ينير لها الطّريق في مسيرها بين الأمم وتمدّنها، حتّى نراها تناغي سلفا ماجدا مضى، وتسابق معاصرين سبقًا مرتضى ". [498] أمّا عن سلفيّة ابن عبد الوهّاب فهذه أشهر من أن نستدلّ عليها.

ـ ثالثا: اتّفاقهما في تفسير سبب تخلّف المسلمين وسقوطهم، وبيان أسباب نهوضهم، فردّاه إلى عامل واحد وهو الانحراف عن الإسلام عقيدة وتربية وشريعة، وبحكم اشتراكهما أيضا أنّه لا إصلاح للفرد والمجتمع إلاّ بذلك، فكلاهما دعا إلى العودة إلى الإسلام الصّافي باعتبار أنّه " الحلّ " وأنّه ينقل المسلمين من حالة الانحطاط إلى النّهضة الشاملة، وأنّ الإسلام قادر على مواجهة المشكلات التي طرحه العصر.

إلاّ أنّ كلّ واحد منهما فعّل ذلك الحلّ حسب احتياجات مجتمعه وذهنيّته وجغرافيّته ومناخه الاجتماعي. فكانت حركة إصلاح وتأصيل للتّفكير الاجتماعي والأصولي في

---

[495] الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور. أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام. نشر مشترك: دار سحنون للنّشر والتّوزيع. دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة. ط: 3 . سنة 1431 هـ - 2010 م. تونس. ص 25.

[496] الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور. التّحرير والتّنوير (50/25). الدّار التّونسيّة للنّشر س: 1984.

[497] المجلّة الزّيتونيّة. (490/6).

[498] الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور. أليس الصّبح بقريب؟ نشر مشترك. دار سحنون للنّشر والتّوزيع. دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة. ط: 3. 1431 هـ - 2010 م. ص 183.

بناء لمقاصد الشّريعة عبر قراءة مزدوجة للنّصّ: قراءة لغويّة وقراءة مقاصديّة عند الإمام محمّد الطّاهر. وحركة تحرير الدّين من الأساطير والوسطاء وهدم لخرافات الاعتقاد في الأموات ورفض للدّخيل الثّقافي واستقلال سياسي عند الإمام ابن عبد الوهّاب.

فالمقصود أنّ الشّيخين ينتميان إلى مدرسة واحدة هي المدرسة الإصلاحيّة السّنّيّة السّلفيّة، بحكم وحدة مرجعيّتهما السّنّيّة، وبحكم إصرارهما على حتميّة التّسليم للشّريعة، والتّخلّص من ثقافة الخرافة ونقض " الجاهليّة "، إلاّ أنّ ابن عاشور ظلّ أشعريّا ناقدا، وبقي مالكيّا غير متعصّب لمذهبه، نأى بعقله عن الآراء الشّاذّة، يُجِلّ السّلف، ولا يُهمل كلّ فكر جديد نيّر.

لقد اشتغل كلّ واحد منهما واهتمّ بشعبة من شعب السّلفيّة وركّز عليها، فمال ابن عبد الوهّاب إلى فرض التّاريخ على الواقع، أي قلب المعادلة التّاريخيّة عبر تنزيل سنن السّابقين حذو القُذّة بالقُذّة. أمّا ابن عاشور ـ وإن كان الحلّ عنده هو النّموذج النّبويّ ـ إلاّ أنّه مال إلى اجتهاد في تنزيل ذلك النّموذج. لقد وقف ابن عبد الوهّاب عند حدود مرسومة معيّنة سلفا، وتفاعل ابن عاشور مع واقع شديد التّعقيد، فحاول أن يجمع بين الاجتهاد والتّأصيل.

17 – توجّه كلّ منهما إلى تحرير العقل وتفعليه في أمانة الاستخلاف، إذ هو عندهما موطن الإدراك والوعي والتّكليف والحرّيّة والمسؤوليّة والعدالة والمساواة والتّسامح والحوار، وكلاهما آمن أنّه لا رقيّ و لا حضارة دون تخليص العقل من التّقليد والعطالة وانخراطه في الفعل والإنتاج، ولا أدلّ على ذلك من أوّل صرخة إلاهيّة على الوضع الوثني الجاهلي عندما كان أوّل ما نزل:" اِقْرَأْ ". ومن هنا يقرّر ابن عاشور أنّ " إصلاح عقل الإنسان هو أساس إصلاح جميع خصاله ويجيء بعده الاشتغال بإصلاح أعماله وعلى هذين الإصلاحين مدار قوانين المجتمع الإسلامي " [499].

لقد قرّر الشّيخان أنّ كلّ إصلاح سياسي أو اجتماعي لا بدّ أن يمرّ عبر العقل ابتداء، وأنّ هذا العقل لا يتحرّر إلاّ بالعقيدة الصّافية، والعودة إلى النّصّ (الوحي)، ولم يقصدا به العودة

[499] ابن عاشور. أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام. ط: 3. نشر مشترك دار سحنون للنّشر والتّوزيع. دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة. تونس. س: 1431 هـ - 2010 م. تونس. ص41.

إلى الكتاب والسّنّة فحسب، ولكن قصدا به أيضا تخطّي المذهبيّة المتراكمة عبر القرون وفتح باب الاجتهاد.

18 – خاصّية مشتركة في ذهنيّة الشّيخين في اختيارهما لعمليّة الإصلاح في توجّههما إلى الأمّة بردّ الثّقة الكاملة لها في الإسلام أنّه النّظام الوحيد الصّالح للحلّ والعلاج. غير أنّ ابن عبد الوهّاب

ساعده الحظّ حيث جاءته السّلطة عبر زوجة الأمير محمّد بن سعود، وهو ما يكشف أيضا الدّور البارز والمهمّ الذي يمكن أن تقوم به المرأة في عمليّة الإصلاح، كما لعبته في الحجاز والجزيرة العربيّة، كما يبرز من جهة أخرى أنّ الإصلاح لا بدّ له من أمر سلطاني كما يقول محمّد بيرم الخامس:" الاستقامة بدون ملك أمر وهميّ إذ إقامة الملك أمر طبيعي لا يمكن الاستقامة بدونه... فلا مندوحة... من الإقرار بوجوب الملك والانقياد إليه "[500]. فقوّة السّلطان سلاح حيويّ لوضع الأديان، وتفعيل القرآن، وحماية الأوطان، وتثبيت كرامة الإنسان، وما أصدق قولة عثمان بن عفّان رضي الله عنه:" إنّ الله يزع بالسّلطان ما لا يزع بالقرآن "[501]. أمّا ابن عاشور فقد عانى من خصومات مريرة

شرسة وكذلك من قصور حركي أثّرا سلبا على انتشار دعوته وتوسّعها.

فالخلاصة أنّ دعوة الإمامين بحكم أخذهما من نفس المشكاة، فإنّ حركتهما لم تختلف في أمور أربعة:

أوّلها بيان أنّ علّة الهزائم التي تعاقبت على المسلمين تكمن في ترك الدّين لا في الدّين نفسه.

ثانيها أنّ الحلّ هو في العودة إلى منهج السّلف الصّالح في جوهره ولبابه.

ثالثها اتّفاق الشّيخين في ضبط مدلول التّوحيد في معانيه الثّلاثة نُسُكا وحُكْما وولاء.

رابعها أنّ الإصلاح لا بدّ أن يتشارك فيه رجال الحكم مع رجال العلم، وهذا وإن

---

[500] محمّد بيرم الخامس التّونسي. صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار. ط: 1 . المطبعة الإعلاميّة بمصر - دار صادر بيروت. س: 1302 هـ - 1881م. (162/3).

[501] مجموع فتاوى ابن تيمية. تحقيق: عبد الرّحمن بن محمّد بن قاسم. النّاشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشّريف. س: 1416هـ - 1995م. المدينة النّبويّة. (395/11).

تحقّق هذا الأمر مع ابن عبد الوهّاب في الجزيرة، فهو نفس منهج ابن عاشور تماما، حيث دعا السّياسيَّ أن يسير بأحكام أهل العلم.

ثانيا: أبرز جوانب الاختلاف بين الشّيخين:

إنّه بقدر ما يلتقي الشّيخان في أشياء كثيرة إلاّ أنّ مسألة واحدة سيطرت على اهتمامات ابن عبد الوهّاب، وكانت شديدة الوضوح لديه وهي أنّ الالتزام بالعقيدة الصّحيحة هو السّبيل الوحيد للإصلاح، في حين أنّ مسائل كثيرة كانت شديدة الوضوح لدى ابن عاشور فضلا عن العقيدة، وهي التّجديد في سائر المعارف العربيّة والإسلاميّة.

لقد سيطر عمل ابن عبد الوهّاب الإصلاحي على تخليص العقيدة من الشّرك ومظاهره وحصر اهتمامه بتطبيق " النّموذج النّبويّ " الذي سمّاه الدّكتور علي الصّولي: " تقليد الأصل " الذي سيحقّق هويّة المسلم القائمة على مطابقته" الإسلام – الأصل " [502].

اختلف الشّيخان في مفاصل منحى الإصلاح نظرا لآختلاف مصادر تكوينهما وأيضَا لوجود سياق تاريخي وبيئي وحضاري متباين، وكذلك لأنّ الوضع السّياسي والفكري والاجتماعي بين الجزيرة وبين تونس كان مختلفا، إذ كان لكلّ قطر خصوصيّات دقيقة معيّنة، فتونس كان وضعها السّياسي والفكري معقّدين، كما تعوّد علماؤها على بيئة محافظة غير صداميّة، أضف إلى ذلك وجود تجارب إصلاحيّة تونسيّة سابقة باءت بالفشل، ثمّ إنّ وجود المحتلّ المباشر في تونس فرض اختلافا كبيرا في تناول الشّيخين لعمليّة الإصلاح. إنّه لئن حضرت قضيّة التّوحيد بشكل قويّ في صرامة علميّة حادّة لدى الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب في كلّ أعماله، بحكم مصدره المعرفيّ الوحيد (السّلفي)، فقد كان لتعدّد وتنوّع مصادر معارف آبن عاشور رافدا ضخما لآكتسابه ثقافية موسوعيّة رشّحته للخوض في غمار الإصلاح في كلّ مجالاته: التّعليميّة والاجتماعيّة والسّياسيّة، ومكّنته من الاجتهاد في مسائل الشّريعة دون معارضة لحداثة العصر. إلاّ أنّ هواجس كثيرة لم تفارق ابن عاشور كانت بدورها تمثّل نقاط افتراق بينه وبين ابن عبد الوهّاب لعلّ أهمّها:

---

[502] الصّولي علي. " الدّين والدّولة والمجتمع في مواقف وآثار محمّد بيرم الخامس". ط: 1. دار الطّليعة الجديدة. دمشق.س:1424 هـ - 2003 م. ص: 403.

أ ـ وضوح الرّؤية الحضاريّة في فكر ابن عاشور: وقد ساعده على ذلك: اطّلاعه الواسع على الحركة الفكريّة السّبّاقة للنّخب التّونسيّة منذ المنتصف الثّاني للقرن التّاسع عشر، إن لم أقل منذ النّصف الثّاني للقرن الرّابع عشر ميلادي، أي عهد ابن خلدون (1332 - 1382 ميلاديّة)، ثمّ اطّلاعه على تجارب الغرب.

بـ ـ وعي ابن عاشور الكبير بأنّ الإصلاح لا يكون إلاّ عبر إصلاح فكر الإنسان: قال رحمه الله تعالى:" كانوا أهلا للنّهوض بأعباء الأمانة التي وُكّلت إليهم وهي أمانة إصلاح التّفكير وإعلان الحقّ بين النّاس" [503]. وقال أيضا:" فأعماله ـ يقصد الإنسان ـ جارية في الصّلاح والفساد على حسب تفكيره " [504].

ت ـ تركيز ابن عاشور على أنّ الإصلاح العام لا يكون إلاّ في توافق تامّ بين رجل الحكم وأهل العلم، قال الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور رحمه الله تعالى:" هذا ما عرض لنا ممّا يتأكّد رعيه في إصلاح الحالة العلميّة التي يحفظ بها قوام حياتنا القوميّة وبقاء مميّزاتنا، وتلك آراء أوْضحتها لنا التّجربة وما تخلّصناه من الاستقراء لأحوال العلم وأهله، ولعلّ الله تعالى يمنح هاته الطّائفة المباركة روحا من عنده تجمع كلمتهم على رأب ثأي التّعليم، ولمّ شعثهم لمقاومة الخطر العظيم، وعساه أن يوقظ أعين أولي الأمر منهم إلى دعوة صالحة ويُلقي إليهم كلمة رابحة تحشر إليهم طوائف العلم فتلتف حواليهم وتصغي قلوبهم وأسماعهم إليهم ألا وهي كلمة التّواصي بالحقّ التي أهملها ناس كثير فهم بإهمالها يعذّبون وما يعذّبون في كبير " [505].

ث ـ وضع الإنسان "المركز" ودوره الإستخلافي عبر تحقيق قيمة الحرّيّة باعتبارها مطلبا مركزيّا في تنمية الإنسان وتحقيق رسالته الإستخلافيّة، وهذه المسألة لئن طرحت في فكر ابن عاشور بشكل قويّ ومعمّق، فإنّها لم تطرح بشكل جليّ في فكر ابن عبد الوهّاب،

---

[503] أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام. نشر مشترك دار سحنون للنّشر والتّوزيع. دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة. ط . 3. سنة 1431 هـ - 2010 م. تونس. ص25.

[504] نفسه. ص 47.

[505] الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور. أليس الصّبح بقريب؟ نشر مشترك. دار سحنون للنّشر والتّوزيع. دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة. ط: 3 . س: 1431 هـ - 2010 م. ص 215.

ولعلّ مخالطة ابن عاشور لمقاصد الشّريعة هو الذي ضخّم هذا الجانب عنده، فانتهى به اليقين أنّ القاعدة الكلّيّة للمقصد الأعظم من وضع الشّريعة هو جلب المصالح ودرء المفاسد بإصلاح وضع الإنسان ودفع فساده، وإصلاح العالم وأحواله، وكذلك احتكاكه المباشر بالفكر الغربي هو الذي قوّى فيه هذا الاهتمام [506].

ج ــ العالميّة في فكره: إصلاح نظام العالم: المراد من مقاصد الشّريعة في المقام الأوّل " إصلاح نظام العالم، بإصلاح المهيمن عليه وهو نوع الإنسان، ويشمل صلاحه، صلاح عقله وصلاح عمله وصلاح ما بين يديه من موجودات العالم الذي يعيش فيه "[507].

ح ـ البعد الاستراتيجي في فكر الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور: ويظهر ذلك في هذه المسائل:

ـ في قوله وهو يشرح قوله تعالى:" رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا " [508]، وفي كلام نوح عليه السّلام دلالة على أنّ المصلحين يهتمّون بإصلاح جيلهم الحاضر، ولا يهملون تأسيس أسس إصلاح الأجيال الآتية، إذ الأجيال كلّها سواء في نظرهم الإصلاحي، وقد انتزع عمر بن الخطّاب من قوله تعالى:(وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ)[509]. دليلاً على إبقاء أرض سواد العراق غير مقسومة بين الجيش الذي فتح العراق، وجعلها خراجاً لأهلها؛ قصداً لدوام الرّزق منها لمن سيجيء من المسلمين " [510].

وفي تأليفه لكتابه " أليس الصّبح بقريب ؟ " نظر ثاقب للمستقبل ولم يخرجه إلاّ في الوقت المناسب. فلقد ألّفه قبل سنة 1905 ونشره سنة 1967 وعلّل ذلك بقوله:" لم أتمكّن من إبراز هاته الآراء التي كنت أمليتها، ونشر الأوراق التي خشيت عليها عواصف الأهواء

---

506) راجع أعلاه: إصلاح ابن عاشور على المستوى السّياسي. ص: 164

507) محمّد الطّاهر ابن عاشور. مقاصد الشّريعة الإسلاميّة. ط: 1. س: 1978. الشّركة التّونسيّة للتّوزيع. تونس. ص 63.

508) نوح 30.

509) الحشر 10.

510) الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور. التّحرير والتّنوير. ط: الدّار التّونسيّة للنّشر س: 1984.(29/ 1990).

فطويتها "[511].

وكذلك في تقسيمه للمقاصد: فجعلها قسمين: أوّلا: « المقاصد القريبة » وهي الكلّيّات الخمس مع تفعيلها وتوسيعها. ثانيا: « المقاصد العالية »، وهي الموازنات بين المصالح والمفاسد، وهذا في مجال المسكوت عنه أو الاجتهاد فيما لا نصّ فيه ولا نظير يقاس عليه. وهذه كلّها طرق لاستمداد الحكم التّفصيلي الذي يتعلّق بكلّ فعل.

قلت: لعلّ من أبرز من قدح المنحى الاستراتيجي في فكر الشّيخ بجانب فقه في الدّين، ما عثرت عليه عند أحمد ابن أبي الضّياف الذي يرى أنّ من أعظم أسباب قوّة الغرب التّخطيط البعيد المدى حين قال:" يصرفون الأموال لفائدة يمكن حصولها بعد سنين... ثمّ يقول: " هذا من أعظم أسباب العمران والثّروة " [512]

خ ـ حضور فقه المقاصد بشكل واضح وبروز مصلحة الأمّة في فكر ابن عاشور: لقد حضرت مسألة الأمّة في رأس أولويّات الاهتمامات عند الشّيخ بقوّة من خلال مراعاة مصالحها والبحث في صلاح أحوالها في نظام المعاملات المدنيّة وغيرها، وهو ما يعبّر عنه " بجلب المصلحة ودرء المفسدة "، و" لحفظ نظام العالم وإصلاح المجتمع "[513]، ولقد بدا ذلك جليّا و تمظهر في:

ـ التّشريع لمقصد نظام الأمّة: يقرّر شيخنا أنّه لا يسود النّظام والأمن الأمّة إلاّ بإنفاذ الشّريعة:" أهمّ مقصد للشّريعة من التّشريع انتظام أمر الأمّة، وجلب المصالح ودفع الضّرر والفساد عنها "[514]. وينتقد الشّيخ موقف الفقهاء الذين اهتمّوا بصلاح الفرد أكثر من صلاح الأمّة فقال:"إصلاح أحوال الجماعة وانتظام أمر جامعتها أسمى وأعظم " [515].

ـ الاجتهاد من أجل تحقيق مصالح للأمّة: " طريق المصالح أوسع طريق يسلكه الفقيه في تدبير الأمّة عند نوازلها ونوائبها إذا التبست عليه المسالك، وأنّه إن لم يتبع هذا

---

511) محمّد الطّاهر ابن عاشور. أليس الصّبح بقريب؟ ط: 3. س: 1431 هـ ـ 2010 م. نشر مشترك دار سحنون للنّشر والتّوزيع. دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة. تونس. ص: 13.

[512] أحمد ابن أبي الضّياف. إتحاف أهل الزّمان بأخبار تونس وعهد الأمان. " دولة أحمد باي ". تحقيق أحمد عبد السّلام. منشورات الجامعة التّونسيّة. تونس. 1391 هـ - 1971 م. (6 /116).

[513] مقاصد الشّريعة الإسلاميّة. تحقيق محمّد الحبيب ابن خوجة. ط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة. 1425هـ - 2004 م. قطر. (3 /28).

[514] نفس المصدر. (3/391).

[515] نفسه.

المسلك الواضح والمحجّة البيضاء فقد عطّل الإسلام عن أن يكون دينا عامّا وباقيا "[516].

ـ الحدود الشّرعيّة من زواجر وعقوبات لصالح الأمّة وصلاحها: " فما ما نزلت الحدود الشّرعيّة إلاّ لإصلاح حال النّاس وهذا لصالح الأمّة، وأنّ أكبر مقاصد الشّريعة حفظ نظام الأمّة، وليس يحفظ نظامها إلاّ بسدّ ثلمات الهرج والفتن والاعتداء، وأنّ ذلك لا يكون واقعا موقعه إلاّ إذا تولّته الشّريعة، ونفّذته الحكومة وإلاّ لم يزد النّاس بدفع الشّرّ إلاّ شرّا " [517].

ـ الرّحمة بالأمّة: من خلال تنبّهه إلى ما يعرض للأمّة أو طائفة منها للاضطرار، فتستدعي الانتقال من العزيمة إلى الرّخصة المؤقّتة تنتهي بانتهاء ضرورتها لتحقيق مقصد شرعي مثل سلامة الأمّة، وإبقاء قوّتها أو نحو ذلك ..." [518].

د ـ بروز فكر المؤسّسة وتضخّمه لدى الشّيخ ابن عاشور: وهو من أبرز نقاط الفوارق بينه وبين ابن عبد الوهّاب مسألة المؤسّسات سواء كانت مؤسّسات اجتماعيّة أم قانونيّة أو سلطانيّة، إذ نبّه رحمه الله تعالى إلى وجوب تخطيط نظم المجتمع الإسلامي. وكذا بدعوته إلى وضع قوانين متعلّقة بالإصلاح الاجتماعي وجعلها الغرض الأسمى للإسلام. فقد ورد مصطلح قوانين مرارا في كتبه منها:" ... فلم يكن بدّ لشريعة الإصلاح من وضع قوانين زائدة على قوانين إصلاح الأفراد "[519]، وأيضا:" هذه النّظم (نظم المجتمع الإسلامي) ترتوي إلى فنّين أصليّين: الفنّ الأوّل فنّ القوانين الضّابطة لتصرّفات النّاس في معاملاتهم، والفنّ الثّاني: فنّ القوانين التي بها رعاية الأمّة في مرابع الكمال، والذّود عنها أسباب الاختلال " [520]. كما نبّه رحمه الله تعالى إلى أنّه لئن كان للوازع الدّيني أثره الفعّال في حياة الفرد والجماعة، بجانب الوازع الفطري، فإنّه أيضا يجب تقوية الوازع السّلطاني ليتدخّل في حسم الخلل الإيماني توقّيا للفوضى التي تحصل إذا أهمل ولاّة الأمور تنفيذ القانون

---

[516] مقاصد الشّريعة الإسلاميّة. تحقيق محمّد الحبيب ابن خوجة. ط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة. 1425هـ - 2004 م. قطر (257/3).
[517] المرجع السّابق. (549/3).
[518] نفسه. (358/3).
[519] ابن عاشور محمّد الطّاهر. أصول النّظام الاجتماعي ط: 1. س: 1422 هـ - 2001 م . دار النّفاس. عمّان. الأردن. ص 76.
[520] ابن عاشور محمّد الطّاهر . أصول النّظام الإجتماعي في الإسلام. نشر مشترك دار سحنون للنّشر والتّوزيع. دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة. ط: 3. سنة 1431 هـ - 2010 م. تونس. ص 115.

باستعمال السّلطة الرّادعة، وهذا المعنى تجده مبثوثا بشكل واضح في كتابه " أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام " طبقا للآية:" لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبَيِّانَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بالقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنّاَسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلُهُ بِالْغَيَبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ" [521].

هذا وينبغي أن نقرّر أنّه لئن كان الشّيخ قد اقتبس فكر المؤسّسة من غير المسلمين بما يتوافق مع الدّين ويخدمه إلاّ أنّه لا بدّ أن نسجّل أيضا أنّ ابن عاشور قد تأثّر بالسّبق التّحديثي الواسع النّطاق الذي قام به العثمانيّون في مرحلة ما يسمّى بـ " التّنظيمات " التي بدأت سنة 1840 ميلادي. وهذا ردّ على الذين يقولون إنّ الإصلاحيّين انبهروا بما عليه الغرب من إصلاحات، فالحركة الإصلاحيّة إنّما هي بدأت كردّ فعل للوضع المتردّي للمسلمين.

ذ ـ التّسامح العريض عند ابن عاشور داخل سياج الإسلام: كما قرّرنا من قبل أنّ من أهمّ الأهداف التي عمل من أجلها الشّيخ حرصه الشّديد على وحدة المسلمين، لذلك شدّد رحمه الله تعالى على وجوب تعايش المسلمين فيما بينهم، مهما كانت مدارسهم الفقهيّة والكلاميّة، ورفضه الالتجاء إلى إقصاء المخالف واستئصاله، لذلك دعا إلى حرّيّة الفكر دون أن يسيّجه بسياج الممنوع، لأنّ " تفاوت العقول والمدارك في النّظر طبيعيّ في البشر ولا يمكن كبت الفكر عن الحرّيّة في المعقولات والتّصوّرات "[522].

لئن كان ما يُحسب للشّيخ ابن عاشور أنّه جسّد ذلك العالم المنفتح على المذاهب والاتّجاهات المختلفة، مع محاولاته المضنية للتّخلّص من التّعصّب الذي كان من أهمّ أسباب تمزّق الأمّة وذهاب ريحها، إلاّ أنّ تلك المحاولات سبّبت له حرجاً كبيراً واضطراباً تصوّريّاً وفكريّاً في أكثر من مناسبةٍ. فضمن مبحث " الحرّيّة " وتحديدا ضمن مبحث " حرّيّة الاعتقاد " داخل الدّائرة الإسلاميّة، يرى ابن عاشور ـ المالكي السّلفي [523]ـ أنّ المسلم حرّ

---

[521] الحديد 24.

[522] أصول النّظام نقلا عن جمال الدّين دراويل في محاضرة " المغايرة وحقّ الاختلاف في تفكير الشّيخ ابن عاشور". انظر كتاب التّنوير عند علماء المسلمين في النّصف الأوّل من القرن العشرين. ط: 1. شركة المطبعة الفنّيّة. س: 1431 هـ - 2010 م . تونس. ص 164.

[523] قال ابن عاشور :"... فانشقّت الأمّة تفاريق العصا وكانوا على أربع طرائق الطريقة الأولى التي رفضت البحث والفلسفة وتمسكت بظواهر الشّريعة وفي هاته الفرقة كثير من السّلف منهم المالكيّة والحنابلة والظّاهريّة ".... أليس الصّبح بقريب. ط: 3. س: 1431 هـ - 2010 م . نشر مشترك دار سحنون للنّشر والتّوزيع. دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة. تونس. ص: 183.

في اعتقاد ما يرى من مذاهب، إذا التزم بالمعلوم من الدّين بالضّرورة، رغم إقراره أنّ فيها مصيب ومخطئ:" وفيما عدا ما هو معلوم من الدّين بالضّرورة من الاعتقادات، فالمسلم مخيّر في اعتقاد ما شاء منه إلاّ أنّه في مراتب الصّواب والخطأ. فللمسلم أن يكون سنّيّا سلفيّا، أو أشعريّا أو ماتريديّا، وأن يكون معتزليّا أو خارجيّا أو زيديّا أو إماميّا. وقواعد العلوم وصحّة المناظرة تميّز ما في هذه النّحل من مقادير الصّواب والخطأ، أو الحقّ والباطل. ولا نكفّر أحدا من أهل القبلة "[524]. وهذا مذهب الشّيخ الذي نشأ عليه منذ شبابه، كما ذكرت آنفا، وأحسب أنّه مات عليه، وهو التّسامح العريض داخل سياج الإسلام. ولا يختلف اثنان أنّ هذا المذهب الذي سلكه ابن عاشور لا يمكن أن يوافقه عليه ابن عبد الوهّاب أبدا، إذ يقول رحمه الله تعالى:" ولا ننكر على من قلّد أحد الأئمّة الأربعة، دون غيرهم، لعدم ضبط مذاهب الغير، الرّافضة، والزّيدية، والإماميّة، ونحوهم، ولا نقرّهم ظاهرا على شيء من مذاهبهم الفاسدة، بل نُجبرهم على تقليد أحد الأئمّة الأربعة " [525] كما أنّ مذهبه هذا قد أوقع الكثير من المحبّين للشّيخ ابن عاشور في حرج شديد أمام النّاقدين الذين يعيبون عليه تسامحه المثير في حقّ المغايرة والاختلاف. إلاّ أنّ الباحث يجد ما يشفع لابن عاشور قوله ذلك أمور ثلاثة: أوّلهما: نقضه في مواقع أخرى لأصول تلك الفرق، وقد بيّنتُ شيئا منها [526] كما يجد أيضا أنّ الشّيخ تبرّأ من تلك " الطّوائف ".

وافتخر بكونه سنّيّا سلفيّا من أهل السّنّة والجماعة في مناسبات لا تُحصى، منها " فللّه مَدارك أهل السّنّة إذ اهتدوا إلى أن ارتكاب الذّنوب لا يخرج صاحبه عن حظيرة الإيمان " [527]، ثمّ يصف الفرق الخارجة عنها بالطّوائف التي وقعت في " طرفي الإفراط والتّفريط، فمن الإفراط مقالة الخوارج بتكفير مرتكب الذّنب.... وتبعهم على معنى هذه المقابلة طوائف المعتزلة "[528]، ثمّ يوجّه سهامه إلى المرْجئة فيقول:" ومن التّفريط مقالة المرجئة بأنّ الإيمان وحده كاف في المعصية من دخول النّار وأنّه لا يضرّ مع الإيمان شيء

---

[524] أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام. ط: 2. 1406 هـ - 1985 م. الشّركة التّونسيّة للتّوزيع. تونس. ص : 172.
[525] الدّرر السّنّيّة في الأجوبة النّجديّة .تحقيق: عبد الرّحمن بن محمّد بن قاسم. تأليف: علماء نجد الأعلام. ط: 6. س: 1417هـ - 1996م. (227/1).
[526] انظر أعلاه. المبحث الثّالث. جوانب الاتّفاق والاختلاف بين الشّيخين. ص: 169.
[527] أصول النّظام الإجتماعي في الإسلام. ط : 3 . نشر مشترك دار سحنون للنّشر والتّوزيع. دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة. تونس. س: 1431 هـ - 2010 م. تونس. ص : 80 – 81 .
[528] نفس المرجع . ص 81.

من الذّنوب.... وهذه طائفة قد انقرضت، ولكنها أبقت شظايا من آرائها في نفوس كثير من المسلمين، إذ صار المسلمون يعتمدون على جانب الرّجاء ويُهملون جانب الخوف ويتقوّلون على الدّين أقوالا يؤيّدون بها معاذيرهم "[529].

أمّا الأمر الثّاني الذي يشفع لشيخنا ابن عاشور فهو الواقع المتردّي الذي وُجد فيه الشّيخ، فيحكي عنه فيقول:" وها أنا ذا متقدّم إلى خوض بحر أرى هولَ أمواجه قد حاد بعقول كثير من ذوي الألباب، فولّوا عنه مُدْبرين.... ولطالما كنت أقدّم رجلا وأؤخّر أخرى وأعلم أنّ نور عقلي هو دون إضاءة هاته المجاهل التي صفدت عليها منافذ الأنوار والأهوية الخالصة فامتلأت بالحوامض الرّديئة منذ أزمان ..." [530]. كما قال أيضا ـ وهو متحسّر . :" والبؤس العظيم للأمّة، أن تداخلت العوائد والعلوم ومُوِّهت بعض العوائد بطلاء الدّين أو الأصول.. وسلبت الحرّيّة عن العلوم.. وأصبح المبتكر عرضة للنّكاية أو الاضطهاد ناهيك بالمعترض على بعض المتقدّمين " [531].

أمّا الأمر الثّالث الذي يشفع للشّيخ فهو جرأته وعدم الحرج من خوضه غمار الخوض في كلّ المواضيع المحرجة والحارقة بدون تردّد، إذ لا وجود لمحظور وممنوع بالنّسبة إليه، فكلّ ما يقدّر أنّه يحيط بموضوعه يتناوله ويتطرّق إليه. ولذلك لم يجد الشّيخ ضيقا أو حرجا في الدّفاع عن بشّار دفاعا كبيرا رادّا على كلّ الأخبار التي حمت عليه بالزّندقة والإلحاد بالرّغم من تواترها، وانتصر ابن عاشور لأدب بشّار ولم يحذف كلمة واحدة من ديوانه مهما كان فحشها، واعتبر خلاعته ومجونه وغزله المادّي غير ماسّة بعقيدته، لأنّ الفنّ في نظر الشّيخ لا يعدو أن يكون مجرّد تعبير لرقّة الإحساس.

ر ـ بين الهمّ الشّعبيّ وهمّ " النّخبة ": كانت أعمال ابن عبد الوهّاب كلّها منصبّة على معالجة واقع النّاس والعوام المنغمسين في الجهل والخرافة، فكان مهموما وولعا بتفعيل وتطبيق النّموذج السّلفي لا إلى التّنظير والاهتمام بالبحث الأكاديمي والتّجديد، كما هو السّمة

---

[529] أصول النّظام الإجتماعي في الإسلام. ط : 3 . نشر مشترك دار سحنون للنّشر والتّوزيع. دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة. تونس. س: 1431 هـ - 2010 م. تونس. ص : 82.

[530] ابن عاشور محمّد الطّاهر. أليس الصّبح بقريب؟ ط 3. نشر مشترك: دار سحنون للنّشر والتّوزيع. دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة. 1431 هـ - 2010 م . تونس. ص 13.

[531] نفسه. ص 160.

البارزة في أكثر جهود ابن عاشور، فبحكم نشأته الدّينيّة في وسط عائليّ علميّ عريق، انصرف كلّيّا لطلب العلم، فصرف جهده الأكبر في التّأليف، كما كان لتدرّجه في مناصب علميّة عديدة ـ سواء كان في تونس أم في عضويّته لمجمعي اللّغة العربيّة بدمشق والقاهرة ـ الأثر البالغ في تعطيل بلورة مشروعه الإصلاحيّ على نطاق أعمق وأوسع.

ومن خلال ما تركه الرّجلان من تراث علمي نفهم طبيعة اختلاف منهجهما، ففي حين تناول ابن عبد الوهّاب مسألة واحدة، وهي التّوحيد الخالص، خدمة لخطّته الأساسيّة وهدفه المركزيّ، وهو تحقيق العقيدة في نفوس أتباعه بآعتبارها أصل أصول الإسلام، فإنّ الشّيخ محمّد الطّاهر قد اعتنى بأمّهات العلوم الإسلاميّة واللّغة العربيّة وآدابها ذات الصّلة بلغة القرآن وبرع فيها، تدريسا وتأليفا، وصلت إلى الأربعين، ممّا كان له الأثر في تشتيت نشاطاته، إلاّ أنّه لا بدّ أن نعترف أنّه حاول صبّ كلّ جهوده الضّخمة بالنّهضة بالتعليم الزّيتوني وإرسائه على قواعد عصريّة وأصيلة، كما ينبغي أن نقرّر أنّ الرّجل لم يلق حظّه، ربما لأنّه تونسيّ، وجاء في زمن استبداد سياسيّ، في حين أنّ المشارقة ـ فضلا عن المغاربة ـ يطلقون عليه " العلاّمة " تقديرا لما طرحه من اجتهاد معتبر في فهم علوم الشّريعة وما تركه من إنتاج علمي ضخم.

ز ـ في مصادر الإصلاح: يمكن إدراج العمل الإصلاحي للشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب ضمن الثّورة الإسلاميّة، لأنّها تكاد تكون الحركة الوحيدة التي انطلقت من ديننا ومن داخل عقيدتنا، فلم يأخذ ابن عبد الوهّاب ولم يقتبس شيئا من الآخر " الكافر "، إذ حصر مصادر معرفته وثورته في النّصّ وأيضا في النّموذج السّلفي، أمّا الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور فقد تنوّعت وتعدّدت واختلفت مصادر معارفه وتكوينه العلمي واهتماماته الفكريّة، إذ كانت له تحدّيات أكثر تعقيدا، ولذلك وجدناه منفتحا على كلّ التّيّارات المختلفة للفكر الإسلامي (فقه وأصول، علم الكلام بتوجّهاته المختلفة، الفلسفة الإسلاميّة، علوم اللّغة والبيان، الأدب والنّقد الأدبي، إلخ)، ومتأثّرا بكلّ ما يصله من فكر إنساني، فقد ذكر ابن عاشور أنّه رجع في تفسيره ـ وهو أعظم مؤلّف له ـ إلى عدد ضخم من المؤلّفين في مختلف الاختصاصات والدّرجات، من مفسّرين ومحدّثين ولغويّين ومتكلّمين وفلاسفة ناقشهم وجادلهم احتجّ بهم واحتجّ عليهم منهم رادّا لأقوالهم ومؤيّدا لهم أو عارضا لها.

كما جعل الشّيخ من العلوم التي لا بدّ منها في اكتشاف أسرار القرآن الكريم علم التّاريخ وفلسفة العمران والأديان والسّياسة. وهذا لا يعني أنّ الشّيخ غير معتزّ بإسلامه ولم يتحدّ الغرب، بل بيّن في كلّ كتبه تميّز شريعة الإسلام عن غيرها من الشّرائع فقال: و" مظهر لعظمة الشّريعة الإسلاميّة بين بقيّة الشّرائع والقوانين والسّياسات الاجتماعيّة "[532].

س ــ بين الرّؤية الإلزاميّة والرّؤية التّأسيسيّة: استند ابن عبد الوهّاب في عمليّته الإصلاحيّة إلى رُؤية إلزاميَّةٍ حاكمةٍ "سنّيّة جاهزة" تمثّلا لـ " النّموذج النّبويّ " أو على حدّ تعبير الدّكتور علي الصّولي: " تقليد " الأصل " الذي سيحقّق هويّة المسلم القائمة على مطابقته " الإسلام – الأصل "[533]. في ثورة سياسيّة، لأنّها في نظره، من أسرع الطّرق لتحقيق التّوحيد، قياسا بوسائل الإصلاح التّقليديّة والبطيئة التي اعتمدها بشكل فرديّ في تطبيق الحدود والتي انتهت به إلى طريق مسدود.

أمّا ابن عاشور فقد استند في عمليّة إصلاحه إلى رُؤية تأسيسيّة اجتهاديّة متكاملة، حيث قدم مشروعا متكاملا: في الأدب والشّعر(عبر تحقيق التّراث الشّعري)، وفي التّفسير للقرآن، وفي الاجتهاد في الأصول (مقاصد الشّريعة الإسلاميّة) وفي الإصلاح التّربوي (أليس الصّبح بقريب)، وفي الاجتماع والسّياسة (أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام)، وقد لخّص فيه بيان الإصلاح الدّيني عنده لاشتماله على نظرات إصلاحيّة في مختلف شؤون الدّين والدّنيا إذ عرض لنظام الحكم ولمبادئ العدل والحريّة والمساواة والتّربية والاجتهاد، تحت قيادة أهل العلم، قال الشّيخ رحمه الله تعالى:"...أنّ الأحوال التي ظهرت حاجة المسلمين فيها إلى العمل بعمل واحد لا يناسبه ما هم عليه من اختلاف المذاهب، فهم بحاجة في الأقلّ إلى علماء يرجّحون لهم العمل بقول بعض المذاهب المقتدى بها بين المسلمين ليصدر المسلمون عن عملٍ واحدٍ "[534].

ش ــ بين الإصلاح الثّوري والإصلاح التّدريجي: لئن اتّفق الإمامان في أنّ

---

[532] محمّد الطّاهر ابن عاشور. مقاصد الشّريعة الإسلاميّة. ط: 1. الشّركة التّونسيّة للتّوزيع. 1398 هـ - 1978 م. تونس. ص: 9.
[533] علي الصّولي."الدّين والدّولة والمجتمع في مواقف وآثار محمّد بيرم الخامس". ط: 1.س:1424 هـ - 2003 م . دار الطّليعة الجديدة. دمشق. ص: 403.
[534] ابن عاشور: مقاصد الشّريعة الإسلامية (تح: محمد الطّاهر الميساوي) كوالالمبور: ماليزيا، دار الفجر، عمان، الأردن، دار النفائس، 1999م، ط: 1. ص302.

الإصلاح ينبغي أن يكون على منهج السّلف الأوّل" لا يصلح آخر هذه الأمّة إلاّ بما صلح به أوّلها "[535]، إلاّ أنّهما اختلفا في تطبيق ذلك الأصل، فعند ابن عبد الوهّاب هي سلفيّة منضبطة متوقّفة أو مقلّدة "، وفاعلة لا بدّ من العمل من أجل تحقيقها، إذ لا بدّ من إعادة حرفيّة لتجسيد الدّين الذي كان عليه النّبيّ وأصحابه. وعند ابن عاشور هي سلفيّة إصلاحيّة مجدّدة، تستأنس بالمنجزات الفكريّة والعلميّة التي أنتجها الإنسان في عصره، فنحى منحى (التّوافق بين الإسلام والمدنيّة).

ص . اختلاف في الاستدلال بالنّصّ الحديثي: استند الشّيخ محمّد الطّاهر إلى الأحاديث الضّعيفة في استدلالاته، وهذا ما لم نجده في استدلالات الشّيخ محمّد ابن عبد الوهّاب، ومثال ذلك وهو يفسّر قوله تعالى:(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى) [536]. فيعرض لتكوين نفس النّبيّ الزّكيّة على الكمال خيراً أورد حديث" أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي" [537]. والحديث وإن كان مشهورا بين النّاس، إلاّ أنّ أهل الحديث ضعّفوه "[538]. ومن ذلك أيضا ذكره لحديث:"كَمَا تَكُونُوا يُوَلَّ عَلَيْكُمْ [539] " [540]. كذلك حديث:" أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ بِأَيِّهُمُ اقْتَدَيتُم اهْتَدَيتُمْ " [541]، فقد استدلّ به في مناسبتين في تفسيره. وأورده في كلتا الحالتين بصيغة الجزم، ففي المناسبة الأولى ذكره في الصّفحة الخامسة من الجزء الأوّل وهو يبيّن بذل الصّحابة في بيان الشّرع الحنيف، فقال:" وهذا ثناء على أصحاب الرّسل بأنّهم أوتوا العلم

---

[535] القاضي عياض اليحصبي "الشّفا بتعريف حقوق المصطفى". ط: دار ابن رجب. مصر. (2/98- 99) وابن تيميّة «اقتضاء الصّراط المستقيم». ط:1. مكتبة الرّشد. س: 1404هـ - 1983م. الرّياض. (2/ 762 - 763).

[536] الضّحى 6.

[537] محمّد الطّاهر ابن عاشور. ط: سنة 1984. الدّار التّونسيّة للنّشر. تونس. تفسير التّحرير والتّنوير.(30/399).

[538] مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية. تحقيق: عبد الرّحمن بن محمّد بن قاسم النّجدي الحنبلي. ط: 1. س: 1398 هـ 1977 م. (18/ 375). وأسئلة وأجوبة لشيخ الإسلام الحافظ ابن حجر العسقلاني. تحقيق: مرزوق علي إبراهيم. ط: 1. دار الشّريف. مكّة المكرّمة. س: 1417 هـ - 1996 م. رقم 57. وقال: إسناده غريب. و الإمام محمد بن عبد الله الزركشي (البدر) في " اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة. المعروف بالتّذكرة في الأحاديث المشتهرة ". ط: 1. دار الكتب العلميّة. بيروت. س: 1406هـ - 1985م.

[539] رواه الدّيلمي في مسند الفردوس عن أبي بكرة، ورواه البيهقي عن أبي إسحاق السّبيعي مرسلاً. ضعّفه غير واحد من أهل العلم منهم: الشّوكاني في الفوائد المجموعة (ح 624) وقال : في إسناده وضّاع وفيه انقطاع، وقال المحدّث السّمهودي في الغمّاز على اللّمّاز (ح: 206) في طريقه يحيى بن هاشم وهو ضعيف عند أهل الحديث، وقال الزّرقاني في مختصر المقاصد الحسنة (ح 772) : ضعيف. وضعّفه الحافظ ابن حجر العسقلاني والألباني في الضعيفة (320) ، وضعيف الجامع (4275) ، والمشكاة (3717) ، وقال: ضعيف .

[540] محمّد الطّاهر ابن عاشور. تفسير التّحرير والتّنوير. ط: سنة 1984. الدّار التّونسيّة للنّشر. تونس. (30/352).

[541] الفوائد المجموعة للأحاديث الموضوعة. تحقيق: عبد الرّحمن بن يحيى المعلمي اليماني. الإمام: محمد بن علي الشّوكاني. ط: 1. س: 1380 هـ - 1960 م. رقم 210. وقال: " في إسناده وضاع وفيه انقطاع ". و ابن حجر العسقلاني في " الكافي الشّاف في تخريج أحاديث الكشّاف ". ط: 1. دار إحياء التراث العربي. بيروت. س: 1418 هـ - 1997 م. وقال: " في إسناده مجاهيل ". و الألباني. ضعيف الجامع الصّغير وزيادته. ط: 2. المكتب الإسلامي. بيروت. س: 1408 هـ - 1987 م. رقم: 4275. و غيرهم.

وهو علم الدّين " [542]. وفي المناسبة الثّانية تعرّض له في الجزء السّابع عشر في تفسير قوله تعالى: (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ) [543]. ومثل حديث:" نَوْمُ الصَّائِمِ عِبَادَةٌ " [544]، ذكره في تفسير قوله تعالى: (مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ) [545] ومعنى : (كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ) [546]، أن يكتب لهم بكلّ شيء من أنواع تلك الأعمال عمل صالح، أي جعَل الله كلّ عمل من تلك الأعمال عملاً صالحاً وإن لم يقصِد به عاملوه تقرّباً إلى الله فإنّ تلك الأعمال تصدر عن أصحابها وهم ذاهلون في غالب الأزمان أو جميعها عن الغاية منها فليست لهم نيّات بالتّقرّب بها إلى الله، ولكنّ الله تعالى بفضله جعلها لهم قربات باعتبار شرف الغاية منها. وذلك بأن جعل لهم عليها ثواباً كما جعل للأعمال المقصود بها القربة، كما ورد أنّ "نَوْمُ الصَّائِمِ عِبَادَةٌ "[547]. كما ذكر الشّيخ ما ينسب إلى النبيّ ـ عليه السلام ــ وهو لم يثبت "رَجَعْنَا مِنَ الجِهَادِ الأَصْغَرِ إِلَىَ الجِهَادِ الأَكْبَرِ "[548]، [549]. كما استدلّ أيضًا بحديث بحثتُ عنه فلم أجده، وهو: " إِنَّ اللهَ كَتَبَ مَصِيرَ كُلِّ أَحَدٍ "[550].

---

[542] محمّد الطّاهر ابن عاشور. تفسير التّحرير والتّنوير. ط: سنة 1984. الدّار التّونسيّة للنّشر. تونس. (352/30).

[543] الحجّ: 52.

[544] البيهقي. شعب الإيمان. ط: 1. دار الفكر. بيروت. س: 1424 هـ - 2003 م.(3 /1437). وقال:" [فيه] معروف بن حسّان ضعيف وسليمان بن عمرو النّخعي أضعف منه ". والحافظ العراقي في " المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الأحياء من الأخبار". ط: 1. دار صادر. لبنان. س: 2000.(310/1) وقال:" إسناده ضعيف ". وابن عبد البرّ. جامع بيان العلم وفضله. ط: 4. دار ابن الجوزي. الدّمّام. س: 1419 هـ - 1998 م.(2 / 925). وقال:" وهذا الكلام لا يصحّ عن النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم و إسناده لا تقوم به حجّة ". و البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشّرح الكبير. عمر بن علي ابن الملقن. تحقيق: مصطفى أبو الغيط عبد الحيّ وآخرون. ط: 1. دار الهجرة. السّعودية. س: 1425هـ - 2004 م.(9 / 584.) وقال:" غريب لم يروه أحد من أصحاب الكتب المعتمدة ". و " تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشّاف ". ط: 1. دار ابن خزيمة. الرّياض. س: 1414هـ - 1993 م.(2 / 230) وقال:" [فيه] سلام المدائني قال ابن طاهر ضعيف ". و محمّد بن إسماعيل الأمير الصّنعاني. العُدّة. حاشية على شرح العمدة لابن دقيق العيد. تحقيق: عادل عبد الموجود و علي معوّض. ط:1 . دار الكتب العلميّة. بيروت. 1419هـ - 1998 م. وقال:" فيه حمزة النصيبي ضعفوه وغيره من الضعفاء". والألباني. سلسلة الأحاديث الضّعيفة والموضوعة وأثرها السّيّء في الأمّة. ط: 1. دار المعارف. الرّياض. س: 1412 هـ / 1992 م. وقال:" حديث ضعيف ". وغيرهم..

[545] التّوبة: 121

[546] التّوبة: 121

[547] ابن عبد البرّ. جامع بيان العلم وفضله. ط: 4. دار ابن الجوزي. الدّمّام. س: 1419 هـ - 1998 م. 925/2. وقال:" إسناده لا تقوم به حجّة ". و البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشّرح الكبير. عمر بن علي ابن الملقن. تحقيق: مصطفى أبو الغيط عبد الحيّ وآخرون. ط: 1. دار الهجرة. السّعودية. س: 1425هـ - 2004 م. 9/ 584. وقال:" غريب لم يروه أحد من أصحاب الكتب المعتمدة وله طرق ". و " تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشّاف ". ط: 1. دار ابن خزيمة. الرّياض. س: 1414هـ - 1993 م. 230/2. وقال:" [فيه] سلام المدائني قال ابن طاهر ضعيف ". و محمّد بن إسماعيل الأمير الصّنعاني. العُدّة. حاشية على شرح العمدة لابن دقيق العيد. تحقيق: عادل عبد الموجود و علي معوّض. ط:1 . دار الكتب العلميّة. بيروت. 1419هـ - 1998 م. وقال:" فيه حمزة النصيبني ضعفوه وغيره من الضعفاء". وغيرهم

[548] ابن رجب الحنبلي. " جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا ". ط: 1. مؤسّسة الرّسالة. بيروت. س: 1411 هـ - 1990 م.(1/ 489). وقال:" إسناده ضعيف ". و " تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشّاف ". عبد الله بن يوسف الزّيلعي. تحقيق: سلطان فهد الطّبيشي. ط: 1. دار ابن خزيمة. الرّياض. س: 1414هـ - 1993 م.(395/2). وقال:" غريب جدّا ". و " الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة ". لعلي بن سلطان القاري. ط: 2. المكتب الإسلامي. بيروت. س: 1406هـ - 1985 م. رقم (211). وقال:" قيل لا أصل له أو بأصله موضوع ".

[549] أصول النّظام الإجتماعي في الإسلام. نشر مشترك: دار سحنون للنّشر والتّوزيع - دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة. ط : 3. سنة 1431 هـ - 2010 م. تونس. ص60.

[550] نفسه.

وذكر راوته دون ذكر من خرّجه. ولأنّ بحث الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب الأكبر هو في العقائد، فإنّه لم يستدلّ بحديث ضعيف، لأنّ الإجماع قائم على أنّه لا يستدلّ في العقائد بالأحاديث الضّعيفة. قال الشّيخ صالح الفوزان:" ولم يورد الشّيخ رحمه الله في هذا الكتاب إلاَّ ما صحّ من الأحاديث، أو كان حسن الإسناد، أو هو ضعيف الإسناد وله شواهد تقوّيه، أو هو داخل تحت أصل عام يشهد له الكتاب والسّنّة، ممّا ترجم له الشّيخ في أبواب الكتاب "[551].

ثالثا: مواطن الفروق الأساسيّة بين الشّيخين: تبيّن لي أنّ أصل جوهر التّباين بين العلاّمتين في عمق الرّؤية الإصلاحيّة وعمومها ومجالاتها وذلك في مسائل خمسة سنبيّنها فيما بعد، ممّا أثّر في اختلافهما في فهمهما لعلاقة الدّين بالواقع، فترتّب عن ذلك أمران: أوّلهما اختلاف في التّأويل للدّين، و ثانيهما ما ترتّب من اختلاف حول منهج الإصلاح وطريق التّغيير الأمثل للتّمكين لرؤيتهما الإصلاحيّة. وبمعنى أدقّ هل إنّ الإصلاح يكون في تفعيل الإسلام الجاهز للتّطبيق كما هو مذهب ابن عبد الوهّاب، أم يكون في البحوث المعرفيّة والعلميّة التي تمهّد للتّمكين؟ كما هو مذهب ابن عاشور. فلئن فهم الشّيخ ابن عبد الوهّاب أنّ الدّين قابل للتّطبيق إذا أراد المسلمون ذلك، وَوُجدت سلطة سياسيّة تلزمهم به، ومن ثمّ لم ير بأسا من ضرورة وجوب إقامة الحسبة أو الحدود أو القوّة التي أقامها أو (الجهاد) لإلزام النّاس وحملهم على تحقيق متطلّبات العقيدة ومستلزماتها واستحقاقاتها. وهو ما يشكّل بحقّ ثورة على السّائد، فتكون حركته تشبه تماماً حركة التّغيير الشّرقي الآسيوي والغربي الأوروبي التي ثارت على الأنظمة الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسّياسيّة القديمة ودكّت أسس دينها الكنسي، إلاّ أنّ حركة ابن عبد الوهّاب كانت ثورة على " جاهليّة " جديدة ولكن بالدّين. بينما نجد ابن عاشور في سياق مغاير تماماً لرؤية " النّظريّة الجاهزة "، أو الإصلاح الجذري والتّغيير الثّوري، فنحى في إصلاحه المنحى الاجتهادي والتّخطيط الاستراتيجي التّوافقي الهادئ النّاعم الذي يرسم أهدافا مستقبليّة بعيدة المدى ولا يستعجل النّتائج انسجاما مع الطّبيعة الموسوعيّة الذهنيّة الهادئة والسّاكنة له، وأيضا لطبيعة الواقع

---

[551] إعانة المستفيد بشرح كتاب التّوحيد. صالح بن فوزان الفوزان. ط: 3. س: 1423هـ ــ 2002 م. مؤسّسة الرّسالة. بيروت. (14/1).

التّونسيّ المتردّي والمعقّد الذي لم يسعفه لتحقيق إصلاحاته، حيث تصادمت جهوده الضّخمة مع " التّحديثيّين " المنبهرين بالغرب وبمرجعيّته، باعتبار أنّ الإسلام عندهم ما هو إلاّ " نظام شخصي "، فكان ذلك سببا في صراع مرير بين دعاة " التّحديث "، وبين الشّيخ السّلفي صاحب المرجعيّة الإسلاميّة المطلقة. لقد كان هذا الصّدام السّياسي " الحتمي "، هو المعطّل الأساسي لعمليّة الإصلاح العاشوري، إذ لم تعرف الحركة الإصلاحيّة التّونسيّة عموما والعاشوريّة خصوصا مسارا هادئا دون مقاومة النّخبة التي كوّنتها فرنسا الاستعماريّة وسلّمت لها دواليب الحكم في بلادنا لتدير ذلك الصّراع نيابة عن المحتلّ. ومن المفارقات العجيبة بين حركة الإمامين، أنّ الذي نجّح عمليّة إصلاح حركة ابن عبد الوهّاب في الحجاز هو السّياسي، بينما الذي عطّب عمليّة إصلاح ابن عاشور في تونس هو السّياسيّ أيضاً. كما يمكن أن نقرّر تبعا لاختلافهما في فهم الدّين، أنّ ابن عبد الوهّاب السّلفيّ المتمسّك بالسّنّة المسلّم لها و " المقلّد " لها في كلّ شيء، بما في ذلك عرض نفسه على الأمراء، لم يشاركه فيها الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور" المجتهد " إذ لم يكن يرى ذلك واجبا، ربما للتّحدّيات الخطيرة التي كان يواجهها، من أهمّها احتلال المستعمر لبلادنا فضلا عن احتلاله لعقول الكثيرين من النّخبة المتساقطة أمام مطامعها. ويكفي شيخنا شرفا و فخرا أنّه صمد أمام كلّ التّحدّيات وتحمّل المخاطر في ذلك، وهو يرشد قومه أنّ القوّة الحقيقيّة للمسلمين التي تقدر على الوقوف أمام المحتلّ هي العقيدة.

لقد كان ابن عبد الوهّاب يرى أنّ السّلطة هي أداة ضروريّة للإصلاح، وأنّ إصلاح الأمّة لا يكون إلاّ عبر مؤسّسة الحكم، وأنّ كلّ قفز عن ذلك لن يؤدّي إلاّ إلى إعادة إنتاج الفشل والتّخلّف، وكأنّ الشّيخ يعتقد أن " لا إصلاح بدون ملك "، و" لا إصلاح يكون إلاّ بالرّأس "كما فعل النّبيّ محمّد وسليمان عليهما السّلام، وأيضا كما فعل مصلحو الشّرق والغرب، فحقّقوا بذلك نجاحات وإصلاحات لافتة. ففي الهند بدأت طريق الإصلاح بالمساواة في المواطنة، والتّحاور السّلمي، والاعتماد على الذّات، وكانت الدّيمقراطية والإصلاح التّعليمي ركيزتي التّجربة الهنديّة. أمّا اليابان فقد اعتمدت على الدّيمقراطيّة والتّفوّق العلمي، عملا بشعار يقول:" ينبغي أن نقلّد الغرب حتّى نصبح أنداداً له ". وهذا ما تحقّق بالفعل. أمّا الغرب فقد قامت نهضته على إعمال العقلانيّة في تسيير شئون

البشر. أمّا ابن عاشور فقد راهن على الإصلاح الدّيني ـ من وجهة نظري ـ هو أنّ تباينا ظهر لي في فهم الشّيخين للنّصّ الدّيني، هو الذي ترتّب عليه تباين كبير في تطبيق ذلك الفهم. الوجه الآخر للإصلاح السياسي.

كما بدا لي أيضا أنّ مفهوم الدّين عند ابن عاشور ارتبط في عناصر أربعة أساسيّة شديدة الوضوح ربما لم تتّضح لي عند ابن عبد الوهّاب، وهذه العناصر هي:

ـ **العنصر الأوّل: يتعلّق بمفهوم " الاستخلاف "**: وهو مفهوم قرآني، إذ لا يمكن أن نفهم الدّين إلاّ من خلال هذا الجانب الأساسي العقدي، ومفهوم الاستخلاف لا نقصد به الاستخلاف بمعناه العام الانتروبولوجي الفلسفي فحسب، ولكن من خلال إكساب هذا المفهوم قيمة علميّة حضاريّة، إذ لا بدّ أن يكون المخاطب المكلّف مواكبا للسّياق الحضاري الذي يعيشه، كما ينبغي عليه أن يتفاعل معه حتّى يصبح نسيجا ينبغي أن يدرك خصوصيّاته في كلّ مرحلة. وهذا ما لا نلاحظه عند ابن عبد الوهّاب بشكل واضح. أمّا ابن عاشور فكان هذا المعنى أكثر وضوحا عنده، لذلك رأيناه يدندن على ضرورة الاستفادة من النّتاج الحضاري الإنساني، كما أنّه لا يُفهم حديثه عن المقاصد وتأكيده عليها وإضافاته عليها، إلاّ من خلال موضوع الاستخلاف الذي يتنزّل تنزيلا حضاريّا. ومن هنا نفهم نزعته النّقديّة للأسس التي انبنى عليها العقل الفقهي القديم، فحاول أن يحرّره من أسر أطر التّقليد للثّقافة التّقليدية، ويوجّهه إلى الوعي بالاجتهاد عبر منظومة التّوجّه المقاصدي، كآلة علميّة منهجيّة جديدة تمكّنه من الانخراط القويم في مسار الحركة الحضاريّة ومسايرة التّحوّلات المتسارعة، تطويرا للبناء الفكري التّشريعيّ حتّى يكون عامل تنشيط للحركة الحضاريّة، وعنصر تغذية لتقدّم المجتمع الإنساني، ويجنب المسلم عوارض الصّدام بين النّصّ الثّابت والواقع المتغيّر سعيا لتحقيق التّوازن المطلوب بين موجبات الولاء لتعاليم الدّين من ناحية، والاستجابة لمقتضيات التّواصل الواعي مع متغيّرات الزّمان والمكان من ناحية ثانية. وهذه القيمة الحضاريّة التي تميّز بها بمعنى الإجابة عن الاستحداثات التي ينبغي على المسلمين أن يجيبوا عليها لم نجدها عند ابن عبد الوهاب واضحة، لأنّها بكلّ بساطة لم تطرح في بيئته بشكلّ جليّ وملحّ.

ـ **العنصر الثّاني: شدّة تأثّر محمّد الطّاهر بالمنهج الخلدوني في العمل الإصلاحي** إذ كانت علاقته بابن خلدون متينة جدّا، حيث أخذ عنه الحسّ العمراني الحضاري في تفسير سنن العمار والدّمار. وهو ما دأب عليه الفكر الإصلاحي المغاربي عموما والتّونسيّ بالخصوص، وهذه أدلّة ثلاثة تبيّن ذلك:

1 اقتباسه من أقواله التّربويّة التي ضمّنها مقدّمته الشّهيرة، ففي حديثه عن أغراض التّأليف والشّروط الواجب توفّرها في المؤلّف، يذكر شرطا فكريّا هو ملكة الحكم العامّة (إلى جانب القوى النّفسيّة الجزئيّة الخاصّة بأنواع العلوم نوعا نوعا)، ويستدلّ على ذلك بابن خلدون، فيقول عن تلك الملكة: " قوّة في النّفس [...] كلّيّة وهي القوّة الحاكمة في الفطرة التي سمّاها ابن خلدون الملكة العامّة وهي نادرة لأنّها تعتمد أوّلا على قوّة فطريّة تهيّئها الخلقة الأصليّة ثمّ يخدمها العلم والتّحقيق وهي التي يكون لصاحبها طبع الفلسفة "[552].

2 استعماله لنفس المنهج النّقدي التّربوي الذي اعتمده ابن خلدون في رفضه لطرق التّعليم الدّينيّة التّقليديّة، وقد أسرف ابن خلدون في نقده للقوانين التّربويّة التي وضعها سحنون (160 هـ ـ 240 هـ/ 776 م ـ 854 م) والقابسي (324هـ ـ 403 هـ / 963 م . 1013 م)، والمقام لا يصلح للتّعرّض إليها.

3 أنّه أوّل من أقرّ تدريس " المقدّمة " في الزّيتونة قبل غيره في المشرق والمغرب الإسلاميّين.

ـ **العنصر الثّالث: فهم ابن عاشور للإسلام من خلال تفاعله مع فكر النّهضة الأوروبيّة** ومجتمعه في جميع أبعاده، بفعل حملات الاحتلال العسكري والتّبادل الدّبلوماسيّ، والإرساليات التّبشيريّة

والبعثات العلميّة التي أرسلت إلى الغرب. فأنتج ذلك الاحتكاك صدمة حضاريّة، فحاول الشّيخ استيعاب ذلك وامتصاصه عبر تطويع توفيقي بين فكر النّهضة الأوربيّة مع الإسلام.

ـ **العنصر الرّابع: البعد القطري في تعامله مع النّصّ:** ففي تفسيره للقرآن الكريم يأخذ الشّيخ بقراءة الإمام قالون بعين الاعتبار رغم استعراضه سائر القراءات وبحسب

---

[552] مصدق الجليدي. روّاد الإصلاح التّربويّ في تونس.ذو القعدة 1430 هـ ـ أكتوبر2009 م . دار سحر للنّشر. تونس. ص170.

انتشارها في العالم الإسلامي، و إن كان قد نبّه إلى أنّه يعتمد القراءات العشر في تفسيره مع تبنّي قراءة نافع برواية قالون في المنطلق فيبني عليها أوّل التّفسير، وعلّة ذلك " لأنّها القراءة المدنيّة إماما وراويا ولأنّها التي يقرأ بها معظم أهل تونس " [553].

إنّ هذه العناصر الأربعة التي تبيّن لي مواطن اختلاف ابن عاشور عن ابن عبد الوهّاب في فهم الدّين، بها نفسّر سبب اختلافهما في عملهما الإصلاحي.

رابعا: حصيلة نتائج إصلاح الشّيخين: كانت حركة ابن عبد الوهّاب أوفر نجاحًا من جهة تجسيد الإصلاح في الواقع العلمي والتّأثير الفعلي من الحركة العلميّة التي قام بها ابن عاشور لأسباب كثيرة، منها:

1 **البيئة** التي ظهرت فيها الحركتان، فقد ظهر ابن عاشور في بيئة تزخر بعلماء تنوّعت مصادرهم المعرفيّة، ولها سبق في تجارب إصلاحيّة لم يكتب لها النّجاح، ومثل هذه البيئة . عادة . غير مهيَّأة لقبول التّغيير والاستجابة بسرعة لدعوة جديدة، نظرًا لكون أهلها معتدِّين بحظوظهم من التّعليم والمذاهب الكلاميّة والفقهيّة، خلافًا للبيئة التي ظهر فيها الشّيخ محمّد بن عبد الوهَّاب، حيث كانت مصادرها المعرفيّة واحدة، كما لم تشهد بيئته أيضا تجارب إصلاحيّة لم يُكتب لها النّجاح. فكانت تلك البيئة أكثر جاذبيّة للتّغيير وأقرب ملاءمة للإصلاح وأسرع استجابة لما هو أفضل، بحكم الأوضاع السّيّئة القائمة، فتلقّفها النّاس لجدّتها وجدّيّتها، وحاجة النّاس الأكيدة إليها، رغم معارضة القِلَّة من العلماء، الذين خانتهم الحُجَّة العلميّة القويّة، التي لم تمكّنهم من الثّبات في مواجهة الحُجَّة الدّامغة التي تسلّح بها ابن عبد الوهّاب.

2 **المساندة السّياسيّة** التي راهن عليها الشّيخ ابن عبد الوهّاب، إذ كان يرى أنّ تغيير الأوضاع الفاسدة لا تحصل أبدا بمجرّد الدّعوة إلى أوضاع أحسن، بل لا بدّ من قوّة مادّيّة تنصر هذه الدّعوة، والقوّةُ المطلوبة التي وجدها في بيئته هي ضرورة التّحالف مع طرف سياسي إلى جانب سنَده الدّيني. وهو نفس رأي ابن خلدون. أمّا ابن عاشور فلم يُغْنِ عنه سنَده الدّيني ولا منهجه الإصلاحي المتدرّج، أمام خذلان السّياسي ومحاربته له. ولأنّ

[553] محمّد الطّاهر ابن عاشور. التّحرير والتّنوير. ط: 1405 هـ - 1984 م. الدّار التّونسيّة للنّشر. تونس.(63/1).

الله يـزع بالسّـلطان مـا لا يـزع بـالقرآن، فقـد أصـاب ابـن عبـد الوهّـاب حينمـا بحـث عـن نصـرة سياسـيّة، وقـد حظـي بهـا مـن طـرف أمـير الدّرعيـة محمّـد بـن سـعود ثمّ مـن طـرف ابنـه عبـد العزيز.

3 النّسـب الشّـريف: ولأنّ ابـن عبـد الوهّـاب التّيمـي يعـيش في مجتمـع متـديّن بـدويّ قبلـي يُجـلّ السّـلف الصّـالح، فقـد سـاعده نسـبه إلى بـني تمـيم في عمليّـة الإصـلاح الـتي قـام بهـا. إذ ورد في فضـل التّيميّـين نصـوص تـدرّ بـالاحترام علـى الشّـيخ، فعـن أبي هريـرة رضـي الله عنـه قـال:" مَـا زِلْـتُ أُحِـبُّ بَـنِي تَمِـيمٍ مُنْـذُ ثَـلاَثٍ: سَمِعْـتُ مِـنْ رَسُـولِ اللهِ صَـلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ يَقُـولُ فِـيهِمْ سَمِعْتُـهُ يَقُـولُ: هُـمْ أَشَـدُّ أُمَّـتِي عَلَـى الـدَّجَّالِ، قـال: وجـاءت صـدقاتهم، فقـال رسـول الله صـلّى الله عليـه وسـلّم: هَـذِهِ صَـدَقَاتِ قَوْمِنَـا، وكَانَـتْ سَـبِيَّةٌ مِـنْهُمْ عِنْـدَ عَائِشَـةَ فَقَـالَ: أَعْتِقِيهَـا فَإِنَّهَـا مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ "[554].

4 التحـام دعوتـه الدّينيـة بالعصـبيّة القبليّـة: حسـب ابـن خلـدون فـإنّ الـدّين والعصـبيّة همـا الّـذان يُحرّكـان التّـاريخ الإنسـاني، وأنّ كـلّ دعـوة دينيّـة مـن غـير عصـبيّة لا تـتمّ أبـدا. وأنّ تلـك العصـبيّة قُـوّ هائلـة لا يُقوّمهـا إلاّ الـدّين الـذي يُحوّلهـا مـن مجـرّد رابطـة اجتماعيّـة طائشـة إلى قـوّة للمُواجهة والمطالبة و تأسيس الملك.

5 قيـام أصـحاب ابـن عبـد الوهّـاب بدعوتـه: إنّ العوامـل الأربعـة الـتي سـطّرتها في هـذا البـاب أضف إلى ذلك شدّة تأثّر طلبته وعشيرته بحركته، جعلتهم يقومون بتلك الدّعوة إلى اليوم.

إنّ هـذه الأسـباب الخمسـة الـتي حظـي بهـا ابـن عبـد الوهّـاب لم تتـوفّر في ابـن عاشـور، إذ شـهد الشّـيخ فـترة خمسـينيّات القـرن الماضـي الـتي مثّلـت ذروة صـعود دولـة مـا بعـد الاسـتعمار المباشـر، وَوَعـدت الدّولـة " الحديثـة " شـعبها التّونسـيّ بالتّنميـة والرّفـاه وباسـتقلال القـرار الـوطني ومواجهـة المخـاطر الخارجيّـة وطالبـت تلـك الدّولـة مـن الشّـعب التّونسـيّ الـولاء المطلـق لـ " الزّعيم " والقبـول بالمحافظـة علـى الاسـتقرار والتّضـحية بكـلّ غـال ونفـيس، ولـو بالـدّين، والقبـول بقمـع الدّولـة، وتقليـد الغـرب في كـلّ مسـائله، فـانطلق في الإجهـاز علـى هُويّـة الشّـعب وثقافتـه عـبر تعطيـل مؤسّسـة التّعلـيم الزّيتـوني وفروعـه في كامـل البلـد، وإلغـاء المحـاكم الشّـرعيّة ومصـادرة

---

[554] البخـاري. شـرح ابـن حجـر العسـقلاني." فـتح البـاري بشـرح صـحيح البخـاري ". كتـاب رقـم 2543. ط: 1. دار الفكـر للطّباعـة والنّشر والتّوزيع. بيروت. س: 1415 هـ - 1995 م . (5 / 476).

الأوقاف وإغلاق الكتاتيب القرآنيّة وتهميش مشايخ الزّيتونة، وتخريب الأسرة. فكان من ابن عاشور أمام هذا الهيجان إلاّ أن ينصرف إلى البناء المستقبلي الأجدر عبر في إصلاح الفرد الذي لا يكون إلاّ بالعودة إلى الإسلام في ينابيعه الأولى لآستلهام الحلول منه، مع ضرورة تجديد فهم الإسلام والتّفاعل الإيجابي مع متطلّبات الأزمنة الحديثة.

لقد كان الشّيخ " المثقّف " ـ الذي يراقب تلك خدعة بورقيبة ـ وفيّا للدّين ومواليا للعقيدة، فوضع علمه وخبرته ومهاراته في خدمة المسلمين لا في خدمة جهات سياسيّة معيّنة، منسجما مع مقولة إنّ المثقّف هو ضمير الأمّة، وكائن حرّ ومتمرّد على الاستبداد، يحمل فكرا مستقلاّ، ولا يكون أبدا في خدمة أحد.

كان الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور رحمه الله تعالى يرى عواقب هرج حكم البورقيبي ولم ير وعود " إنجازاته "، كما رآه متألّما يزاحم الإسلام و" أدة " تنفيذ مخطّط فرنكوفونيّ ، كما رآه أيضا " زعيم " دولة تكاد تضع نفسها في موضع الخالق الرّازق المدبّر. كما انتبه الشّيخ أنّ الحبيب بورقيبة المتستّر ــ تحت مظلّة الحداثة والدّولة الحديثة ــ ليس هو إلاّ " أداة " اجتثاث خطير ومدمّر لهيكلة خصوصيّات مجتمعنا التّونسيّ المسلم، فأسرع إلى قطع الطّريق أمام هذه الخطّة، فحدّد ميدان عمله الإصلاحي وقرّر أن يكون على مدى بعيد " استراتيجيّ " في الحقل العقدي والفكري والاجتماعي والتّعليميّ والتّربوي ، لذلك دفع عجلة التّغيير في المجالات الفكريّة والتّربويّة والاجتماعيّة. فكتب كثيرا في وجوب تحكيم الدّين، وضرورة وجود ولاّة يُنفّذون الشّريعة، ومما قاله في هذا الصدد: " أنبأنا استقراء الشّريعة من أقوالها وتصرّفاتها بأنّ مقصدها أن يكون للأمّة ولاّة يسوسون مصالحها ويقيمون العدل فيها وينفّذون أحكام الشّريعة بينها ولهذا تعيّن إقامة ولاّة لأمورها وإقامة قوّة تعين أولئك الولاّة على تنفيذها ... فلا جرم أن كان من أهمّ مقاصد الشّريعة بعد تبليغها إقامتها وحراستها وتنفيذها. ولذلك لزم إقامة علماء للشّريعة لقصد تبليغها وإقامتها، قال تعالى: (فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ) [555] ، وفي الحديث أنّ رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم قال لبني ليث حين وردوا عليه: " فَارْجِعُوا إِلَى

[555] التّوبة 123.

أَهَـالِيكُمِ فَـأَقِيمُوا فِـيهِمْ وَعَلِّمُـوهُمْ " [556]... وتعـيّن إقامـة وُلاّة لأميرهـا وإقامـة قـوّة تُعـين أولئـك الـوُلاّة علـى تنفيـذها، فكانـت الحكومـة والسّـلطان مـن لـوازم الشّـريعة لـئلاّ تكـون في بعـض الأوقـات معطّلـة .... "[557]. كمـا ضـبط ـ رحمـه الله تعـالى ـ الشّـروط المهيّئـة لإقامـة الشّـريعة فقـال:" إنّ أهـمّ المقاصـد لتهيئـة إقامـة الشّـريعة وتنفيـذها هـو بـثّ علومهـا وتكثـير علمائهـا وحملتهـا "[558]. وهـذا ـ وحـده ـ يكشـف عبقريّـة ابـن عاشـور في نظرتـه الاستشـرافيّة البعيـدة المدى، كيف لا وهو إمام المقاصد وشيخ فقه المآلات في عصره ؟

ومهمـا يكـن مـن أمـر فالشّـيخان ـ رحمهمـا الله تعـالى ـ همـا إمامـان كبـيران مـن أيمّـة الـدّعوة جليلاً القدر صاحبًا فضل عظيم على الأمّة الإسلاميّة في هذا العصر بعد الله عزّ وجلّ.

---

[556] صـحيح البخـاري. ط: 1. المكتبـة السّـلفيّة. القـاهرة. س: 1400هـ - 1980 م. حـديث رقـم: 7246 . و صـحيح مسـلم. ط: 1. دار إحياء الكتب العربيّة. دمشق. سوريا. س: 1374هـ . 1954 م. حديث رقم: 674.

[557] الشّـيخ محمّد الطّـاهر ابـن عاشـور. مقاصـد الشّـريعة الإسـلاميّة. ط: 1. نشـر: الشّـركة التّونسـيّة للتّوزيـع. سـنة 1978. تـونس. ص: 193.

[558] المرجع السّابق. ص : 194.

الفصل الرّابع: معالم لرؤية إصلاحيّة

المبحث الأوّل: الموقف من الرّؤيتين

المبحث الثّاني: رؤية إصلاحيّة مقترحة

تمهيد:

عالج الشّيخان . رحمهما الله . الأسس العقائديّة والفكريّة والاجتماعية والسّياسيّة والاقتصاديّة التي يقوم عليها نظام مجتمعيهما، والقوانين التي راعاها الإسلام لتأسيس مجتمعه الفاضل بالدّين. وأنّ الإصلاح العقائدي والفكري هو الأساس الثّابت لكلّ إصلاح مجتمعي، فاتّفقا على أنّ السّبب الأساس في تأخّر المسلمين وتخلّفهم يعود إلى ضعف العقيدة الدّينيّة في نفوس المسلمين، وأنّ الإصلاح يقوم على دعائم ثلاثة وهي: إصلاح الاعتقاد وإصلاح الفكر وإصلاح العمل. وأحسب أنّ مسألة الاختلاف بينهما كانت هيكليّة تقوم على اختلاف في فهم الدّين، ترتّب عليه معادلة: هل عمليّة الإصلاح توقيفيّة أم اجتهاديّة؟ فعند ابن عبد الوهّاب هي توقيفيّة تعبّديّة محدّدة مرسومة، فوقف عند حدودها سلفا، ويرى ابن عاشور أنّها اجتهاديّة، فتفاعل مجتهدا مع واقع شديد التّعقيد، فكان مشروعه الإصلاحي مختلفا عن الأوّل!.

المبحث الأوّل: الموقف من الرّؤيتين

لئن اتّفق الشّيخان في وصف الدّاء، وتوصيف الدّواء وهو أنّ إصلاح وضع الأمّة في كلّ مناحي حياتها لا بدّ أن ينطلق بإصلاح دينيّ كمدخل أساسيّ ومنهجي، فقد اختلفا منهجيّا في ضبط الأولويّة المطلقة من أين يبدأ الإصلاح، لطبيعة المصادر والمرجعيّة الفكريّة لكلّ منهما. ففي الوقت الذي يرى ابن عاشور أنّ عمليّة الإصلاح تخضع لعمليّة الاجتهاد، يرى ابن عبد الوهّاب أنّ المسألة محسومة ابتداء ولا تخضع للاجتهاد أبدا.

إنّه ولئن حافظ الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب على صفاء العقيدة ونقاء المنهج، ويكفيه هذا إصلاحا وهو لا شكّ أعظم مكسب يُحسب له. كما كانت حركته أكثر وضوحا في تمسّكها بالتّوحيد وتعظيم السّنّة وحتميّة التّحاكم إلى الشّريعة وإقامة الدّين، وأيضا في نقضها لقضايا الشّرك وفي تصفية العقائد من البدع والمحدثات، و جعلت ذلك العمل مدخلها الأساس والوحيد للإصلاح السّياسي والحضاري العام. فإنّ المنهج الإصلاحي الذي سلكه الشّيخ ابن عاشور لم يكن شديد الوضوح في معالجة الجانب العقدي، وهو الذي قرّر أنّ السّبب الأكبر لتخلّف المسلمين هو انحرافهم في العقائد، إلاّ أنّه لم يَظهر اعتناؤه بالعقيدة بشكل واضح كما وضح عند ابن عبد الوهّاب، بل انصبّ اهتمامه بوضع أولويّته المطلقة في إصلاح الفكر الإسلامي: تأصيلا وتعليما، كشرطين لمدخل الإصلاح الدّيني، تماما كما فعل مارتن لوثر في إصلاحه الدّيني البروتستانتي الذي قام به. ولذلك يمكن أن نقول: إنّ ابن عاشور انطلق في إصلاحه بإعلاء المنهج العقلي، لمعالجة " الأزمة " التي أطاحت بالفكر الإسلامي فأصيب بالنّضوب والتّقليد والانكسار، حتّى يصير ندّا للاشتباك الثّقافي مع الغرب، كما نحا المنهج التّوفيقي بين الإسلام ومنجزات تجربة الحضارة الغربيّة، وهو منهج يذكّر بعلم الكلام الذي حاول أن يقف ضدّ الفلسفة والأديان الضّالة.

كما ينبغي أن نُسجّل أنّه قد وجدتُ في بعض كتاباته ما لم يَحكمها المنهج " الأكاديمي "، بل وَجَّهَتْه قناعات مُسبقة للشّيخ، ممّا جعله يُخضع النّصّ ويُوجّهه وجهة تأويليّة لحساب

تلك القناعات. و من الأمثلة على ذلك قوله في ما ورد في السّنّة الصّحيحة من منع النّساء من الوصل والنّمص والتّفلّج، فقال رحمه الله: " تلك الأحوال كانت في العرب أمارات رقّة حصانة المرأة، فالنّهي عنها نهي عن الباعث عليها أو عن التّعرّض لهتك العرض بسببها "[559]. وَهذا .كما أسلفنا . غيرُ صحيح لأنّه يؤدّي إلى ردّ النّصوص ورفضها بتأويلات بعيدة.

إنّ الذي أستطيع تقريره أنّ الإمامين مصلحان ومجدّدان كبيران، ترك كلّ منهما مكتبة ضخمة، تخصّص الأوّل في العقيدة، وتوسع الثّاني في موسوعة إصلاحيّة شاملة. أَحْيَى الأوّلُ التّوحيدَ الخالصَ وأظهره، و قضى في بلده على مظاهر الشّرك والبدع. وقدّم الثّاني رؤية إصلاحيّة متكاملة، كما قدّم أيضا إضافات مقاصديّة مهمّة، كتنصيصه على أنّ المجتهد لا يمكنه الاستغناء عن المقاصد، في أيّ وجه من وجوه الاجتهاد بل هي لازمة له.

كما لا يفوتني أن أُقرّر أنّ الإمام محمّد ابن عبد الوهّاب لم يكن عالما بالشّريعة فحسب، بل كان أيضا عالما بطبيعة الإستبداد وبسبيل القضاء عليه. ومن أبرز ذلك السّبيل تكوين " عصبيّة " عقديّة في نفوس أتباعه. ومن لم يفعل ذلك وجهل تلك الحقيقة أو استبعدها فقد فتح على نفسه وعلى أتباعه خاصّة أبواب جهنّم من الشّرور والذّلّ والضّنك والشّقاء والكرب. يقول ابن خلدون: " ثمّ اقتدى بهذا العمل بعدُ كثيرٌ من الموسوسين، يأخذون أنفسهم بإقامة الحقّ، ولا يعرفون ما يحتاجون إليه في إقامته من العصبيّة، ولا يشعرون بمغبّة أمرهم، ومآل أحوالهم، والذي يحتاج إليه في أمر هؤلاء، إمّا المداواة إن كانوا من أهل الجنون، وإمّا التّنكيل بالقتل أو الضّرب إن أحدثوا هرجًا، وإمّا إذاعة السّخرية منهم وعدُّهم من جملة الصّفّاعين ". أي: الكذّابين "[560].

كما لا يفوتنا أن نسجّل أنّه لئن وافق الحظّ ابن عبد الوهّاب، فقد وقفت تحدّيات ضخمة عطّبت تحقيق مشروع ابن عاشور الإصلاحي.

لقد اتّفق الشّيخان في الأهداف واختلفا في المنهج. ولتفسير الاختلاف بينهما فإنّه

---

[559] محمّد الطّاهر ابن عاشور. تفسير التّحرير والتّنوير. ط: س: 1404 هـ - 1984م. الدّار التّونسيّة للنّشر.تونس.(5 / 205).
[560] المقدّمة. ابن خلدون عبد الرّحمن. ط:2. دار العلم. بيروت. س: 1389هـ - 1969 م. ص.160.
الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور. مقاصد الشّريعة. ط: 1. الشّركة التّونسيّة للتّوزيع. س: صفر 1398 هـ - جانفي 1978 م. تونس. ص 96.

لا بـدّ أن نؤكّـد علـى الخصوصـيّات القطريّـة التّاريخيّـة الـتي تختلـف بـين البلـدين، والـتي أثّـرت بدورها في الإمامين، وأحسب أنّ خصوصيّات كثيرة كانت وراء اختلافهما، لعلّ أهمّها:

ـ **طبيعـة شخصـيّة الـرّجلين المختلفـة**، حيـث عكسـت كـلّ شخصـيّة مفصـلا فكريّـا متميّـزا لكـلّ منهمـا، فقـد كـان ابـن عبـد الوهّـاب ذا شخصـيّة غـير مهادنـة، في حـين عـرف ابـن عاشـور بالتّوفيقي السّاكن.

ـ **اخـتلاف التّكـوين بـين الشّـيخين**، هـذا سـلفيّ أثـريّ، وذاك أشـعريّ " عقـلاني "، ذلـك أنّ ابـن عبـد الوهّـاب كانـت دعوتـه إعـادة النّـاس إلى تحقيـق التّوحيـد الخـالص الـذي كـان عليـه السّـلف الصّـالح، فقـد سمّـى أتباعـه دعوتـه بالـدّعوة السّـلفيّة. كمـا كـان منهجـه ـ كمـا بيّنّـا مـن قبـل ـ قائمـا علـى الـدّليل مـن الكتـاب والسّـنّة. أمّـا فيمـا يتعلّـق بـآبن عاشـور، فـإنّ النّـاظر إلى العنـوان الأصـلي لـتفسيره:" وسمّيتـه تحريـر المعـنى السّـديد، وتنـوير العقـل الجديـد مـن تفسـير الكتـاب المجيـد واختصـرت هـذا الاسـم باسـم " التّحريـر والتّنـوير مـن التّفسـير "[561]، ويتأمّـل في الألفـاظ الأربعـة التّاليـة: (تحريـر، تنـوير، عقـل، جديـد) يـدرك ـ دون عنـاء بحـث ـ أصـوله الفكريّـة القائمـة علـى الأصـالة والمعاصـرة، وهـذا هـو مسـلك الأشـاعرة الـذي عُرفـوا بـه وهـو التّوفيـق بـين النّقل والعقل.

ـ **اخـتلاف بيئـة الـرّجلين**: لا ريـب في أنّ السّـياقات التّاريخيّـة والمحـيط الثّقـافي والفضـاء الـدّيني في الحجـاز لم يكـن متطابقـا مـع بيئـة تـونس الـتي شـهدت مكوّنـات معرفيّـة مختلفـة ومتنوّعـة ومتضـادّة. بـل شـهد أيضـا غلبـة المحتـلّ المخاصـم للإسـلام، كمـا أنّـه لم يجـد في الإسـلام مـا يحـول بينـه وبـين الإفـادة مـن المعـارف الإنسـانيّة الحديثـة الجيّـدة بغـضّ النّظـر عـن مصـدرها، سـواء كانـت غربيّـة أم شـرقيّة. وأحسـب أيضـا أنّ العلاقـة الجيّـدة لابـن عاشـور بعلـم الكـلام قـد ساعده على الأخذ من الآخر والتّعايش معه وسندا في الدّفاع عن آرائه.

ـ **الوضـع السّياسـي** في نجـد كـان متّسـما بالتّجزئـة والتّفـرّق والتّشـرذم إلى إمـارات وأقـاليم في حـروب مسـتمرّة، وكانـت شـبه معزولـة عـن الخلافـة العثمانيّـة. أمّـا الواقـع السّياسـي

---

[561] محمّد الطـاهر ابـن عاشـور. التّحريـر والتّنـوير. الـدّار التّونسـيّة للنّشـر. تـونس 1404 هـ - 1984 م. فـي مقدّمـة تفسـيره. (1/ 8 - 9).

والثّقافي لعصر الشّيخ ابن عاشور، فقد شهد مرحلتين:

1 . مرحلة الاستعمار المباشر وامتدّت بُعيد ولادته سنة 1879 م إلى حدود 1956م.

2 ــ مرحلة ما بعد خروج المستعمر عسكريّا إلى وفاته سنة 1973 ميلادي، وقد عُرفت المرحلة الأولى بضعف الخلافة العثمانيّة وبداية انحلالها إلى دويلات وبتفوّق المدّ الاستعماري وتوغّل النّفوذ الأجنبي داخل البلد، عبر تدخّل الرّقابة الماليّة الأجنبيّة انتهت بالتّدخّل العسكري المباشر. كما كثر في تونس الفساد والارتشاء وعمّ التّوتّر الاجتماعي وأُثقل كاهل التّونسيين بالضّرائب، كما تفشّى الجهل وتفتّت الرّابطة الدّينيّة الجامعة وارتدّت إلى بقايا المفاهيم الضّيّقة المستندة إلى العروشيّة والعصبيّة القبليّة. يصف الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور الوضع الفاسد وهو يخوض أمواج بحار عمليّة إصلاح التّعليم الزّيتوني، فيقول:" ولطالما كنت أقدّم رجلا وأؤخّر أخرى واعلم أنّ نور عقلي هو دون إضاءة هاته المجاهل التي صفدت عليها منافذ الأنوار والأهوية الخالصة فامتلأت بالحوامض الرّديئة منذ أزمان "[562].

ــ شهدت حركتهما الإصلاحيّة مفارقة ناقضة بين التّجربتين، ففي حين كان العامل السّياسي هو وراء تعطيل مشروع ابن عاشور، فقد كان ذلك العامل نفسه هو وراء التّمكين لحركة ابن عبد الوهّاب.

ــ لكنّ السّبب الفارق والهامّ الواضح في فهم اختلاف الشّيخين في معالجة وضعهما بشكل عميق هو في الفهم السّلفي، ممّا جعل الشّيخين يختلفان في فهمها للإسلام.

ولأنّ قيمة المرء ما يحسن فكلاهما أحسن في مجاله، ولأنّ التّاريخ متحرّك، فكلّ منهما أجاب عن أسئلة لها علاقة بالمرحلة والزّمان الذي عايشه، فسدّ كلّ منهما ثغرة كبيرة من ثغر الإسلام، وملأ شُعبة من شُعَب الإيمان، عمل فيما وُفّق له من رزق، كما قال مالك بن أنس لعبد الله العُمَرِيّ العابِد، لما كتب إلى مالِك يحُضُّه على الانْفراد والعمل، فكتب إِلَيْهِ مَالِكٌ:" إِنَّ اللهَ قَسَمَ الأَعْمَالَ كَمَا قَسَمَ الأَرْزَاقَ، فَرُبَّ رَجُلٍ فُتِحَ لَهُ فِي الصَّلاَةِ، وَلَمْ يُفتَحْ لَهُ فِي الصَّوْمِ، وَآخَرَ فُتِحَ لَهُ فِي الصَّدَقَةِ، وَلَمْ يُفتَحْ لَهُ فِي الصَّوْمِ، وَآخَرَ فُتِحَ لَهُ فِي الجِهَادِ

---

[562] ابن عاشور محمّد الطّاهر. أليس الصّبح بقريب؟ نشر مشترك: دار سحنون للنّشر والتّوزيع. دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة. ط: 3. س: 1431 هـ - 2010 م. تونس. ص: 13.

ولم يفتح له في الصّلاة. ونَشْرُ العِلْمِ مِنْ أَفْضَلِ أَعْمَالِ البِرِّ، وَقَدْ رَضِيْتُ بِمَا فُتِحَ لِي فِيْهِ، وَمَا أَظُنُّ مَا أَنَا فِيْهِ بِدُوْنِ مَا أَنْتَ فِيْهِ، وَأَرْجُو أَنْ يَكُوْنَ كِلاَنَا عَلَى خَيْرٍ وَبِرٍّ ويجب على كلّ منّا أن يرضى بما فتح له. والسّلام "[563].

كما أنّي أزعم أنّه لأسباب تتعلّق بجغرافيا مبعث الرّسالة الخالدة، وبروحانيّة مكان مهبط الوحي، فلا يمكن أن تقوم بتلك البقعة المباركة حركة إصلاح وحضارة إلاّ تحت راية التّوحيد الخالص، وأن تنطلق من داخل الجزيرة بعلومها ومعارفها وأدواتها، وأنّ كلّ حركة إصلاحيّة في المنطقة ينبغي أن تنطلق خارج قبضة التّأثّر بأجواء الصّراع الدّولي. فقد ترتّب على العمل الإصلاحي (**العقدي / السّياسي**) تميّز قطيعة نفسيّة سياسيّة حفظ لها نقاءها الرّوحي، فظلّ حراكها السّياسي والدّيني والاجتماعي مرتبطاً لاستجابات داخليّة، ولم يكن ردّ فعل لضغوطات خارجيّة، ولعلّ حركة محمّد بن عبد الوهاب كانت آخر محطّات التّصحيح والتّأصيل الذي أفرزته سياقات داخليّة عفويّة، غير مرتبطة بمُخطّطات، وكانت نوعاً من التّواصل الحضاري مع تواصل الدّاخل الإصلاحي الذي أسّسه ابن تيميّة وابن القيّم وابن كثير وغيرهم.

ـ كلّ من الشّيخين نهل ضمن خصوصيّة جغرافيّته ومجتمعه وبيئيّته الفكريّة، وخضع لتأثير السّياق التّاريخي السّياسي الاجتماعي ممّا أثّر ذلك في منهج فكر كلّ واحد منهما في فهم الواقع الذي عالجاه، ووضع أولويّات حركة إصلاحه، ممّا كان له شديد الأثر في اختلاف انتاجهما الفكري وأدائهما الحركي. فابن عاشور تأثّر بروح عصره، الذي ذكا فيه الصّراع مع المحتلّ ومع أتباعه، فاستدرجته روح العصر إلى خوض صراع حضاري وثقافي مع غرب مستعمر لم يشهده ابن عبد الوّهاب، فرتّب له أولويّات لم يرتّبها ابن عبد الوهّاب لآختلاف التّحدّيات، فانطلق في مواجهة حرب الأفكار بمساهمات اجتهاديّة ضخمة وفي تطلّعات إصلاحيّة ترجمت عن نفسها في إضافاته العلميّة النّوعيّة وفي مواقفه الشّجاعة، ثمّ بالإجابة على أسئلة فرضت نفسها على النّخبة لا على المجتمع، بينما ظلّت الأرض التي كان يتحرّك عليها ابن عبد الوهّاب ساكنة لم يتدخّل فيها الأجنبيّ، إلاّ أنّه

[563] ابن عبد البرّ : التّمهيد دار الحديث- القاهرة. ط: 1427هـ - 2006 م . (8 / 115).

أجـاب علـى معضـلة مجتمـع انـتكس إلى الجاهليّـة تقريبـا، فوضـع أولويّتـه القصـوى الإصـلاحيّة علـى أصـل أصـول الـدّين " التّوحيـد "، رافضـا أن ينجـرّ إلى الفرعيّـات الجزئيّـة مـن دون مسـوغ راجـح أو أكيـد، فحصـر كـلّ حياتـه لـذلك الأمـر، ولكأنّـه خلـق لـه، فلـم يغـيّر اتّجـاه بوصـلة الثقافة الدّينيّة الإصلاحيّة.

أمّـا محمّـد الطّـاهر بـن عاشـور . رحمـه الله . فقـد تكـاد مباحثـه انحصـرت في " الفـروع " مـن نـوع الاجتهـاد والتّربيـة وقـدرة الإسـلام علـى المقاومـة الشّـاملة، ومحـاورة الغـرب منطلقـا مـن المتـاح لـه في عصـره مـن معـارف، أمّـا مسـائل التّوحيـد والعقيـدة فهـي قليلـة جـدّا بالنسـبة لبحوثـه وكتبـه، قياسا بما عليه ابن عبد الوهّاب . رحمه الله ..

الاتّفاق الأبرز بين المدرستين

ولا يفوتني أن أُذكّر بأنّ كلا المدرستين (ابن عبد الوهّاب السّلفيّة المشرقيّة وابن عاشور الأشعريّة المغاربيّة) اتّفقتا على أنّ الإسلام هو منهج حياة وأنّه دين ودولة وأنّه عقيدة وشريعة لا بدّ أن يكون شريعة الأمّة بلا منازع، وعلى هذا اتّفق مشايخ التّيّارين، وإليك بعضا من نصّ محضر " اجتماع كبار علماء الإسلام في مكّة لتقرير ما يلزم اتّخاذه لإصلاح الشّعوب الإسلاميّة " ، ومن أبرز ما جاء فيه : " قصد صباح يوم 2 ذي الحجّة الحرام عام 1373 أصحاب الفضيلة والسّماحة الشّيخ محمد العزيز جعيّط شيخ الإسلام المالكي بتونس، والشّيخ حسنين محمد مخلوف مفتي الدّيار المصريّة السّابق وعضو جماعة كبار العلماء، والشّيخ محمد الشّاذلي ابن القاضي الأستاذ بجامع الزيّتونة إلى دار صاحب السّماحة الشّيخ محمد بن إبراهيم آل الشّيخ المفتي الأكبر للمملكة العربيّة السّعوديّة لزيارته وتوثيق عرى المودّة... وممّا اتّفقت عليه الكلمة في هذا الاجتماع أنّ الأساس الأوّل الذي يجب أن يكون دستور الحكومات الإسلاميّة عامّة ومرجعها في مختلف الشّؤون هو كتاب الله تعالى وسنّة رسوله صلّى الله عليه وسلّم، فبهما وحدهما النّجاة من الشّرور والفوز بالخير، وفيهما ما يكفل سعادة الفرد والأمّة. ففيهما أصول الحكم العادل لمن شاء أن يستقيم وقواعد السّياسة الرّاشدة والمعاملات الماليّة السّليمة من جراثيم الرّبا الفتّاكة والفساد الذّريع. وفيهما أسس الفضائل الاجتماعيّة وحقوق الفرد والجامعة والواجبات على كلّ منهما.

وعلى الجملة فإنّ كفالة شريعة الإسلام القائمة على هذين الأصلين سعادة الفرد والمجتمع في كلّ عهد وزمان ممّا لا يحتاج إلى برهان.وقد بعث الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بهما فما انقضى على دعوته ثلاث وعشرون سنة حتّى أشرق نور الإسلام في الآفاق وتبدّد الظّلم والشّرك والجهل أيدي سبأ وقامت أقوى دولة وأعزّ أمّة عرفها التّاريخ وخضع لها الدّهر في ظلّ هذه التّعاليم الحقّة الرّاشدة. فليسلك المسلمون شعوبا وحكومات جادّة أسلافهم

وليتدبّروا قوله تعالى: (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[564]. وليعلموا شعوبا وحكومات أن لا عزّ ولا مجد ولا نصر ولا فوز إلاّ بالاعتصام بحبل الله المتين كما يشير إليه قوله تعالى: (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ)[565]،(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)[566] وأنّ العون الإلاهي والتّأييد الرّبّاني مرهون بطاعة الله والعمل بشريعته والوقوف عند حدوده (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)[567]، وممّا تناوله البحث أمور هامّة:

أوّلا : وجوب تثقيف النّاشئة في الأقطار الإسلاميّة تثقيفا إسلاميّا صحيحا وتعليمها ما لا بدّ منه من كتاب الله تعالى وأحكامه حتّى تقوى على مقاومة تلك التّيّارات الجارفة وينشأ الجيل الجديد على خير وهدى ومنجاة من الشّرور.

ثانيا: التّسلّح القويّ بما تُنازل به الشّعوبُ الإسلاميّةُ وحكوماتها خصومَهم في ميدان الكفاح والجهاد في هذا العصر. وقد أمر الإسلام بإعداد القوّة ولم يحدّدها وإنّما ضرب لها الأمثال ليستعدّ المسلمون في كلّ عصر بما يناسبه ويحميهم من العدوان والشّرور وعلى قاعدة إذا طلبت السّلم فآستعدّ للحرب. ثالثا: وجوب قيام الفرد بما في استطاعته وقيام الحكومات بما فوق طاقة الأفراد لإعزاز الدّين والأمّة (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)[568].

رابعا: قيام العلماء بواجبهم الدّيني علما وعملا وتعليما وإرشادا ونصحا للأئمّة المسلمين وعامّتهم حتّى تكون حقيقة ما بعث الله له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بين المسلمين في غاية الوضوح وحتّى يعود المسلمون إلى مجدهم الأوّل ويكونوا يدا واحدة على من سواهم في إعلاء كلمة ربّهم "[569].

---

[564] الأنعام : 153.

[565] الحجّ : 40.

[566] محمّد : 7.

[567] البقرة : 229.

[568] المنافقون : 8.

[569] المجلّة الزّيتونيّة (عدد 9 ج 2 سنة 1955م ص : 83 . 84).

المبحث الثّاني: رؤية إصلاحيّة مقترحة

لا نختلف في أنّ لكلّ مشروع إصلاحيّ خلفيّته الفكريّة والعقديّة، وهذه الخلفيّة هي المحرّك الفعليّ والمؤثّر الأبرز لرسم الآراء والأفكار والمواقف وخطّة العمل وأهدافها واستراتيجيّاتها. وإنّ " نخبة " الأمّة التي شردت عن دينها شرعة ومنهاجا ـ وقد كان سبب هدايتها واجتماعها وانطلاقها الحضاري . تحتاج إلى:

ـ **أوّلا:** وضع ميثاق إسلامي برؤية إصلاحيّة ناضجة وواضحة وواعية ترتكز على تشخيص جيّد للواقع المراد إصلاحه، لوضع خطّة مناسبة تستجيب للحاجيّات الملحّة لكلّ مرحلة.

ـ **ثانيا:** الاتّفاق على عقد ولاء أخلاقي مشترك بين المصلحين المسلمين.

ـ **ثالثا:** إصلاح دينيّ وسياسيّ واجتماعيّ واقتصادي وفكريّ على أساس العقيدة. وإنّما وقع الإشكال في المشاريع الإصلاحيّة من جهة تقديم نوع من الإصلاح كأوليّة على الإصلاح العقدي، أو بناء الإصلاح على منهج مخالف للأنبياء القدوة الذين أمر الله تعالى باتّباعهم، فقال في أكثر من آية: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً)[570]، (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ) [571]، (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)[572]، (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ)[573]، (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)[574]، (فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ) [575]، (قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ

---

[570] الأحزاب : 21.
[571] الممتحنة : 4.
[572] الممتحنة : 6.
[573] الأنعام 91.
[574] الأنفال65.
[575] آل عمران 20.

عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)[576].

إنّ صلاح الخلق لا يكون إلاّ بإصلاح العقيدة، ومن أجل ذلك أنزل الله تعالى القرآن، قال ابن عاشور:" المقاصد الأصليّة التي جاء القرآن لتبيانها بحسب ما بلغ إليه استقراؤنا ثمانية أمور: الأوّل: إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصّحيح. وهذا أعظم سبب لإصلاح الخلق، لأنّه يزيل عن النّفس عادة الإذعان لغير ما قام عليه الدّليل، ويطهّر القلب من الأوهام النّاشئة عن الإشراك..." [577].

. **رابعا:** ينبغي أن يتصدّر لتوجيه الشّباب أهل العلم الورع والعلم والاستقلال من التّحزّب

والتّحرّر من التّبعيّة إلاّ للحجّة والدّليل من الدّين، ذلك أنّ أصل منشأ الفتن في الدّين ممّن لم يرسخ في علم الشّريعة، وأفتى من ليس له علم.

ـ **خامسا:** إنّ أعظم ما يجب التّواصي به بين الدّعاة والعلماء الذين همّوا بإصلاح وضع الأمّة ترسيخ العقيدة فيها، وبثّ الرّوح الإيمانيّة في المجتمع وتربيتهم عليه، وجعل ذلك أولويّة مطلقة. ولأنّه كلّما كانت الدّعوة مرتبطة بالعقيدة والتّوحيد والالتزام بها كان ذلك أحرس للدّين الجامع، وأقرب لحماية وحدة الجماعة. إنّه متى زاغت العقيدة انحطّ ما بعدها من تصوّرات ومناهج وقيم، قال سيّد قطب رحمه الله تعالى: " ولكنّ العقيدة متى زاغت لم يفطن أصحابها إلى ما تنحطّ إليه عبادتهم وتصوّراتهم ومقولاتهم " [578].

ـ **سادسا:** ينبغي أن لا تساوم تلك الفئة على سلامة المنهج (وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ)[579]. ولا تسلك مسلك منهج السّلامة، فتقدّم منهج إرضاء المبطلين، فتتورّط في نشر فكر رماديّ مثخن بالتّنازلات المنهجيّة المذلّة، ومحبط بتذويب الفروق العقديّة، ومستسلم للضّغوط فتعتمد تبرير أخطاء المجتمعات، وتستغيث بالتّأويل المتكلّف، فتتلمّس الشّواذّ من الآراء والفتاوى، والتّذاكي بالحياديّة في معركة كسر العظم مع الموجات العلمانيّة والبدعيّة. ومن خضع لإرضاء الخصوم أو استسلم أمام الحظوات الشّخصيّة

---

[576] يوسف : 108.
[577] مقدّمة تفسيره بتصرّف ص 40 - 41.
[578] سيّد قطب. في ظلال القرآن.ط: 15. دار الشّروق. القاهرة. المجلّد الخامس. (19 / 2602)
[579] المائدة : 50.

وضغوط الواقع المحلّي أو الخارجيّ، وجعله أصلا يحتكم إليه دون الوحي، فقد هدّم أهمّ عناصر قوّة وسلامة المنهج، فيخسر بذلك الالتزام الصّحيح بالوحي، كما يخسر أيضا التّأثير الحقيقي في المجتمع.

ـ **سابعا:** ينبغي أن تقصد الفئة المعنيّة بحركة الإصلاح التّغيير الشّامل لقضايا المجتمع، فتؤسّس كما بيّنّا من قبل على القاعدة الصّلبة من الإصلاح العقدي والإيماني، ثمّ تهتمّ بالعمل ثمّ بتوزيع الأدوار في الاشتغال بمحاور وقضايا الإصلاح يكون من التّخصّص المحمود، والتّنوّع المطلوب، والتّعدّد المفيد، ذلك أنّ الأمّة تحتاج لكل جهد مفيد داخل إطار تعظيم النّص الشّرعي وتحقيق الأخوّة، والالتزام بتوحيد الجهود وعدم التّنازع، فالإيمان كما جاء في الصّحيح هو بضع وسبعون شعبة، كلّ فئة تلتزم بشعبة من شعبه وتتقن فيه (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ) [580]. مصداقا لقوله تعالى: (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ)[581]. (وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ)[582]، (وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)[583].

ـ **ثامنا:** أن تتوجّه حركة الإصلاح إلى كلّ فئات المجتمع، رافعة لـ" الشّعار " النّبويّ :" الدِّينُ النَّصِيحَةُ! قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: " للهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ "[584]. فتشمل عمليّة الإصلاح الجميع ولا تركّز على جانب نمطيّ معيّن أو تحصرها في ركن ضيّق، فلا بدّ أن تنتشر في كلّ مجالات معاش الإنسان وحقوقه وحرّيّاته والفكر المعاصر وقضايا الثّقافة والتّنمية والعدالة والسّياسة والاقتصاد والعلوم الإنسانيّة وغيرها من المجالات، عملا بالقاعدة السّابق ذكرها وهي أنّ كلّ هذه المجالات إنّما هي شعب إيمان ينبغي أن تشتغل كلّها، فلا نُفرط في مجال واحد فيقع التّفريط في المجالات الأخرى. إذ حصر العمل في المجال التّربوي قد يُخشى أن تصير حركة الإصلاح حركة صوفيّة، وأيضا قد يصير الإفراط في المجال الاجتماعي فيُحوّل الحركة الإصلاحيّة حركة إغاثيّة. وكذلك في السّياسية خشية أن يشغل الصّراع اليومي عن العلم والتّربية ودعوة النّاس وإصلاح أحوالهم.

---

[580] الإسراء 84.
[581] التوبة 106.
[582] الزّمر 10.
[583] المطفّفين 26.
[584] صحيح مسلم بشرح النّووي. كتاب الإيمان. ط: 1. دار الكتب العلميّة. بيروت. 1415 هـ - 1995 م. (2/ 32) رقم : 55.

ـ **تاسعا**: أن تحدّد (مضغة) الإصلاح وتنطلق إلى العمل في اتّجاهها. وأحسب أنّ منطلق كلّ إصلاح صحيح وشامل لا بدّ أن ينطلق من إصلاح الفكر. من أجل هذا كان أوّل ما نزل من منهج يقطع مع الجاهليّة هو الدّعوة إلى تحرير الفكر عبر القراءة. والنّزاع بين الإسلام والجاهليّة له شقّان نزاع مسلّح ونزاع ثقافات وهويّات، ومن انتصر في ساحة الفكر تكون له الصّولة في النّهاية. من أجل ذلك اشتغل القرآن الكريم في افتتاح باكورة المنهج في ساحة العقيدة والفكر.

وليست القراءة التي دعا إليها القرآن الكريم هي القراءة السّاذجة التي تستهدف أن يفكّك فيها القارئ حروف النّصّ القرآني، ذلك أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أمّيّ لا يقرأ ولا يكتب، ولكنّها قراءة تستهدف اجتثاث معاني الجاهليّة من جذورها عبر تحرير العقل بقراءة متدبّرة راقية تقوم على العمق والشّمول والوضوح لتنشئ فكرا واعيا يثمر تغييرا هيكليّا في ضمير الفرد والأمّة. ولأنّ القرآن نزل لإحداث تغيير هيكليّ جذريّ وشامل من الجاهليّة إلى الإسلام، ومن الظّلم إلى العدل. فقد كانت الدّعوة إلى القراءة إشارة واضحة إلى أنّ أساس التّغيير السّليم لا بدّ أن ينطلق من قراءة واعية وصحيحة وعميقة وشاملة، تغيّر فكر الإنسان فيتغيّر بها ضميره، وتحوّل خطّ إصلاح فكره وإصلاح ضميره عبر ضبط جهة تلقّى الشّرعة والمنهج والتّصوّر للوجود وللحياة وللقيم والموازين، والتّخلّي عن الاستمداد من الأهواء. وهذا هو الذي فعله الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، حيث حرّر الإنسان من الأهواء، وردّه إلى معبوده، فحصل أعظم تحوّل إنسانيّ ضخم في خطّ التّاريخ الإنساني.

لقد تفطّنت قوى الشّرّ المتحكّمة في العالم أنّ صناعة عقول النّاس بتشكيل ثقافة الولاء لها، هو أفضل أسلوب للسّيطرة على العالم، فوضعوا لتحقيق ذلك الهدف خطّة أطلقوا عليها " القوّة النّاعمة "، فاخترقوا عقول النّاس واحتلّوها بتخريب وعيهم بأسلوب إغرائي ناعم دون الالتجاء إلى استعمال القوّة " الغبيّة ". واستخدمت " القوّة النّاعمة " وسائل الإعلام الموجّهة والمؤثّرة لصناعة شعوب بلا وعي وتشكيل عقول تَصيّرها أصدقاء، وصياغة ثقافة ذات مخزون حقيقي لولاء مُطلق لها.

وإنّ المتأمّل لواقع المجتمعات الإسلاميّة في هذا العصر يكتشف أنّه قد غُسّل دماغ أغلبيّة تلك المجتمعات، ممّا يقتضي بالضّرورة أن نعمل بشكل جذري وشامل على " إصلاح

التّفكير". وأحسب أنّ المناخ الفكري الهشّ الذي نعيشه اليوم لا يختلف كثيرا عن نفس الواقع الاجتماعي الذي كان يحياه شيخنا محمّد الطّاهر ابن عاشور، ولذلك اشتغل رحمه الله تعالى في ساحة العقيدة والفكر، فوضع مصطلح " إصلاح التّفكير " فقال:" استقريت نواحي إصلاح التّفكير الواردة في الإسلام استقراءًا عاجلا فانتهيت إلى ثمان نواح من أصول نجاح المرء والجماعة في المجتمع هي: تلقّي العقيدة، وتلقّي الشّريعة، والعبادة، وتحصيل النّجاة في الحالتين، والحزم، والمعاملة، والأحوال العامَّة، ومصادقة الحقّ في المعلومات...." [585].

ولأنّ القراءة التي أدعو إليها، هي التي تستهدف تغييرا هيكليّا في الأمّة، فهو الذي أشار إليه شيخنا ابن عاشور في ضبطه المقصود من إصلاح التّفكير في قوله:" أمّا إصلاح التّفكير المبحوث عنه هنا، فهو التّفكير فيما يرجع إلى الشّؤون في الحياة العاجلة والآجلة لتحصيل العلم بما يجب سلوكه للنّجاح في الحياتين كي يسلم صاحبه من الوقوع في مهاوي الأغلاط في الحياة العاجلة وفي مهاوي الخسران في الحياة الآخرة " [586].

فالمطلوب من كلّ عمليّة إصلاحيّة إسلاميّة أن تشحن خطّتها بمناعة فكريّة وحصانة ثقافيّة تصمد أمام كلّ مخطّطات الشّرّ والإفساد من جهة، كما تقدر أيضا على مقارعتها والقضاء عليها من جهة ثانية.

ـ **عاشرا**: الانطلاق من إصلاح الفرد، إذ لا يمكن تحقيق إصلاح الأمّة دون الصّلاح الفردي، لأنّ تحقّق الأدنى شرط لوجود الأعلى، وتعليل ذلك: " إنّ المجتمع البشري أو الأمّة عبارة عن مجموعة من النّاس هي كلّ ملتئم من أجزاء الأفراد، فلا جرم كان إصلاح المجتمع متوقّفاً بادئ الأمر على إصلاح الأفراد، فإذا صلحت حصل من مجموعتها الصّالحة مجتمع يسوده الصّلاح..." [587].

ـ **إحدى عشر**: إصلاح الفرد بتصحيح تفكيره ولا يكون ذلك إلاّ بإصلاح عقله ولا يصلح عقله إلاّ بالعلم: قال ابن عاشور:" الإنسان عقل تخدمه الأعضاء ولولا العقل

---

[585] أصول النّظام الإجتماعي في الإسلام. ط: 3. نشر مشترك دار سحنون للنّشر والتّوزيع. دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة. س: 1431 هـ - 2010 م. تونس. ص .49

[586] نفسه. ص 47.

[587] نفسه. ص 39.

لما كان الإنسان إلاّ بهيمة ضعيفة، فأعماله جارية في الصّلاح والفساد على حسب تفكيره ... إنّ إصلاح التّفكير من أهمّ ما قصدته الشّريعة الإسلاميّة في إقامة نظام الاجتماع من طريق صلاح الأفراد ... كلّ فرد مأمور بصحّة التّفكير في دائرة ما يحتاجه من الأعمال تفكيرا يعصمه من الوقوع في مهاوي الأخطاء سواء كان ذلك فيما يصدر عنه من الأعمال على اختلافها ابتداء من أعمال الملك إلى أعمال حملة الأمتعة وأضرابهم من أهل الأعمال الضّعيفة... فالمقدار الذي يستطيعه من التّفكير يجب عليه تصحيح تفكيره فيه "[588].

ـ **إثنا عشر**: إصلاح عقائد النّاس: إنّ أبرز أمر لا بدّ أن يُركّز عليه في إصلاح التّفكير هو إصلاح العقيدة، للعلاقة الجدليّة المتينة بين إصلاح الفكر وإصلاح العقيدة حيث جعل إصلاح أحدهما إصلاح للآخر، وبإصلاحهما يصلح الإنسان فيصلح المجتمع وبالتّالي تصلح الحياة الآجلة و العاجلة.

قال ابن عاشور:" لا جرم أنّ العقيدة أساس التّفكير وهي الفكرة الأولى للإنسان فيما هو خارج عن حاجته... فإذا رُبِّي العقل على صحّة الاعتقاد تنزّه عن مخامرة الأوهام الضّالّة فشبّ على سبر الحقائق والمدركات الصّحيحة فنبا عن الباطل وتهيّأ لقبول التّعاليم الصّالحة والعمل للحقّ "[589]. وقال أيضا:" العقيدة هي أصل الإسلام فالدّعاء إلى تصحيح التّفكير فيها تأصيل للتّفكير عند المسلم في أوّل تلقّيه للإسلام، وقد عاب القرآن عقائد الضّالّين من المشركين وغيرهم بإقامة الحجّة عليهم، وبإظهار ما في مطاوي عقائدهم من أفن الرّأي واضطراب الحجّة. ولذلك تحدّاهم بطلب الحجّة وأوقفهم على اضطراب عقائدهم ومناقضات آرائهم ثمّ إنّه نعى عليهم التّقليد..." [590].

ـ **ثلاثة عشر**: سهر أهل العلم على سلامة الفكر، إذ لا يصلح الفكر إلاّ بتوجيهات من سلمت أفكارهم ومناهجهم ابتداء ففاقد الشّيء لا يعطيه، قال ابن عاشور: " ... والمقدار الذي لا يستطيعه يجب عليه تطلب الإعانة فيه من يبلغه إلى الحقّ الصّحيح فيه

---

[588] نفسه. ص .48

[589] أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام. ط : 3 . نشر مشترك دار سحنون للنّشر والتّوزيع. دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة. سنة 1431 هـ - 2010 م. تونس. ص 46.

[590] نفس المصدر بتصرّف. ص(49 – 50).

من أهل الإرشاد في ذلك الباب، قال الله تعالى: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) [591]. فإذا سلك المسلمون هذا السّبيل الذي دلّت عليه الآية أصبح تفكيرهم سالما وعملهم كاملا.." [592].

ومتابعة لما يفعله الغربيّون، فلقد أسّس الأمريكان منذ مطلع القرن الماضي " مراكز التّفكير" أو " مختبرات الأفكار " و " نوادي التّأمّل " و " ورشات عمل " ،كمراكز صنع القرار . حشدت فيها أبرز مثقّفيها وباحثيها من فضاءات معرفيّة مختلفة ومتنوّعة لوضع خطط مستقبليّة وبرامج استراتيجيّة، ثمّ لحقتها الصّين وأوروبا في تنافس مستميت على مركز الرّيادة لتفرض بها رؤيتها الثّقافيّة وهيمنتها الإقتصاديّة والعسكريّة على العالم [593].

إنّ بلدنا في حاجة ملحّة إلى حدوث عمليّة تغيير كبرى، تقوم على إصلاح الأفكار بالعقيدة. وهذه هي خطّة الإمام العلاّمة الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور رحمه الله تعالى، حيث وضع إصبعه على حقيقة صراع الحقّ والباطل المتواصل والتي ظاهرها سياسي أو عسكري أو اقتصادي، وباطنها ديني وعقائدي. إنّها كانت حروب أفكارٍ بين عقول وقلوب، ينحاز كلٌّ منها إلى ما يراه مقدساً وجديراً بأن يُفرض على الآخرين.

---

[591] النّحل 43.

[592] أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام. ط: 3 .نشر مشترك دار سحنون للنّشر والتّوزيع. دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع و التّرجمة . سنة 1431 هـ - 2010 م. تونس. ص 48.

[593] انظر: أنيسة مخالدي. « حرب الأفكار ».. أميركا رائدة من دون منازع بتصرّف. جريدة الشّرق الأوسط . الأحد 03 رمضان 1433 هـ - 22 - يوليو 2012 العدد 12290.

خـاتمـة

لقـد اسـتجاب الشّـيخان ابـن عبـد الوهّـاب وابـن عاشـور رحمهمـا الله تعـالى لنـداءات الشّـارع العزيـز للإصـلاح ضـمن مـا يطلبـه الكتـاب والسّـنّة. فـآهتمّ الإمـام محمّـد ابـن عبـد الوهّـاب رحمـه الله تعـالى بالعقيـدة اهتمامـا بالغـا، اعتقـادا منـه أنّ السّـبب الـرّئيس للفـتن والفسـاد هـو الجهـل بالعقيـدة وتضـييعها. و مـن أبـرز مسـائلها الـتي ألحّ عليهـا الـولاء والـبراء الـتي إن تميّعـت حصـل في الأمّـة الـبلاء والكـرب. قـال الإمـام السّـعدي في تفسـيره لآيـة 73 مـن سـورة الأنفـال : (وَالَّـذِينَ كَفَـرُوا بَعْضُـهُمْ أَوْلِيَـاءُ بَعْـضٍ إِلَّا تَفْعَلُـوهُ تَكُـنْ فِتْنَـةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَـادٌ كَبِـيرٌ) :" لمـا عقـد الولايـة بـين المـؤمنين، أخـبر أنّ الكفّـار حيـث جمعهـم الكفـر فبعضـهم أوليـاء لـبعض فـلا يـواليهم إلاّ كافر مثلهم.

و قولـه: (إِلَّا تَفْعَلُـوهُ) أي: مـوالاة المـؤمنين ومعـاداة الكـافرين، بـأن واليتمـوهم كلهـم أو عـاديتموهم كلهـم، أو واليـتم الكـافرين وعـاديتم المـؤمنين.(تَكُـنْ فِتْنَـةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَـادٌ كَبِـيرٌ) فإنّـه يحصـل بـذلك مـن الشّـرّ مـا لا ينحصـر مـن اخـتلاط الحـقّ بالباطـل، والمـؤمن بالكـافر، وَعُـدم كثـير مـن العبـادات الكبـار، كالجهـاد والهجـرة، وغـير ذلـك مـن مقاصـد الشّـرع والـدّين الـتي تفوت إذا لم يتّخذ المؤمنون وحدهم أولياء بعضهم لبعض ".

لقـد بقـي الشّـيخان جـيلا بعـد جيـل حاضـرين بقـوّة في المشـهد العلمـي والـدّعوي والإصـلاحي. وإنّـه لـئن كـان الشّـيخ محمّـد ابـن عبـد الوهّـاب إمـام العقيـدة في العصـر الحـديث ومجـدّدها وأتبـع للأثـر مـن الشّـيخ محمّـد الطّـاهر ابـن عاشـور، فـإنّ ابـن عبـد الوّهـاب لم يكـن عالمـا معمّقـا في علـوم الـدّين كـابن عاشـور الـذي بـرع في شـتّى فـروع الشّـريعة رغـم شـهرته بتفسـيره الضّـخم " التّحريـر والتّنـوير "، كمـا يعتـبر ابـن عاشـور أيضـا رمـز الإصـلاح الـدّيني في تـونس إلى الآن نظـرا لغـزارة علمـه وتنـوّع مواضـيع مصـنّفاته وعمـق طروحاتـه الفكريّـة في أكثـر مـن مجـال، غـير أنّ

الحظوة كانت حليف ابن عبد الوّهاب، لأسباب عدّة من أبرزها: دعم السّلطة السّياسيّة والمادّية له، وكذلك التحام دعوته الدّينية بالعصبيّة القبليّة كما نصّ عبد الرّحمن ابن خلدون في مقدّمة كتابه أنّ العرب لا يحصل لهم الملك إلاّ بصبغة دينيّة وقوّة عصبيّة، وأيضا لأنّ أصحابه قاموا به. وهذا يذكّرني بحالة شبيهة بين الإمامين مالك بن أنس واللّيث بن سعد (ت: سنة 175 هـ/ 791 م) حيث ورد في كتاب الحافظ ابن حجر العسقلاني " تهذيب التهذيب " ما يلي: قال الإمام الشّافعي:" كان اللّيث بن سعد أفقه من مالك بن أنس، إلاّ أنّه ضيّعه أصحابه. وقال أحمد بن عبد الرّحمان بن وهب (ت: سنة 264 هـ / 877 م): سمعت الشّافعي يقول:" اللّيث أفقه من مالك، إلاّ أنّ أصحابه لم يقوموا به ".

إنّ " نموذج " الشّيخين يستدعي إعادة الاعتبار لدور العلماء في الإصلاح والتّغيير والرّيادة من أجل الانفكاك من أَسْر الحدث التّاريخي لما وقع حصْر دور أهل العلم في الفتوى ورؤية الأهلّة والعناية بالمساجد، لا في قيادة الأمّة ومؤسّساتها. إنّه النّموذج الذي ينبغي أن يحوّل الإصلاح من الصّورة الثّقافيّة والفكريّة في الضّمائر والعقول والأنفس إلى حركة اجتماعيّة سياسيّة حضاريّة ربّانيّة متألّقة، عملا بقوله صلّى الله عليه وسلّم:" كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ.." أخرجه مسلم.

وإذا كان الإصلاح نظريّا يعني تصويب ما اعوجّ، والتحوُّل من السّيّئ إلى الحَسَن ومنه إلى الأحسن، وإذا كان يعني عمليّا العودة بالمسلمين إلى الأصيل الصّافي، فإنّ هذا قد تحقّق مع ابن عبد الوهّاب، ولم يتحقّق مع ابن عاشور، ذلك أنّ الظّروف التّاريخيّة والسّياسيّة والحضاريّة لم تُسعف الأخير في تجسيد مشروعه الإصلاحي في تونس، فأجّلت اجتهاداته وجهوده الفكريّة المتقدّمة إلى أوضاع تتبنّاها الأمّة وتعنى بآفاقها الحضاريّة المعاصرة.

وإذا تبيّن أنّ المشروع الإصلاحي لآبن عبد الوهّاب قد تحقّق في أرض الواقع، فما الذي تحقّق من مشروع ابن عاشور؟ هل خضع ابن عاشور لنوع من التّطبيع مع ثقافة الأمم الأخرى ولكن بمرجعيّة إسلاميّة؟ وهل هذا النّوع من الحوار يسلم من محاولات التّوفيق المصطنع أو بالأحرى التّلفيق؟ مع أنّه خدم الشّريعة في مجالات كثيرة متعدّدة ومتنوّعة، ممّا شتّتت أعماله، فلم يفعل ما فعله ابن عبد الوهّاب الذي حصر نشاطه وجهده في محور التّوحيد دون غيره!.

لقد كان الإمام محمّد ابن عبد الوهّاب ـ رحمه الله ـ يحمل منذ انطلاقته فكرة " مشروع مجتمعي بديل وجاهز "، أمّا ابن عاشور الذي جاء في بلد له تقاليد عريقة في الاصلاح فقد اختار أن يستبق مُقاوَمة ما يُسمّى (دولة الاستقلال ومشروعها التّحديثي) الذي سعى إلى علمنة الاسلام وإبعاده عن الحكم، ولقد عضّده في هذا العمل طبقة عليا من علماء الزّيتونة يتقدّمهم العلاّمة مُحَمَّدٍ الخضر حسين وقد تجلّى ذلك خاصّة في ردّهما على المحرّف الأزهري المصري علي عبد الرّازق الذي دعا إلى مدنيّة الدّولة فوقفا بحزم ضدّ شبهاته التي وضعها في كتابه " الإسلام وأصول الحكم "، فردّ عليه العلاّمة محمّد الخضر حسين بكتاب " نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم "، كما ردّ العلاّمة ابن عاشور أيضا في مؤلّفه " نقد علمي لكتاب الإسلام وأصول الحكم ".

إنّ تحدّيات ضخمة عاشها الاسلام ومشايخ الزّيتونة وكذلك المجتمع التّونسي منذ الإحتلال العسكري الفرنسي لتونس، وتعزّزت تلك التّحدّيات وتبلورت بشكل جلّي سنة 1934 م إثر القطيعة التي حدثت بين الحبيب بورقيبة العلماني وبين الزّعيم السّياسي والمفكّر الزّيتوني " عبد العزيز الثّعالبي " (1874- 1944) ذو التّوجّه الإسلامي العربي ومؤسّس أوّل حزب سياسي تونسي معاصر طالب عبره بإستقلال تامّ عن فرنسا. فاجتمع على الشّيخ تحالف فرنسا وبورقيبة، الذي تهجّم على " الزّيتونة " وعلمائها، بل اتّهم الإسلام أنّه وراء تخلّف تونس كما شكّك في قدرة الإسلام على مجابهة قضايا العصر.

أمام هذه التّحدّيات الضّخمة، أحسب أنّ التّمشّي الذي سلكه العلاّمة ابن عاشور هو المسار الممكن والوحيد الذي يستطيع أن يقوم به، بحكم سيطرة بورقيبة على البلاد وقبضته القويّة على كلّ مفاصلها، وأيضا لغياب مسار آخر يحفظ ما تبقّى من علم شرعيّ في بلدنا ضمن مرحلة تاريخيّة مؤلمة رضي فيها الأغلبيّة لمن تغلّب بالمكر والخيانة فحكم البلاد نيابة عن المستعمر. كان بورقيبة مُتحفّزا ومُهيّأ للتّنكيل بكلّ من يقف تجاهه.

فهل اختار الشّيخ محمّد الطّاهر ـ وبوعي منه ـ رسم معالم طريق إصلاح ضخم بعيد المدى وضعه للأجيال التي بعده؟ وبوعي منه أيضاً قام بواجبه الشّرعي في التّصدّي لهجمة التّغريب الثّقافي على المجتمع التّونسي، فأسّس لحصانة فكريّة مجتمعيّة ذاتيّة تقي التّونسيّين كلّ أشكال الاختراق باسم الحداثة، فهل رأى بعين ثاقبة أنّها الخطوة الأولى ـ التي تجب في تلك

المرحلة المعقّدة ـ للعلاج والخروج من الأوضاع الحضاريّة المتردّية. إنّ الشّيخ رحمه الله تعالى لم يكن نزّاعا إلى أيّ طموح سياسي، لذلك لم يسلك المنهج التّغييري الشّامل، ولربّما أيضًا لطبيعته التّوفيقيّة التي عرف بها الشّيخ. كما أنّ المرحلة الزّمنيّة السّياسيّة الصّعبة كان لها أكبر دور في تعطيل تحقيق مشروع عمليّة الإصلاح العاشوري، إذ لم تعرف الحركة الإصلاحيّة التّونسيّة عموما والعاشوريّة خصوصا مسارا هادئا دون اضطراب ومقاومة من المحتلّ الفرنسي، أو ممّن نابها في تلك الحرب الضّروس، فلم يمكّن لها في الأرض، كما مُكّن لحركة الموحّدين في الحجاز. إلاّ أنّه لا يمكن أن نقيس عدم نجاح حركة إصلاح بعدم وصولها إلى الحكم، لأنّه لا نستطيع أن نحكم على نتيجة الحركة الإصلاحيّة من خلال زاوية واحدة وهي أن يمكّن لها. إذ كم من نبي لم يتبعه أحد وهو مرسل بالحقّ من ربّه.

لئن ظلّ الإمام محمّد ابن عبد الوهّاب الرّمز المنقّي لما لحق التّوحيد الخالص من شوائب وتشويهات، عبر تصدّيه للوثنيّات والخرافات والبدع التي شوّهت جمال تعاليم الإسلام السّمحاء وأبعدتها عن منابعها الأساسيّة في القرآن والسّنّة. و إنّ زماننا هذا . في ظلّ هيمنة القوّة ـ لنحتاج إلى إحياء ما أحياه ابن عبد الوهّاب من عقيدة الولاء والبراء التي تميّعت في زماننا هذا و أمست في أحسن أحوالها أمرا منقولا باحتشام.

هذا، و إنّ الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور سيظلّ مفصلا محوريّا في وعينا المعاصر ورمزا لحركة إصلاحيّة قارعت تحدّيات العصر وتدخّلات الغرب، لما أنتجه من تراث إصلاحي كبير ضخم ومتنوّع ومتميّز، و هو بحاجة إلى استثماره خصوصا في ظلّ التّحدّيات الحاليّة. لقد حاول ابن عاشور أن يضخّ دماء جديدة في جسد الأمّة رغم الصّعوبات والعراقيل من الدّاخل والخارج، كما تعرّض إلى غبن شديد في عصره، فهل جاء قبل وقته، وجاء في زمن بريق باطل بورقيبة؟ وهذا ما دفعني إلى طرح هذا السّؤال الإشكالي: إذا كانت آثار ذلك التّراث الإصلاحي الكبير والمتنوّع حاضرة لدينا بكلّيتها، مشكِّلة إلى حد كبير وعينا الإصلاحي وشعورنا الجمعي، فما هو الواجب تجاهه؟ إنّ الرّدّ المنطقي في هذه اللّحظة التّاريخيّة لا يكون إلاّ بردّ الاعتبار لشيخنا العلاّمة ووفاء لحركته الإصلاحيّة.

فعلى الرّغم من أنّ الجهود الإصلاحيّة العلميّة الضّخمة التي قدّمها شيخنا لم تفعّل في مؤسّسات مسؤولة وقويّة وجادّة، وأنّ الجهود العمليّة العظيمة التي قام بها الإمام ابن عاشور

في الفتوى والقضاء والتّربية في مناهج التعليم والإدارة ومؤسّسة الزّيتونة وفروعها وتجديدها قد شهد اهتمامًا بحثيّا متزايدًا في العقدين المنصرمين، فإنّ ذلك كلّه لم يردّ للشّيخ اعتباره الذي يليق بعلمه وبدائله المعمّقة والواعية، وهذا يحتاج إلى صحوة دارسين وباحثين لتفعيل ما يستحقّه تراثه الغزير والمتنوّع، حتّى يصير من أهمّ اهتمامات جامعة الزّيتونة. فلقد كان الشّيخ . رحمه الله تعالى . يكابد مرارة استضعافه وعدم الاهتمام بهفي حياته، فقال رحمه الله تعالى حسيرا:" والبؤس العظيم للأمّة، أن تداخلت العوائد والعلوم ومُوِّهت بعض العوائد بطلاء الدّين أو الأصول... وسلبت الحرّيّة عن العلوم... وأصبح المبتكر عرضة للنّكاية أو الاضطهاد ناهيك بالمعترض على بعض المتقدّمين كما أشار في كتابه " أليس الصّبح بقريب " ". إنّه لم يقم أحد بابن عاشور فهل جاء زمانه؟ وهل يستمرّ الغُبْنُ يلاحق شيخنا وهو تحت الثّرى؟ وكم كانت تكاليف الإصلاح باهضة، فلقد عانى الشّيخ من الأشرار والجهلة والفجّار المعترضين على إصلاحاته، جاء في كتابه أليس الصبح بقريب:" ولطالما كنت أقدّم رجلا وأؤخّر أخرى واعلم أنّ نور عقلي هو دون إضاءة هاته المجاهل التي صفدت عليها منافذ الأنوار والأهوية الخالصة فامتلأت بالحوامض الرّديئة منذ أزمان ".

رحم الله تعالى الشّيخين رحمة واسعة، فقد كانا على هدي من ربّنا، حرصا على جمع الأمّة تحت راية التّوحيد وإن اختلفت الأقطار والبيئة.

تمّ بحمد الله وتوفيقه في 29 رمضان 1434 هجري الموافق لـ: 08 /08 /2013

والله الموفّق والهادي إلى سبيل الرّشاد.

والحمد لله ربّ العالمين.

الفـــهـــــارس

. فهرس الآيات القرآنية

. فهرس الأحاديث النّبويّة الشّريفة

. فهرس الأعلام

. فهرس الأماكن والبلدان

. فهرس الجمعيّات والمجامع

. فهرس المصادر والمراجع
والدّوريّات والمواقع الالكترونيّة

. فهرس الموضوعات

فهرس الآيات القرآنية (على رواية الإمام قالون)

الآية	رقمها	السّورة	رقمها	الصّفحة
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ	11 / 10	البقرة	2	91
وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى	142	البقرة	2	49
إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى	159/158	البقرة	2	21
وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ	164	البقرة	2	84
وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ	178	البقرة	2	109
فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ	181	البقرة	2	12
وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُول	212	البقرة	2	109
وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ	218	البقرة	2	13
وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ	220	البقرة	2	22 . 13
وَلاَ تَجْعَلُواْ اللهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ	222	البقرة	2	11
وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحًا	226	البقرة	2	13
مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ	253	البقرة	2	61
فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ	254	البقرة	2	132 . 106
وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا	281	البقرة	2	132
رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ	285	البقرة	2	119
فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ	20	آل عمران	3	174
قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُم اللهُ	31	آل عمران	3	60
وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ	103	آل عمران	3	104
يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ	106	آل عمران	3	110
كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ	110	آل عمران	3	36 - 34
هَذَا بَيَان لِلنَّاسِ	138	آل عمران	3	115
وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ	34	النّساء	4	131
وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ	35	النّساء	4	12
أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ	60	النّساء	4	67

فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ	64	النّساء	4	12
إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا	75	النّساء	4	79
وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ	82	النّساء	4	25
إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ	104	النّساء	4	104
لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ	113	النّساء	4	8
وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا	127	النّساء	4	7 – 11 - 18
وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا	163	النّساء	4	107- 109
الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِينًا...	4	المائدة	5	27- 60 - 68 - 104
وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا	40- 41	المائدة	5	13
وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ	50	المائدة	5	104- 175
قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ	79	المائدة	5	71
لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ	80 . 81	المائدة	5	37
وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ	38	الأنعام	5	27
وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ	49	الأنعام	6	11- 15
وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ	55	الأنعام	6	11
وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً	74	الأنعام	6	112
الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ	83 . 91	الأنعام	6	39- 143
أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ	91	الأنعام	6	174
وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ	154	الأنعام	6	60
إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ	160	الأنعام	6	104
اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ	2	الأعراف	7	60 - 68
لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ	15- 16	الأعراف	7	65
إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ	53	الأعراف	7	107
اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ	64	الأعراف	7	38
وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ	84	الأعراف	7	14

وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ	142	الأعراف	7	49
وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ	170	الأعراف	7	16
و مِمَّنْ خَلَقْنآ أُمَّةٌ يَهْدونَ بِالحَقِّ و بِهِ يَعْدِلونَ	181	الأعراف	7	33
يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ	1	الأنفال	8	13 - 10
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ	24	الأنفال	8	88
وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ	39	الأنفال	8	62
وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ	47	الأنفال	8	104
ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى	54	الأنفال	8	10
وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ	62	الأنفال	8	15
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ	65	الأنفال	8	65
وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ	74	الأنفال	8	73
اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ	31	التّوبة	9	66
وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ	106	التّوبة	9	176
فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ	123	التّوبة	9	28
وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ	18	يونس	9	62
إِنَّ اللهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ	81	يونس	10	24
وَلَا تَدْعُ مِنْ دُون اللَّه مَا لَا يَنْفَعك وَلَا يَضُرّك	106	يونس	10	61
وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ	11	هود	10	15
رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ	72	هود	10	112
وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ	85 - 83	هود	11	47
إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ	88	هود	11	22
فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ	101	هود	11	45
فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ	116	هود	11	37
وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ	117	هود	11	60 - 34
قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ	108	يوسف	12	60-47 - 174-66
إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي	68	الحِجر	15	113
إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ	12	الرّعد	13	40

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا	36	النّحل	16	58 -38
وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لّكُلّ شَيْءٍ	44	النّحل	16	27
فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ	43	النّحل	16	179
ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً	66	النّحل	16	115
وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لّكُلّ شَيْءٍ	89	النّحل	16	104
أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ	57	الإسراء	17	66
وَإِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ	67	الإسراء	17	78
قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ	84	الإسراء	17	176
وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلّينَ عَضُداً	50	الكهف	18	110
يَوْمئِذٍ لَا تَنْفَع الشَّفَاعَة إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَن وَرَضِيَ	106	طه	20	61
وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ	25	الأنبياء	21	58 - 38
الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ	39	الحجّ	22	63
وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ	52	الحجّ	22	159
وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ	26	النور	24	112
وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ . الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ	152. 151	الشّعراء	26	14
وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ	44 . 43	النّمل	27	45
وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ	52	العنكبوت	29	76
وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا	69	العنكبوت	29	25
فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ	29	الرّوم	30	43
إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ	13	لقمان	31	143
وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا	20	لقمان	31	76
لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو	21	الأحزاب	33	174 -73
وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ	34	الأحزاب	33	112
مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ	40	الأحزاب	33	113
إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ	56	الأحزاب	33	114
قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ	23 . 22	سبأ	34	61
اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ	46	سبأ	34	76
سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ	79	الصّافّات	37	114

سَلامٌ عَلَى آل يَاسِينَ	130	الصّافّات	37	114
سَلامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ	120	الصّافّات	37	114
سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ	109	الصّافّات	37	114
وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ	172	الصّافّات	37	85 -79
وَلاَتَ حِينَ مَنَاصٍ	2	ص	38	109
كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ	28	ص	38	108
أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ	3	الزّمر	39	58
وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ	10	الزّمر	39	176
وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ	28 . 27	الزّمر	39	27
وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ	26	غافر	39	22
فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ	82	غافر	40	65
وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ	35	الشّورى	42	104
فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ	40	الشّورى	42	13
وَكَذَلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ	22	الزّحرف	43	76
وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ	26 . 25	الزّحرف	43	67
إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ	10	الحجرات	49	10
وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن	9	الحجرات	49	14
وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ	42	الطّور	52	115
لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبَيّانَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الكِتَابَ	24	الحديد	56	153 - 62
وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا	7	الحشر	59	– 60 – 27 151
قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ	4	الممتحنة	60	174
لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ	6	الممتحنة	60	174
رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا	30	نوح	71	151
فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدَا	18	الجن	72	75 - 61
قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً	21	الجن	72	75
يٰأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ . وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ . وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ	7 . 1	المدّثّر	74	24

إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ	22	القيامة	75	108
وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ	26	المطفّفين	83	176
وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ	5	البيّنة	98	58
وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ...		العصر	103	146 - 76
فليعبدوا ربّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوع	5 . 3	قريش	106	86

فهرس الأحاديث النّبويّة الشّريفة

الحديث	الرّاوي	رقم الصّفحة
أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي	الزّركشي وابن تيميّة والشّوكاني	158
اذْهَبُوا بِنَا نُصْلِحُ بَيْنَهُمْ	البخاري	16
اِسْقِ يَا زُبَيْرِ ثمُّ احْبِسِ المِاءَ	البخاري و مسلم	12
اشْتَرَى رَجُلٌ مِنْ رَجُلٍ عَقَارًا لَهُ فَوَجَدَ	البخاري وابن حبّان	18 . 17
أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ بِأَيِّهُمُ اقْتَدَيتُم اهْتدَيتُمْ	ابن حجر والشّوكاني والألباني	159
أصلح النّبيّ بين بني عمرو بن عوف	البخاري	18
اصْطَلَحُوا عَلَى وَضْعِ الْحَرْبِ عَشْرَ سِنِينَ يَأْمَنُ	أبو داود	15
أعتقيها فإنّها من ولد إسماعيل	البخاري	153
أَفْضَلُ الصَّدَقةِ إِصْلاَحُ ذَاتِ البَيْنِ	المنذري	20
إِقَامَةُ حَدٍّ بِأَرْضٍ خَيرٌ لِأَهْلِها مِنْ مَطَرٍ أَرْبَعِينَ	ابن حبّان	88
أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ	التّرمذي و المنذري والألباني	20 - 8
أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى تِجَارَةٍ ؟	الهيثمي والألباني	20
أَلا وإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً...	البخاري ومسلم	40 - 10
أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقولوُا لاَ إِلَهَ إِلاَّ	البخاري	39

إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ	البخاري	14
إنَّ بَني إسرائيلَ افترقَتْ علَى إحدَى وَسبعينَ	التّرمذي وابن حبّان	60
إنّك تأتي قوما من أهل الكتاب	مسلم	31
إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ	مسلم	47
إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ	أبو داود	8
إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ، أَوْشَكَ أَنْ	أحمد	34
إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنْ الْمُفَصَّلِ فِيهَا	البخاري	38
أَهْلَ قُبَاءٍ اقْتَتَلُوا حَتَّى تَرَامَوْا بِالْحِجَارَةِ	أبو داود	15
أَيْ قَوْمِ وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ وَوَفَدْتُ	البخاري	44
إِيَّاكُمْ وَالغُلُوَّ فِإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ	ابن حبّان و الألباني	71
أيُّما إهَابٍ دُبغَ فقد طَهُر	ابن حبّان و الدّارقطني	119
بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ قَالَ إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ	مسلم	40
بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ	البخاري و مسلم وابن حبّان	44
تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ أَسْأَلُهُ فِيهَا	مسلم	21
تَقَاضَى ابْنَ أَبِي حَدْرَدٍ دَيْنًا كَانَ لَهُ	البخاري و مسلم	16
ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ	البخاري	44
حدّ يقام في الأرض خير ...	ابن ماجة	80

حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ	البخاري	143
الدِّينُ النَّصِيحَةُ! قُلْنَا: لِمَنْ؟	مسلم	176
رَجَعْنَا مِنَ الجِهَادِ الأَصْغَرِ إِلَىَ الجِهَادِ الأَكْبَرِ	ابن رجب	160
سَمِع رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَوْتَ	البخاري	18
الصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا صُلْحًا أَحَلَّ	التّرمذي و الألباني	22
فَارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ فَأَقِيمُوا فِيهِمْ وَعَلِّمُوهُمْ	البخاري و مسلم	29
فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ	البخاري	45 . 44
قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ	مسلم ابن حبّان والتّرمذي	40
كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ شَيْءٌ فَغَاضَبَنِي	البخاري ومسلم	16
كَانَتْ بَنِو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ	البخاري	182 . 45
كُلُّ سُلاَمَى مِنَ النَّاسِ عَلَيهِ صَدَقَةٌ	مسلم	21
كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ فَالْإِمَامُ رَاعٍ	مسلم والتّرمذي	47 . 35
كما تكونوا يُولّ عليكم...	ابن حجر و الشّوكاني	159
لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شِبرًا بِشِبرٍ وَذِرَاعًا	البخاري ومسلم	60
لقد نزل أوّل ما نزل سورة	البخاري	30
لاَ تَبْكُوا عَلَى أَخِي بَعْدَ اليَوْمِ	أبو داود والنّسائي	117
لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِن أُمَّتِي	ابن حبّان و الألباني	62

لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ	البخاري	71
لاَ طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ	الألباني	47
لَا يَحْقِرْ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ	ابن ماجة	27
لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ تُحِدَّ	البخاري وابن حبّان	117
لاَ يَحِلُّ الكَذِبُ إِلَّا فِي ثَلاَثٍ كَذِبُ الرَّجُلِ	التّرمذي والمناوي وابن حجر	21
لَوْ أَتَيْتَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ فَانْطَلَقَ	البخاري ومسلم	17
لَيْسَ الكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ	البخاري	21
لَيْسَ مِنَّا مَن شقَّ الجُيوبَ وَلَطَمَ الخُدُودَ وَدَعَا	البخاري ومسلم	116
مَا زِلْتُ أُحِبُّ بَنِي تَمِيمٍ مُنْذُ ثَلاَثٍ	البخاري	165 . 164
مَا رَأَيْتُ مِنَ النَّاسِ أَحَدًا يُحِبُّ أَحَدًا كَحُبِّ	ابن هشام	44
مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا	البخاري	35
مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهْوَ رَدٌّ	البخاري و مسلم	19
مَا عَمِلَ ابنُ آدمَ شيئًا أَفْضَلَ مِنَ الصَّلاةِ	الألباني	20
مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يُعَزِّي أَخَاهُ بِمُصِيبَةٍ إِلَّا كَسَاهُ اللَّهُ	ابن ماجة و الألباني	116
مَنْ عَزَّى مُصَاباً فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ	البيهقي وابن الجوزي	116
نوم الصّائم عبادة	البيهقي والألباني	159
هَلاَّ أَخَذْتُمْ إِهَابَهَا فَدَبَغْتُمُوهُ فَانْتَفَعْتُمْ بِهِ	مسلم والنّسائي	119

وَاللَّهِ لَتَنْتَهِيَنَّ عَائِشَةُ أَوْ لأَحْجُرَنَّ عَلَيْهَا فَقَالَتْ	البخاري و ابن حبّان	17 . 16
يَأْتِي فَيَخِرُّ سَاجِداً فَيَحْمَدُهُ بِمَحَامِدَ يُعَلِّمُهُ	البخاري	61
يَا أَبَا أَيُّوبَ أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى صَدَقَةٍ يُحِبُّهَا اللهُ	الهيثمي والألباني	21
يَا أَبَا أَيُّوبَ أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى صَدَقَةٍ يُرْضِي	البيهقي	21
يَا أَيُّها النَّاسُ قُولُوا لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُفلِحُوا	ابن حبّان	38

فهرس الأعلام

العَلَم	الصّفحة
إجناتس (جولد تسيهر)	79
الإبراهيمي (محمّد البشير)	96 . 95
أفلاطون	145 -129
ابن أنس (أبو عبد الله مالك)	29 . 30 . 39 . 46 . 111 . 123 . 124 . 125 . 132 . 172 . 181 . 182
ابن باديس (عبد الحميد)	96
ابن أبي الضّياف (أحمد)	127 . 152
ابن بشر (عثمان)	55
ابن تيميّة (أحمد بن عبد الحليم)	55 . 56
ابن خلدون (عبد الرّحمن)	97-101-125-126-133-135- 136-150-162-163-164-165- 170-181
ابن سعد (اللّيث)	181 - 182
ابن سينا (الحسين)	129
ابن الشّيخ (عمر)	95 - 101

ابن طفيل (أبو بكر)	139
ابن عاشور (عمر)	101
ابن عاشور (محمّد الفاضل)	100 . 97
ابن عبد الرّحمن (عبد اللّطيف)	55
ابن غنّام (حسين)	54
ابن قيِّم (شمس الدّين الجوزيّة)	82 -56
ابن كثير (إسماعيل)	173 – 82- 75
ابن وهب (أحمد)	182
أبو علي (إبراهيم)	127
الأصفهاني (الرّاغب)	7
الأفغاني (محمّد جمال الدّين)	101 - 96 - 40
أمين (أحمد)	56
أرسطو	129
آل مقرن (محمّد بن سعود بن محمّد)	164 . 148 . 92 . 88 . 87 . 52
الآلوسي (محمود شكري)	96
البخاري (محمّد بن إسماعيل)	111 . 44 . 25 . 18 . 15
البصري (الحسن بن يسار)	26

الباجي (سليمان أبو الوليد)	26
بلخوجة (عثمان)	101
باي (محمّد الصّادق)	97
بوعتّور (محمّد العزيز)	101
بوحاجب (سالم)	95- 97 -101- 123 -127
التّميمي (إسماعيل)	64 - 101
التّونسي (خير الدّين)	96- 97 - 128
الثّعالبي (عبد العزيز)	96 – 127 – 183
الجرجاوي (علي)	127
حسين (محمّد الخضر)	94- 96 - 101- 182 - 183
الخامس (محمّد بيرم)	63 – 95 – 148
خلف (عبد الرّحمن)	127
الدّهلوي (ولي الله أحمد)	101- 127
الذّهبي (محمّد شمس الدّين)	75- 82
الرّاضي (عبد الرّحمن)	127
الرّازي (الفخر)	8
رضا (محمّد رشيد)	40- 96 - 98

الرّياحي (إبراهيم)	101
سحنون (عبد السّلام)	163
السّندي (محمّد حياة)	55
السّنوسي (محمّد)	96- 97
السّويدي (عبد الرّحمن)	73
الشّافعي (محمّد)	90 - 182
الشّريف (صالح)	101
صفر (محمّد البشير)	96
الطيّب (محمّد العزيز)	92
عبده (محمّد)	40- 96 – 98 - 101
العقّاد (عبّاس)	27
الفلالي (محمّد)	96
قابسي (علي)	163
قبادو (محمود)	97 - 101
قطب (سيّد)	34 . 175
القرطبي (محمّد)	12- 27
كرد (علي محمّد)	96

الماوردي (علي بن محمّد)	42
النّجدي (عبد الله بن إبراهيم بن يوسف)	55
النّدوي (أبو الحسن)	36
النّخلي (محمّد)	101

فهرس المدن

المدينة أو القرية	الصّفحة
حريملاء	52
الدّرعيّة	87 -52
الرّياض	52
العيينة	54 -52
القصيم	81
نجد	171 - 94- 90 - 86 -55 -53
اليمن	143 - 66 -59

فهرس الجمعيّات والمجامع

الجمعيّة		الصفحة
جمعية الأحباس		63
مجمع ترقية العلوم البريطاني		134
جمعيّة العلوم		134 . 30
جمعيّة قدماء الصّادقية	وتسمّى جمعية قدماء تلامذة المدرسة الصّادقيّة، من أقدم الجمعيّات. تأسّست عام 1905، ونشاطها ثقافي ووداي أساسا. ضمّت حوالي السّبعين شخصا. ألقى الخطاب الافتتاحي علي باش حانبة. اقترح أن يكون النّشاط مستمدّا من الأهداف التي رسمها مؤسّس المدرسة خير الدّين التّونسي.	129

فهرس المصادر والمراجع
والدّوريّات والمواقع الالكترونيّة

المصـــادر

▪ القرآن الكريم برواية قالون عن نافع

ـ **الأصـــبهاني** (**محمّـــد**) " حليـة الأوليـاء وطبقـات الأصـفياء ". دار الفكـر للطّباعـة والنّشـر والتّوزيع. بيروت. 1399 هـ. 1979 م.

تحقيـق عبـد الغفـور البلوشـي. " طبقـات المحـدّثين بأصـبهان والـواردين عليها ". مؤسّسة الرّسالة. بيروت. ط: 2. س: 1412هـ – 1992م.

ـ **الأصـــفهاني** (**الرّاغـــب**). " مفـردات في غريـب القـرآن ". ط: 1. دار قهرمـان للطّباعـة والتّوزيع. استانبول. تركيا. س: 1407 هـ. 1986 م.

ـ **آل الشـيخ** (**محمّـد بـن إبـراهيم**) " شـرح كشـف الشّـبهات ". تحقيـق: عبـد الـرّحمن بـن محمّد بن قاسم. نشر دار الوطن. الرّياض. س: 1413 هـ. 1992 م.

ـ **آل الشّـيخ** (**عبـد اللّطيـف بـن عبـد الـرّحمن بـن حسـن بـن محمّـد بـن عبـد الوهّـاب**). " مصـباح الظّـلام في الـرّدّ علـى مـن كـذب علـى الشّـيخ الإمـام ونسـبه إلى تكفـير أهـل الإيمـان والإسـلام ". ط:1. دار الهدايـة للطّبـع والنّشـر والتّرجمـة. الرّيـاض. س: 1424 هـ – 2003 م.

الألبـاني (**محمّـد ناصـر الـدّين**) . " تحـذير السّـاجد مـن اتّخـاذ القبـور مسـاجد ". ط: 1. مكتبة المعارف بيروت. س: 1421هـ. 2000 م..

ـ " سلســلة الأحاديــث الصّــحيحة ". ط: 1. المكتــب الإسلامي. بيروت. سنة 1399 هـ – 1979 م.

ـ " سلســلة الأحاديــث الضّــعيفة والموضــوعة وأثرهــا السّيّء في الأمّة " . ط: 1. دار المعارف. الرّياض. س: 1412 هـ / 1992 م.

ـ " صحيح الجامع الصّغير وزيادته ". ط: 3. المكتب الإسلامي. بيروت. س: 1408هـ. 1988 م.

ـ " صحيح التّرغيب والتّرهيب ". للحافظ المنذري. رقم: ط: 1. مكتبة المعارف. بيروت. س: 1421 هـ. 2000 م.

ـ " صفة صلاة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم من التّكبير إلى التّسليم كأنك تراها " . ط: 1. مكتبة المعارف للنّشر والتّوزيع. الرّياض. س: 1427 هـ - 2006 م.

ـ **البخاري**: (**محمّد بن إسماعيل**): " صحيح البخاري ". المكتبة السّلفيّة. القاهرة. س: 1400هـ. 1980 م.

" فتح الباري بشرح صحيح البخاري ". ابن حجر العسقلاني. دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع. بيروت. ط: 1. س: 1415 هـ . 1995 م.

.**ابن أبي الضّياف** (**أحمد**): " إتحاف أهل الزّمان بأخبار تونس وعهد الأمان ". تحقيق أحمد عبد السّلام. "دولة أحمد باي". منشورات الجامعة التّونسيّة. تونس.1391 هـ. 1971 م.

ـ إتحاف أهل الزّمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان. نشر كتابة الدّولة للشّؤون الثّقافيّة والأخبار. ط: 1 .1383 هـ. 1963م.

.**ابن بشر** (**عثمان**): " عنوان المجد في تاريخ نجد ". طبعة وزارة المعارف السّعوديّة. الرّياض. ط.1. 1370هـ. 1950م.

" عنوان المجد في تاريخ نجد ". مكتبة الرّياض الحديثة. الرّياض. ط: 4. س: 1402 هـ. 1981م.

ـ **ابن تيميّة** (**أحمد بن عبد الحليم**): . " اقتضاء الصّراط المستقيم ". ط:1. مكتبة الرّشد. الرّياض. س: 1404 هـ. 1983 م.

ـــ تحقيق: ناصر بن عبد الكريم العقل. " اقتضاء الصّراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ". ط: 8. مكتبة الرّشد. الرّياض. س: 1421هـ. 2000 م.

ـــ مجموع الفتاوى. ط: 1. س: 1398 هـ . 1987 م.

ـــ " السّياسة الشّرعيّة " تحقيق محمّد أيمن الشّبراوي. دار الكتب العلميّة. بيروت. ط: 1. س: 1426 هـ. 2005 م.

ـ **ابن الجوزي** (**عبد الرحمن بن علي**). " كتاب الموضوعات من الأحاديث المرفوعات ". ط: 1. أضواء السّلف. القاهرة. س: 1418 هـ. 1998 م.

ـ **ابن حِبّان** (**محمّد بن أحمد**) صحيح ابن حبّان. تحقيق: شعيب الأرنؤوط. ط: 2. مؤسّسة الرّسالة. بيروت. س: 1414هـ. 1494 م.

ـ **ابن حنبل** (**أحمد**). مسند أحمد. ط: 2. المكتب الإسلامي. بيروت. س: 1400 هـ . 1980 م.

. **ابن خلدون**: (**عبد الرّحمن**) " المقدّمة ". دار إحياء التّراث العربي. بيروت. ط:4. س: 1404هـ. 1984 م.

ـ **ابن رجب** (**أبو الفرج زين الدّين عبد الرّحمن بن أحمد**) " جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا ". ط: 1. مؤسّسة الرّسالة. بيروت. س: 1411 هـ. 1990 م.

ـ **ابن رشد** (**أبو الوليد**) " بداية المجتهد ونهاية المقتصد ". ط: 10. دار الكتب العلميّة. بيروت.

س: 1408هـ. 1988م.

ـ **ابن عبد البرّ الأندلسي**: " التّمهيد لما في الموطّأ من المعاني والأسانيد ". وزارة الشّؤون الإسلاميّة بالمغرب. ط. 1387 هـ . 1967 م .

" التّمهيد دار الحديث ". القاهرة. ط: 1427هـ. 2006 م.

ـ **ابـن عبـد الوهّـاب (محمّـد)**: " فتـاوى محمّـد بـن عبـد الوهّـاب " . مجموعـة المؤلّفـات. منشورات جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة. الرّياض.

ـ **ابـن عبـد الوهّـاب (محمّـد)**: ـ " الرّسـائل الشّخصـيّة ". جامعـة الإمـام محمّـد بـن سـعود الإسلاميّة. الرّياض. ط 1. 1398 هـ. 1978 م.

ـ " الأصـول الثّلاثـة ". شـرح محمّـد بـن صـالح العثيمـين. نشـر: دار الإيمان. الاسكندريّة. 1422 هـ – 2001 م.

ـ " كشـف الشّـبهات " نشـر: وزارة الشّـؤون الإسـلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد. السّعودية. ط: 1. س: 1418هـ. 1997 م.

ـ " 128 مسـألة مـن مسـائل الجاهليّـة ". شـرح: صـالح بـن فـوزان بـن عبـد الله الفـوزان. نشـر: دار العاصـمة للنّشـر والتّوزيـع. الرّيـاض. ط: 1. س: 1421هـ – 2005 م.

ـ **ابن عاشور(محمّد الطاهر)**:

ـ التّحريـر والتّنـوير. ط: 1. الـدّار التّونسـيّة للنّشـر. تـونس. س: 1404 هـ. 1984م.

ـ " أصـول النّظـام الاجتمـاعي في الإسـلام ". ط: نشـر مشـترك دار سـحنون للنّشـر والتّوزيـع. دار السّـلام للطّباعـة والنّشـر والتّوزيـع والتّرجمة. ط: 3. تونس. س: 1431 هـ . 2010 م.

ـ " مقاصـد الشّـريعة الإسـلاميّة ". ط: 1. الشّـركة التّونسـيّة للتّوزيع. تونس. س: 1978 م.

ـ " أليس الصّبح بقريـب؟ " نشـر مشـترك: دار سـحنون للنّشـر والتّوزيـع. دار السّـلام للطّباعـة والنّشـر والتّوزيـع والتّرجمـة. تـونس. ط: 3. س: 1431 هـ. 2010 م.

. ابن عاشور(محمّد الفاضل):

ـــ " أركـان النّهضـة الأدبيّـة بتـونس ". مكتبـة النّجـاح. تـونس 1381 هـ.

1961 م.

ـــ الحركـة الأدبيّـة والفكريّـة بتـونس. ط: الـدّار التّونسـيّة للنّشـر. تـونس. س: 1392 هـ. 1972م.

. ابن عدي (أبو أحمد بن عديّ الجرجاني المشهور بابن عدي)

ـــــ " الكامـــل في ضـــعفاء الرّجـــال". ط: 1. دار الكتـــب العلميّـــة. بيروت. س: 1418 هـ. 1997 م.

ـــ **ابـــن غنـــام (حســـين)**: " تـــاريخ نجـــد " المســـمّى " روضـــة الأفكـــار والأفهـام لمرتـاد حـال الإمـام وتعـداد غـزوات ذوي الإسـلام ". تحقيـق ناصـر الـدّين الأسـد. ط: دار الجيل. بيروت 1402هـ. 1982 م

و ط:4. دار الشّروق. س: 1415 هـ . 1994 م .

. ابن قيّم الجوزيّة (محمّد):

ـــ " مـدارج السّـالكين بـين منـازل إيّـاك نعبـد وإيّـاك نسـتعين ". ط. دار الكتاب العربي. بيروت. 1416هـ . 1996م.

ـــــ " إعـــلام المـــوقّعين عـــن ربّ العـــالمين ". ط: دار الكتـــب العلميّـــة. بيروت. س: 1411هـ. 1991م.

. ابن كثير: (أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدّمشقي).

ـــــ " تفســـير القـــرآن الكـــريم ". ط: 1. دار الفكـــر للطّباعـــة والنّشـــر والتّوزيع. بيروت. 1400 هـ. 1980م.

. ابن ماجه (محمد بن يزيد)

ـــ " صـحيح سـنن ابـن ماجـه ". ط: 1. مكتـب التّربيـة العـربي لـدول الخليج. س: 1407هـ. 1987 م. الرّياض.

. ابن منظور (أبو الفضل محمّد بن مكرم بن علي)

ـــ " معجم لسان العرب في اللّغة ". مصر: المطبعة الميريّة 1307 هـ. 1887 م.

. ابن الملقن (عمر بن علي)

ـــ " البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشّرح الكبير ". تحقيق: مصطفى أبو الغيط عبد الحيّ وآخرون. ط: 1. دار الهجرة. السّعودية. س: 1425 هـ. 2004 م.

ـــ " تحفة المحتاج إلى أدلّة المنهاج ". ط: 1. دار حراء . مكّة المكرّمة. س: 1406هـ. 1986 م.

. ابن هشام (عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري):

ـــ " السّيرة النّبويّة ": تحقيق طه عبد الرّؤف سعد. نشر: دار الجيل. بيروت. س: 1411 هـ. 1990 م.

. أبو داود (سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير) "

ـــ سنن أبي داود ". ط:1. دار الكتب العلميّة. بيروت. س: 1389هـ . 2000 م.

. بسّام (عبد الله بن عبد الرّحمان).

ـــ " علماء نجد خلال ثمانية قرون ". نشر دار الكتب العلميّة ببيروت . ط: 1. س: 1419هـ . 1998 م.

. بيرم الخامس التّونسي (محمّد):

ـــ " صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار ". المطبعة الإعلاميّة بمصر. دار صادر بيروت. ط: 1. س: 1302 هـ -1881 م.

. البيهقي (أحمد بن الحسين) "

ـــ شعب الإيمان ". ط: 1 دار الفكر. بيروت. س: 1424 هـ . 2003 م.

. التّرمذي (أبو عيسى محمّد بن عيسى)

ـــ " الجامع الصّحيح. سنن التّرمذي ". تحقيق: أحمد بن محمد شاكر. ط: 1. دار الكتب العلميّة. بيروت. س: 1356 هـ. 1936 م.

. الجَوْهَري (أبو ناصر إسماعيل بن حمّاد)

ـــ " تاج اللّغة وصحاح العربيّة " المعروف اختصارا بـ : " الصّحاح ". تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار. ط : 3. دار العلم للملايين. بيروت. 1404هـ . 1984 م.

. الحَجَّاويُ (شرف الدّين أبو النّجا الحنبلي)

ـــ " زاد المستقنع ". دار ابن الجوزي للنّشر والتّوزيع. ط: 1. س: 1422 هـ . 2001 م.

. الحنفي (بدر الدّين العيني)

ـــ "عمدة القاري شرح صحيح البخاري ". ط: 1. دار إحياء التّراث العربي. بيروت. س: 1420 هـ . 1999 م.

. الرّازي (فخر الدّين)

ـــ " التّفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ". ط: 1. دار الفكر للطّباعة و النّشر والتّوزيع. بيروت. س: 1401هـ. 1981م.

. الزّركشي (أبو عبد الله محمد بن عبد الله)

ـــ " اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة. المعروف بالتّذكرة في الأحاديث المشتهرة ". ط: 1. دار الكتب العلميّة. بيروت. س: 1406 هـ. 1985 م.

. الزّركلي (خير الدّين) "

ـــ الاعـلام قـاموس تـراجم لأشـهر الرّجـال والنّسـاء مـن العـرب والمسـتعربين والمستشـرقين ". ط: 9. دار العلـم للملايـين. بـيروت. س: 1400 هـ . 1980 م.

. الزّيلعي (أبو محمّد جمال الدّين عبد الله بن يوسف بن محمّد)

ـــ " تخـريج الأحاديـث والآثـار الواقعـة في تفسـير الكشّـاف ". ط: 1. دار ابن خزيمة. الرّياض. س: 1414 هـ. 1993 م.

. الشّاطبي (أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمّد اللّخمي)

ـــ " الموافقـات ". ط :1. دار ابـن القـيّم. دار بـن عفّـان. السّعوديّة.

س: 1424هـ. 2003م.

. الشّوكاني (محمّد علي)

ـــ " الفوائـد المجموعـة للأحاديـث الموضـوعة ". تحقيـق: عبـد الـرّحمن بن يحيى المعلمي اليماني. ط: 1. س: 1380 هـ. 1960 م.

ـــ " نيـل الأوطـار شـرح منتقـى الأخبـار ". ط: 2. س: 1403 هـ . 1983 م.

. الصّنعاني (محمّد بن إسماعيل الأمير)

ـــ " العُـدّة حاشـية علـى شـرح العمـدة " لابـن دقيـق العيـد. تحقيـق: عـادل عبـد الموجـود و علـي معـوّض. ط:1 . دار الكتـب العلميّـة. بـيروت. 1419 هـ. 1998 م.

. العراقي (أبو الفضل عبد الرّحيم بن الحسين بن عبد الرّحمن)

ـــ " المغـني عـن حمـل الأسـفار في تخـريج مـا في الأحيـاء مـن الأخبار". ط: 1. دار صادر. لبنان. س:1421 هـ. 2000 م.

. علماء نجد الأعلام "

ـــ الـدّرر السّـنّيّة في الأجوبـة النّجديّـة ". تحقيـق: عبـد الـرّحمن بن محمّد بن قاسم. ط: 6. 1417هـ. 1996م.

. العثيمين (محمّد بن صالح) "

ـــ الشّـرح الممتـع علـى زاد المسـتقنع ". دار ابـن الجـوزي للنّشـر والتّوزيع. ط: 1. س: 1422 هـ . 2001 م.

. العسقلاني (ابن حجر)

ـــ أسـئلة وأجوبـة ". تحقيـق: مـرزوق علـي إبـراهيم. ط: 1. دار الشّريف. مكّة المكرّمة. س: 1417 هـ. 1996 م.

ـــ " الإصـابة في تمييـز الصّـحابة ". ط: 1. دار إحيـاء الـتّراث العربي. بيروت. س: 1328هـ. 1907 م.

ـــ " بلـوغ المـرام مـن أدلّـة الأحكـام ". ط: 2. دار الفيحـاء. س: 1417هـ . 1996 م.

ـــ " فـتح البـاري بشـرح صـحيح البخـاري ". دار الفكـر للطّباعـة والنّشر والتّوزيع. بيروت. ط:1. س: 1415 هـ. 1995 م.

ـــ " الكـافي الشّـاف في تخـريج أحاديـث الكشّـاف ". ط: 1. دار إحياء التراث العربي. بيروت. س: 1418 هـ. 1997 م.

ـ العقيلـي (أبـو جعفـر العقيلـي محمّـد بـن عمـرو بـن موسـى بـن محمّـد بـن حمّـاد العقيلـي المكّي)

ـــ " الضّـعفاء الكبـير ". ط: 1. دار الكتـب العلميّـة. بـيروت. س: 1404 هـ. 1984 م.

. القاري (علي بن سلطان)

ـــــ " الأســـرار المرفوعـــة في الأخبـــار الموضـــوعة ". ط: 2. المكتـــب الإسلامي. بيروت. س: 1406 هـ. 1985 م.

. **القرطبي (محمّد بن أحمد):**

ـــــ " الجـامع لأحكـام القـرآن والمبـين لمـا تضـمّنه مـن السّـنّة وآي الفرقـان " . ط: دار إحياء التّراث العربي. بيروت. س: 1405هـ. 1985 م.

. **المناوي (محمّد بن إبراهيم السّلمي)**

ـــــ "كشـف المنـاهج والتّنـاقيح في تخـريج أحاديـث المصـابيح ". تحقيـق: محمّـد إسـحاق محمّـد إبـراهيم. ط: 1. الـدّار العربيّـة للموسـوعات. بـيروت. س: 1425 هـ . 2004 م.

. **النّيسابوري** (أبو الحسين مسلم بن الحجّاج بن مسلم بن ورد بن كوشاذ القشيري)

ـــــ " صـــحيح مســـلم ". ط: 1. دار إحيـــاء الكتـــب العربيّـــة. دمشق. س: 1374هـ . 1954 م.

ـــــ "صـــحيح مســـلم بشـــرح النّـــووي ". ط: 1. دار الكتـــب العلميّة. بيروت. س: 1415 هـ. 1995م

. **الهيثمي (أبو الحسن علي بن أبي بكر بن سليمان)**

ـــــ " مجمـــع الزّوائـــد ومنبـــع الفوائـــد ". ط: 1. مؤسّســـة المعارف. بيروت. س: 1406 هـ. 1986 م.

. **هشام البرهاني (محمّد):**

ـــــ " ســـدّ الـــذّرائع في الشّـــريعة الإســـلاميّة ". مطبعـــة الرّيحاني. بيروت. ط: 1. 1406هـ -1986م.

. **اليحصبي** (أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرون السبتي اليحصبي)

ـــــ" الشّفا بتعريف حقوق المصطفى " تحقيق أبي عبد الرحمن محمد العلاوي. ط. دار ابن رجب. مصر. 1423هـ. 2002 م.

ـــــ" ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ". ط: وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة. المغرب. س: 1401 هـ. 1981 م.

المراجع

ـ **ابن الخوجة (محمّد الحبيب)** " مقاصد الشّريعة الإسلاميّة ". تحقيق. بتصرّف. ط: وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة. س: 1425 هـ. 2004 م. دولة قطر..

ـ **أمين (أحمد)**: " زعماء الإصلاح في العصر الحديث ". دار الكتاب العربي. بيروت. ط: 3. س: 1971م.

ـ **البرهاني (محمّد هشام)**: " سدّ الذّرائع في الشّريعة الإسلاميّة ". مطبعة الرّيحاني. ط: 1. 1406هـ. 1986 م. بيروت.

ـ **" التّنوير عند علماء المسلمين في النّصف الأوّل من القرن العشرين ". ندوة**: ط: 1. شركة المطبعة الفنّيّة. تونس. س: 1431 هـ. 2010 م.

ـ **الجليدي (مصدق)** : روّاد الإصلاح التّربويّ في تونس". دار سحر للنّشر. تونس. شوّال 1430 هـ. أكتوبر2009.

ـ **حربي (دلال)**: " نساء شهيرات من نجد ". النّاشر: إدارة الملك عبد العزيز. س: 14 رمضان 1419 هـ. 1999/01/01.

ـ **حسين (محمّد الخضر)**: " تونس وجامع الزّيتونة ". ط: المطبعة التّعاونيّة. دمشق.1391 هـ. 1971 م.

ـ **دراويل (جمال الدّين)** . " الاتّجاه المقاصدي لدى الأستاذ الإمام ابن عاشور: دلالاته واستحقاقاته ". المملكة المغربيّة. 6 – 7 جمادى الأولى 1430 هـ . 2– 3 مايو 2009 م.

ـ **العقّاد (عبّاس محمود)**. " حقائق الاسلام وأباطيل خصومه: موسوعة عبّاس محمود العقّاد الإسلاميّة ". ط:1. دار الكتاب العربي. بيروت. 1391 هـ. 1971م.

ـ **العوّا (محمّد سليم)**: " دور المقاصد في التّشريعات المعاصرة ". مركز دراسات مقاصد الشّريعة الإسلاميّة. ط: 2. لندن. 1427 هـ. 2006 م.

ـ **الفوزان (صالح بن فوزان)** " إعانة المستفيد بشرح كتاب التّوحيد ". ط: 3. س: 1423 هـ. 2002 م. مؤسّسة الرّسالة. بيروت.

ـ **روسو (جون جاك)**: " العقد الاجتماعي ". الفصل 3 في حقّ الأقوى. دار القلم. بيروت. س: 1393 هـ. 1973م.

ـ **الرّيسوني** (**أحمد**). " نظريّة المقاصد عند الإمام الشّاطبي ". ط: 4. س:1415 هـ . 1995م. الدّار العالميّة للكتاب الإسلامي. الرّياض.

ـ **الزّركلي (خير الدّين الاعلام)**: قاموس تراجم لأشهر الرّجال والنّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. ط: 9. دار العلم للملايين بيروت. مجلّد 1. 1400 هـ . 1980م.

ـ **السّاعاتي** (**حسن**). علم الاجتماع الخلدوني. قواعد المنهج. دار النّهضة العربيّة. بيروت. 1392 هـ. 1972 م.

ـ **الشّابي** (**علي**) " صورة المرأة في آثار العلاّمة الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور " . العلاّمة الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور وإسهامه في تجديد الفكر الدّيني". سلسلة آفاق إسلاميّة. 23 صفر 1417 هـ. 9 جويلة 1996 م..

ـ **الشّامي** (**خالد بن أحمد**). " موقف ابن عاشور من الشّيعة في كتابه التّحرير والتّنوير من خلال كتابه العظيم التّحرير والتّنوير ". نشر: مركز المغرب العربي للدّراسات والتّدريب. ط: 1. س: 1431 هـ. 2010 م. الدّار البيضاء.

ـ **الشّهري** (**عبد الرّحمن بن معاضة**): " مدخل لتفسير التّحرير والتّنوير ". محمّد بن إبراهيم الحمد. ط: 1. نشر: دار ابن خزيمة. الرّياض. س: 1428 هـ. 2007 م.

ـ **صولي (علي)**. الدّين والدّولة والمجتمع في مواقف وآثار محمّد بيرم الخامس". ط. 1. دار الطّليعة الجديدة. دمشق. 1424 هـ. 2003 م.

ـ **قرني** (**محمّد بن سعد بن عبد الله**). " الإمام محمّد الطّاهر ابن عاشور ومنهجه في توجيه القراءات من خلال تفسيره التّحرير والتّنوير ". جامعة أمّ القرى. مكّة المكرّمة. ط: 1. س: 1427هـ. 2006 م.

ـ **قرني (عائض)**. " على ساحل ابن تيميّة ". مكتبة العبيكان. الرّياض. ط 1. س: 1424 هـ. 2003 م.

ـ **القطّـان** (**منـاّع بـن خليـل**) " اعتمـاد دعـوة الشّـيخ محمّـد بـن عبـد الوهّـاب علـى الكتـاب والسّـنّة ". النّاشـر: عمـادة البحـث العلمـي بجامعـة الإمـام محمّـد بـن سـعود الإسـلاميّة. الرّيـاض. ط: 2. س: 1411 هـ. 1991 م.

. **قريسـة** (**هشـام**): " مـن مظـاهر التّنـوير في فكـر الشّـيخ محمّـد الطّـاهر ابـن عاشـور الإصـلاح التّعليمـي . نموذجـا ". مـن محاضـرة " التّنـوير عنـد علمـاء الزّيتونـة في النّصـف الأوّل مـن القـرن العشرين". ط: 1. شركة المطبعة الفنّيّة. تونس. س: 1431 هـ. 2010 م.

ـ **قطـب** (**سـيّد**): " في ظـلال القـرآن ". ط: 8. دار الشّـروق. بـيروت. س: 1399 هـ . 1979م.

ـ **محفـوظ** (**محمّـد**): " تـراجم المـؤلّفين التّونسـيّين ". نشـر دار الغـرب الاسـلامي. بـيروت. ط:1 س: 1402 هـ. 1982 م.

ـ **المـاوردي** (**أبـو الحسـن علـي**) " أدب الـدّنيا والـدِّين " دار مكتبـة الحيـاة. بـيروت. س: 1406 هـ. 1986م.

ـ **المقـدّم** (**محمّـد بـن أحمـد بـن إسماعيـل**) " خـواطر حـول الوهّابيّـة. ط: 1. دار التّوحيـد للتّراث ". الإسكندريّة. 1429 هـ - 2008 م.

الدّوريّات: المجلاّت والصّحف

جريدة "حبيب الأمّة". السّنة الأولى. العدد 12.

جريدة "حبيب الأمة". السّنة الأولى. العدد 12.

جريدة العمل التّونسيّة عدد 4141. الصّادرة في 22 شوّال 2388 هـ . 11 يناير 1969.

جريدة الشّرق الأوسط . الأحد 03 رمضان 1433 هـ 22 يوليو 2012 العدد 12290

جريدة الوسط البحرينية - العدد 3993 - الموافق 06 شوال 1434هـ . 12 . 8 . 2013.

مجلّة برلين عدد كانون الأوّل عام 1784.

مجلّة الخفجي. العدد الرّابع. عام: رجب 1395 هـ . يوليو 1975م.

مجلّـة الدّرعيـة: العـددان 19/18، جمـادى الآخـرة – رمضـان 1423هـ/ سـبتمبر – ديسـمبر 2002م.
مجلّة "السّعادة العظمى". العدد 18 المجلّد الأوّل 1904/1322 ص 273.
مجلّة الفكر العربي المعاصر. عدد: شعبان 1409 هـ . مارس 1989 م.
مجلّة المنار. المجلّد الخامس. الجزء 22. ص 880.

مواقع إلكترونيّة

المصادر:

ـ همـام (محمّـد). " نقـد مفهـوم الحرّيّـة في الفكـر الإسـلامي". الطّـاهر ابـن عاشـور نموذجـا. موقـع الفكـر المعاصر:
http://afkarmoassira.com/news26.html#_ftn25

موقع العمامة. وهو مجلّة ثقافيّة اجتماعيّة أدبيّة مصوّرة تُعنى بشؤون الطّائفة الدّرزيّة.
http://www.al-amama.com/index.php?option=com_content&task=view&id=260

شبكة الألوكة الثّقافيّة.
http://www.alukah.net/Culture/10387/10028/

فهرس الموضوعات

المقدمة	5 . 1
الفصل الأوّل: الجانب التّعريفي والمفاهيمي	6
المبحث الأوّل: في معنى الإصلاح لغة واصطلاحا	9 . 7
المبحث الثّاني: الإصلاح في القرآن الكريم	15 . 10
المبحث الثّالث: الإصلاح في السّنّة النّبويّة الشّريفة	23 . 16
المبحث الرّابع: شروط نجاح عمليّة الإصلاح	31 . 24

الفصل الثّاني: لماذا الإصلاح؟	37 . 32
المبحث الأوّل: من أين يبدأ الإصلاح؟	42 . 38
المبحث الثّاني: الإصلاح بين العقدي والسّياسي	50 . 43
الفصل الثّالث: العمل الإصلاحي عند الإمامين ابن عبد الوهّاب وابن عاشور	51
المبحث الأوّل: الإصلاح عند محمّد بن عبد الوّهاب	57 . 52
أبرز آراء محمّد بن عبد الوهّاب الإصلاحيّة	80 . 58
مجالات عمله الإصلاحي	90 . 81
بين إصلاح الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب والفكر الغربي	93 . 91
المبحث الثّاني: الإصلاح عند الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور	102 . 94
عرض مختصر لأبرز آرائه الإصلاحيّة	122 . 103
قوادح الفكر المقاصدي في ذهنيّة ابن عاشور	140 . 123
المبحث الثّالث: جوانب الاتّفاق و الاختلاف بين الشّيخين	166 . 141
الفصل الرّابع: معالم لرؤية إصلاحيّة	167
تمهيد	168
المبحث الأوّل: الموقف من الرّؤيتين	173 . 169
المبحث الثّاني: معالم لرؤية إصلاحيّة	180 . 174
الخاتمة	189 . 185
الفهارس	187